

الجزء الثانى والثلاثون

الطبعـــة الأولى

التزام عبد الرحمن محمد
بميدان الجامع الأزهر بمصر

(سورة ألم نشرح)

(ثمان آيات مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ «١»

﴿ سورة ألم نشرح ثمـان آيات مكية ﴾

يروى عن طاووس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة وكانا يقرآنهما فى الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم والذى دعاهما إلى ذلك هو أن قوله تعالى (ألم نشرح لك) كالعطف على قوله (ألم يجـدك يتيما) وليس كذلك لأن (الأول) كان نزوله حال اغتمام الرسول ﷺ من إيذاء الكفار فكانت حال محنة وضيق صدر (والثانى) يقتضى أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب، فأنى يجتمعان .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار . فأفاد إثبات الشرح وإيجابه ، فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ، وفى شرح الصدر قولان :

﴿ الأول ﴾ ما روى أن جبريل عليه السلام أتاه وشق صدره وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصى ثم ملأه علماً وإيماناً ووضعه فى صدره .

واعلم أن القاضى طعن فى هـذه الرواية من وجوه : (أحدها) أن الرواية أن هـذه الواقعة إنمـا وقعت فى حال صغره عليه السلام وذلك من المعجزات ، فلا يجوز أن تتقدم نبوته (وثانيها) أن تأثير الغسل فى إزالة الأجسام ، والمعاصى ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها أثر (وثالثها) أنه لا يصح أن يملأ القلب علماً ، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم (والجواب) عن (الأول) أن تقديم المعجز على زمان البعثة جائز عنـدنا ، وذلك هو المسمى بالإرهاص ، ومثله فى حق الرسول عليـه السلام كثير .

وأما (الثانى ، والثالث) فلا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذى غسلوه من قلب الرسول عليه السـلام علامة للقلب الذى يميل إلى المعاصى ، ويحجم عن الطاعات ، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لكون صاحبه مواظباً على الطاعات محترزاً عن السيئات ، فكان ذلك كالعلامة للملائكة على كون صاحبه معصوما ، وأيضاً فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد

﴿ والقول الثانى ﴾ أن المراد من شرح الصدر ما يرجع إلى المعرفة والطاعة . ثم ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أنه عليه السلام لما بعث إلى الجن والإنس فكان يضيق صدره عن منازعة الجن والإنس والبراءة من كل عابد ومعبود سوى الله ، فآتاه الله من آياته ما اتسع لكل ما حمله وصغر عنده كل شىء احتمله من المشاق ، وذلك بأن أخرج عن قلبه جميع الهموم وما ترك فيه إلا هذا الهم الواحد . فما كان يخطر بباله هم النفقة والعيال ، ولا يبالى بما يتوجه إليه من إيذائهم ، حتى صاروا فى عينه دون الذباب لم يجبن خوفاً من وعيدهم ، ولم يمل إلى مالهم ، وبالجملة فشرح الصدر عبارة عن علمه بحقارة الدنيا وكمال الآخرة ، ونظيره قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا) وروى أنهم قالوا : يارسول الله أينشرح الصدر ؟ قال نعم ، قالوا وما علامة ذلك؟ قال « التجافى عن الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإعداد للموت قبل نزوله » وتحقيق القول فيه أن صدق الإيمان بالله ووعده ووعيده يوجب للانسان الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة والاستعداد للموت (وثانيها) أنه انفتح صدره حتى أنه كان يتسع لجميع المهمات لا يقلق ولا يضجر ولا يتغير ، بل هو فى حالتى البؤس والفرح منشرح الصدر مشتغل بأداء ما كلف به ، والشرح التوسعة . ومعناه الإراحة من الهموم ، والعرب تسمى الغم والهم ضيق صدر كقوله (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك) وههنا سؤالات :

﴿ الأول ﴾ لم ذكر الصدر ولم يذكر القلب ؟ (والجواب) لأن محل الوسوسة هو الصدر على ما قال (يوسوس فى صدور الناس) فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعى الخير هى الشرح ، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب ، وقال محمد بن على الترمذى : القلب محل العقل والمعرفة . وهو الذى يقصده الشيطان ، فالشيطان يجىء إلى الصدر الذى هو حصن القلب . فاذا وجد مسلكا أغار فيه ونزل جنده فيه ، وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للاسلام حلاوة ، وإذا طرد العدو فى الابتداء منع وحصل الأمن ويزول الضيق وينشرح الصدر ويتيسر له القيام بأداء العبودية .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال (ألم نشرح لك صدرك) ولم يقل ألم نشرح صدرك ؟ (والجواب) من وجهين (أحدهما) كأنه تعالى يقول لام بلام، فأنت إنما تفعل جميع الطاعات لأجلى كما قال (إلا ليعبدون ، أقم الصلاة لذكرى) فأنا أيضاً جميع ما أفعله لأجلك (وثانيها) أن فيها تنبيهاً على أن منافع الرسالة عائدة إليه عليه السلام ، كأنه تعالى قال إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلى .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال (ألم نشرح) ولم يقل ألم أشرح ؟ (والجواب) إن حملناه على نون التعظيم ، فالمعنى أن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة ، فدل ذلك على أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلى كنه جلالتها ، وإن حملناه على نون الجميع ، فالمعنى كأنه تعالى يقول : لم أشرحه وحدى بل أعملت فيه ملائكتى ، فكنت ترى الملائكة حواليك وبين يديك حتى يقوى قلبك ، فأديت

وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ «٢» ٱلَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ

الرسالة وأنت قوى القلب ولحقتهم هيبة ، فلم يجيبوا لك جواباً ، فلو كنت ضيق القلب لضحكوا منك ، فسبحان من جعل قوة قلبك جبناً فيهم ، وانشراح صدرك ضيقاً فيهم .

ثم قال تعالى ﴿ ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المبرد هذا محمول على معنى ألم نشرح لا على لفظه ، لأنك لا تقول ألم وضعنا ولكن معنى ألم نشرح قد شرحنا ، فحمل الثانى على معنى الأول لا على ظاهر اللفظ ، لأنه لو كان معطوفاً على ظاهره لوجب أن يقال ونضع عنك وزرك .

﴿المسألة الثانية﴾ معنى الوزر ثقل الذنب ، وقد مر تفسيره عند قوله (وهم يحملون أوزارهم) وهو كقوله تعالى (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) .

وأما قوله (أنقض ظهرك) فقال علماء اللغه الأصل فيه أن الظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض أى صوت خفى ، وهو صوت المحامل والرحال والأضلاع ، أو البعير إذا أثقله الحمل فهو مثل لما كان يثقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوزاره .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج بهذه الآية من أثبت المعصية للأنبياء عليهم السلام (والجواب) عنه من وجهين (الأول) أن الذين يجوزون الصغائر على الأنبياء عليهم السلام حملوا هذه الآية عليها ، لا يقال إن قوله (الذى أنقض ظهرك) يدل على كونه عظيما ، فكيف يليق ذلك بالصغائر ، لأنا نقول : إنما وصف ذلك بإنقاض الظهر مع كونها مغفورة لشدة اغتمام النبى ﷺ بوقوعه منه وتحسره مع ندمه عليه ، أو إنما وصفه بذلك لأن تأثيره فيما يزول به من الثواب عظيم ، فيجوز لذلك ما ذكره الله تعالى . هذا تقرير الكلام على قول المعتزلة وفيه إشكال ، وهو أن العفو عن الصغيرة واجب على الله تعالى عند القاضى ، والله تعالى ذكر هذه الآية فى معرض الامتنان ، ومن المعلوم أن الامتنان بفعل الواجب غير جائز (الوجه الثانى) أن يحمل ذلك على غير الذنب ، وفيه وجوه (أحدها) قال قتادة : كانت للنبى ﷺ ذنوب سلفت منه فى الجاهلية قبل النبوة ، وقد أثقلته فغفرها له (وثانيها) أن المراد منه تخفيف أعباء النبوة التى تثقل الظهر من القيام بأمرها وحفظ موجباتها والمحافظة على حقوقها ، فسهل الله تعالى ذلك عليه ، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له (وثالثها) الوزر ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل ، وكان لا يقدر على منعهم إلى أن قواه الله ، وقال له (أن اتبع ملة إبراهيم) (ورابعها) أنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه ، ماذا يصنع فى حقهم إلى أن قال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فأمنه من العذاب فى العاجل ، ووعد له الشفاعة فى الآجل (وخامسها) معناه عصمناك عن الوزر الذى ينقض ظهرك ، لو كان ذلك الذنب حاصلا ، فسمى العصمة وضعاً مجازاً ، فمن ذلك ماروى أنه حضر وليمة

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ «٤»

فيها دف ومزامير قبل البعثة ليسمع ، فضرب الله على أذنه فلم يوقظه إلا حر الشمس من الغد (وسادسها) الوزر ما أصابه من الهيبة والفزع فى أول ملاقاة جبريل عليه السلام ، حين أخذته الرعدة ، وكاد يرمى نفسه من الجبل ، ثم تقوى حتى ألفه وصار بحالة كاد يرمى بنفسه من الجبل لشدة اشتياقه (وسابعها) الوزر ما كان يلحقه من الأذى والشتم حتى كاد ينقض ظهره وتأخذه الرعدة ، ثم قواه الله تعالى حتى صار بحيث كانوا يدمون وجهه ، و[هو] يقول «اللهم اهد قومى» (وثامنها) لئن كان نزول السورة بعد موت أبى طالب وخديجة ، فلقد كان فراقهما عليه وزراً عظيما ، فوضع عنه الوزر برفعه إلى السماء حتى لقيه كل ملك وحياه فارتفع له الذكر ، فلذلك قال (ورفعنا لك ذكرك) (وتاسعها) أن المراد من الوزر والثقل الحيرة التى كانت له قبل البعثة ، وذلك أنه بكمال عقله لما نظر إلى عظيم نعم الله تعالى عليه ، حيث أخرجه من العدم إلى الوجود وأعطاه الحياة والعقل وأنواع النعم ، ثقل عليه نعم الله وكاد ينقض ظهره من الحياء ، لأنه عليه السلام كان يرى أن نعم الله عليه لا تنقطع ، وما كان يعرف أنه كيف كان يطيع ربه ، فلما جاءته النبوة والتكليف وعرف أنه كيف ينبغى له أن يطيع ربه ، فحينئذ قل حياؤه وسهلت عليه تلك الأحوال ، فإن اللئيم لا يستحى من زيادة النعم بدون مقابلتها بالخدمة ، والإنسان الكريم النفس إذا كثر الإنعام عليه وهو لا يقابلها بنوع من أنواع الخدمة ، فإنه يثقل ذلك عليه جداً ، بحيث يميته الحياء . فإذا كافه المنعم بنوع خدمه سهل ذلك عليه وطاب قلبه .

ثم قال تعالى ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾

واعلم أنه عام فى كل ما ذكروه من النبوة ، وشهرته فى الأرض والسموات ، اسمه مكتوب على العرش . وأنه يذكر معه فى الشهادة والتشهد ، وأنه تعالى ذكره فى الكتب المتقدمه ، وانتشار ذكره فى الآفاق ، وأنه ختمت به النبوة ، وأنه يذكر فى الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل ، وعند الختم وجعل ذكره فى القرآن مقرونا بذكره (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ، و(من يطع الله ورسوله) و(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ويناديه باسم الرسول والنبى ، حين ينادى غيره بالاسم ياموسى ياعيسى ، وأيضاً جعله فى القلوب بحيث يستطيبون ذكره وهو معنى قوله تعالى (سيجعل لهم الرحمن وداً) كأنه تعالى يقول : أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويصلون عليك ويحفظون سنتك ، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعه سنة فهم يمتثلون فى الفريضة أمرى ، وفى السنة أمرك وجعلت طاعتك طاعتى وبيعتك بيعتى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) لا تأنف السلاطين من اتباعك ، بل لا جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك ، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك ، والمفسرون يفسرون معانى فرقانك ، والوعاظ يبلغون وعظك

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا «٥» إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا «٦»

بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك ، ويسلمون من وراء الباب عليك ، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك ، ويرجون شفاعتك . فشرفك باق إلى يوم القيامة .

قال تعالى ﴿ فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه تعلق هذه الآية بما قبلها أن المشركين كانوا يعيرون رسول الله ﷺ بالفقر ، ويقولون إن كان غرضك من هذا الذى تدعيه طلب الغنى جمعنا لك مالا حتى تكون كأيسر أهل مكة . فشق ذلك على رسول الله ﷺ حتى سبق إلى وهمه أنهم إنما رغبوا عن الإسلام لكونه فقيراً حقيراً عندهم ، فعدد الله تعالى عليه مننه فى هذه السورة ، وقال (ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك) أى ما كنت فيه من أمر الجاهلية ، ثم وعده بالغنى فى الدنيا ليزيل عن قلبه ما حصل فيه من التأذى بسبب أنهم عيروه بالفقر ، والدليل عليه دخول الفاء فى قوله (فإن مع العسر يسراً) كأنه تعالى قال : لا يحزنك ما يقولون وما أنت فيه من القلة ، فإنه يحصل فى الدنيا يسر كامل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ابن عباس : يقول الله تعالى : خلقت عسراً واحداً بين يسرين ، فلن يغلب عسر يسرين ، وروى مقاتل عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال « لن يغلب عسر يسرين » وقرأ هذه الآية ، وفى تقرير هذا المعنى وجهان (الأول) قال الفراء والزجاج : العسر مذكور بالألف واللام ، وليس هناك معهود سابق فينصرف إلى الحقيقة ، فيكون المراد بالعسر فى اللفظين شيئاً واحداً . وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير ، فكان أحدهما غير الآخر ، وزيف الجرجانى هذا وقال . إذا قال الرجل : إن مع الفارس سيفاً ، إن مع الفارس سيفاً ، يلزم أن يكون هناك فارس واحد ومعه سيفان ، ومعلوم أن ذلك غير لازم من وضع العربية (الوجه الثانى) أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى ، كما كرر قوله (ويل يومئذ للمكذبين) ويكون الغرض تقرير معناها فى النفوس وتمكينها فى القلوب ، كما يكرر المفرد فى قولك : جاءنى زيد زيد . والمراد من اليسرين : يسر الدنيا وهو ما تيسر من استفتاح البلاد ، ويسر الآخرة وهو ثواب الجنة . لقوله تعالى (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) وهما حسن الظفر وحسن الثواب ، فالمراد من قوله « لن يغلب عسر يسرين » هذا ، وذلك لأن عسر الدنيا بالنسبة إلى يسر الدنيا ، ويسر الآخرة كالمغمور القليل . وههنا سؤالان :

﴿ الأول ﴾ ما معنى التنكير فى اليسر ؟ (جوابه) التفخيم ، كأنه قيل : إن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً عظيما ، وأى يسر .

﴿ السؤال الثانى ﴾ اليسر لا يكون مع العسر . لأنهما ضدان فلا يجتمعان (الجواب) لما

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ «٧» وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ «٨»

كان وقوع اليسر بعد العسر بزمان قليل ، كان مقطوعاً به فجعل كالمقارن له .

ثم قال تعالى ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ وجه تعلق هذا بما قبله أنه تعالى لما عدد عليه نعمه السالفة ، ووعده بالنعم الآتية ، لا جرم بعثه على الشكر والاجتهاد فى العبادة ، فقال : فإذا (فرغت فانصب) أى فاتعب يقال نصب ينصب ، قال قتادة والضحاك ومقاتل : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة (فانصب إلى ربك) فى الدعاء ، وارغب إليه فى المسألة يعطك ، وقال الشعبى : إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك ، وقال مجاهد : إذا فرغت من أمر دنياك فانصب وصل ، وقال عبد الله إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل ، وقال الحسن إذا فرغت من الغزو فاجتهد فى العبادة ، وقال على بن أبى طلحة إذا كنت صحيحاً فانصب ، يعنى اجعل فراغك نصباً فى العبادة يدل عليه ماروى أن شريحاً مر برجلين يتصارعان ، فقال : الفارغ ما أمر بهذا إنما قال الله (فإذا فرغت فانصب) وبالجملة فالمعنى أن يواصل بين بعض العبادات وبعض ، وأن لا يخلى وقتاً من أوقاته منها ، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى .

وأما قوله تعالى ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ ففيه وجهان (أحدهما) اجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلا عليه (وثانيها) ارغب فى سائر ما تلتمسه ديناً ودنيا ونصرة على الأعداء إلى ربك ، وقرىء فرغب أى رغب الناس إلى طلب ما عنده ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(ســورة التين)

(وهى ثمان آيات مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ «١» وَطُورِ سِينِينَ «٢» وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ «٣»

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ﴾

اعلم أن الإشكال هو أن التين والزيتون ليسا من الأمور الشريفة ، فكيف يليق أن يقسم الله تعالى بهما ؟ فلأجل هذا السؤال حصل فيه قولان :

﴿ الأول ﴾ أن المراد من التين والزيتون هذان الشيآن المشهوران ، قال ابن عباس: هو تينكم وزيتونكم هذا ، ثم ذكروا من خواص التين والزيتون أشياء .

أما التين فقالوا إنه غذاء وفاكهة ودواء ، أما كونه غذاء فالأطباء زعموا أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث فى المعدة يلين الطبع ويخرج بطريق الترشح ويقلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل مافى المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح مسام الكبد والطحال وهو خير الفواكه وأحمدها ، وروى أنه أهدى لرسول ﷺ طبق من تين فأكل منه ، ثم قال لأصحابه « كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس » وعن على بن موسى الرضا عليهما السلام : التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج ، وأما كونه دواء ، فلأنه يتداوى به فى إخراج فضول البدن .

واعلم أن لها بعد ما ذكرنا خواص : (أحدها) أن ظاهرها كباطنها ليست كالجوز ظاهره قشر ولا كالتمر باطنه قشر ، بل نقول إن من الثمار ما يخبث ظاهره ويطيب باطنه ، كالجوز والبطيخ ومنه ما يطيب ظاهره دون باطنه كالتمر والإجاص .

أما التين فأنه طيب الظاهر والباطن (وثانيها) أن الأشجار ثلاثة شجرة تعد وتخلف وهى شجرة الخلاف ، وثانية تعد وتفى وهى التى تأتى بالنور أولا وبعده بالثمرة كالتفاح وغيره ، وشجرة تبذل قبل الوعد ، وهى التين لأنها تخرج الثمرة قبل أن تعد بالورد ، بل لو غيرت العبارة لقلت هى شجرة تظهر المعنى قبل الدعوى ، بل لك أن تقول إنها شجرة تخرج الثمرة قبل أن تلبس نفسها بورد أو بورق ، والتفاح والمشمش وغيرهما تبدأ بنفسها ، ثم بغيرها ، أما شجرة التين فانها تهتم بغيرها

قبل اهتمامها بنفسها ، فسائر الأشجار كأرباب المعاملة فى قوله عليه السلام « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » وشجرة التين كالمصطفى عليه السلام كان يبدأ بغيره فإن فضل صرفه إلى نفسه ، بل من الذين أثنى الله عليهم فى قوله (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ، (وثالثها) أن من خواص هذه الشجرة أن سائر الأشجار إذا سقطت الثمرة من موضعها لم تعد فى تلك السنة ، إلا التين فانه يعيد البذر وربما سقط ثم يعود مرة أخرى (ورابعها) أن التين فى النوم رجل خير غنى فمن نالها فى المنام نال مالا وسعة ، ومن أكلها رزقه الله أولاداً (وخامسها) روى أن آدم عليه السلام لما عصى وفارقته ثيابه تستر بورق التين ، وروى أنه لما نزل وكان متزراً بورق التين استوحش فطاف الظباء حوله فاستأنس بها فأطعمها بعض ورق التين ، فرزقها الله الجمال صورة والملاحة معنى وغير دمها مسكا ، فلما تفرقت الظباء إلى مساكنها رأى غيرها عليها من الجمال ما أعجبها ، فلما كانت من الغد جاءت الظباء على أثر الأولى إلى آدم فأطعمها من الورق فغير الله حالها إلى الجمال دون المسك ، وذلك لأن الأولى جاءت لآدم لا لأجل الطمع والطائفة الأخرى جاءت للطمع سراً وإلى آدم ظاهراً ، فلا جرم غير الظاهر دون الباطن ، وأما الزيتون فشجرته هى الشجرة المباركة فاكهة من وجه وإدام من وجه ودواء من وجه ، وهى فى أغلب البلاد لا تحتاج إلى تربية الناس ، ثم لا تقتصر منفعتها على غذاء بدنك ، بل هى غذاء السراج أيضاً وتولدها فى الجبال التى لا يوجد فيها شىء من الدهنية البتة . وقيل من أخذ ورق الزيتون فى المنام استمسك بالعروة الوثقى ، وقال مريض لابن سيرين ، رأيت فى المنام كأنه قيل لى كل اللامين تشف ، فقال كل الزيتون فإنه لا شرقية ولا غربية . ثم قال المفسرون : التين والزيتون اسم لهذين المأكولين وفيهما هذه المنافع الجليلة ، فوجب إجراء اللفظ على الظاهر ، والجزم بأن الله تعالى أقسم بهما لما فيهما من المصالح والمنافع .

﴿ القول الثانى ﴾ أنه ليس المراد هاتين الثمرتين ، ثم ذكروا وجوهاً (أحدها) قال ابن عباس هما جبلان من الأرض المقدسة ، يقال لهما بالسريانية طور تينا ، وطور زيتا ، لأنهما منبتا التين والزيتون ، فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء ، فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السلام . والزيتون الشام مبعث أكثر أنبياء بنى إسرائيل ، والطور مبعث موسى عليه السلام ، والبلد الأمين مبعث محمد ﷺ ، فيكون المراد من القسم فى الحقيقة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم (وثانيها) أن المراد من التين والزيتون مسجدان ، ثم قال ابن زيد التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس ، وقال آخرون التين مسجد أصحاب أهل الكهف ، والزيتون مسجد إيليا ، وعن ابن عباس التين مسجد نوح المبنى على الجودى ، والزيتون مسجد بيت المقدس ، والقائلون بهذا القول إنما ذهبوا إليه لأن القسم بالمسجد أحسن لأنه موضع العبادة والطاعة ، فلما كانت هذه المساجد فى هذه المواضع التى يكثر فيها التين والزيتون . لا جرم اكتفى بذكر التين والزيتون (وثالثها)

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ «٣»

المراد من التين والزيتون بلدان ، فقال كعب التين دمشق والزيتون بيت المقدس ، وقال شهر ابن حوشب التين الكوفة ، والزيتون الشام ، وعن الربيع هما جبلان بين همدان وحلوان ، والقائلون بهذا القول ، إنما ذهبوا إليه لأن اليهود والنصارى والمسلمين ومشركى قريش كل واحد منهم يعظم بلدة من هذه البلاد ، فالله تعالى أقسم بهذه البلاد بأسرها ، أو يقال إن دمشق وبيت المقدس فيهما نعم الدنيا ، والطور ومكة فيهما نعم الدين .

أما قوله تعالى (وطور سينين) فالمراد من (الطور) الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه . واختلفوا فى (سينين) والأولى عند النحويين أن يكون سينين وسينا اسمين للمكان الذى حصل فيه الجبل أضيفا إلى ذلك المكان ، وأما المفسرون فقال ابن عباس فى رواية عكرمة (الطور) الجبل (وسينين) الحسن بلغة الحبشة ، وقال مجاهد (سينين) المبارك ، وقال الكلبى هو الجبل المشجر ذو الشجر ، وقال مقاتل كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا بلغة النبط قال الواحدى ، والأولى أن يكون سينين اسما للمكان الذى به الجبل ، ثم ذلك سمى سينين أو سينا لحسنه أو لكونه مباركا . ولا يجوز أن يكون سينين نعتاً للطور لإضافته إليه .

أما قوله تعالى (وهذا البلد الأمين) فالمراد مكة والأمين : الآمن قال صاحب الكشاف من أمن الرجل أمانة فهو أمين وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه ، ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل . كما وصف بالأمن فى قوله (حرماً آمناً) يعنى ذا أمن ، وذكروا فى كونه أميناً وجوهاً (أحدها) أن الله تعالى حفظه عن الفيل على ما يأتيك شرحه إن شاء الله تعالى (وثانيها) أنها تحفظ لك جميع الأشياء فمباح الدم عند الالتجاء إليها آمن من السباع والصيود تستفيد منها الحفظ عند الالتجاء إليها (وثالثها) ماروى أن عمر كان يقبل الحجر ، ويقول إنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك . فقال له على عليه السلام إما أنه يضر وينفع إن الله تعالى لما أخذ على ذرية آدم الميثاق كتبه فى رق أبيض ، وكان لهذا الركن يومئذ لسان وشفتان وعينان . فقال افتح فاك فألقمه ذلك الرق وقال تشهد لمن وافاك بالموافاة إلى يوم القيامة ، فقال عمر لا بقيت فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن .

ثم قال تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ المراد من الإنسان هذه الماهية والتقويم تصيير الشىء على ما ينبغى أن يكون فى التأليف والتعديل ، يقال قومته تقويماً فاستقام وتقوم ، وذكروا فى شرح ذلك الحسن وجوهاً (أحدها) أنه تعالى خلق كل ذى روح مكباً على وجهه إلا الإنسان فإنه تعالى خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده وقال الأصم فى أكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان . والحاصل أن القول الأول راجع إلى الصورة الظاهرة ، والثانى إلى

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ «٥» إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ «٦» فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ «٧»

السيرة الباطنة ، وعن يحيى بن أكثم القاضى أنه فسر التقويم بحسن الصورة ، فإنه حكى أن ملك زمانه خلا بزوجته فى ليلة مقمرة ، فقال إن لم تكونى أحسن من القمر فأنت كذا . فأفتى الكل بالحنث إلا يحيى بن أكثم فإنه قال لا يحنث ، فقيل له خالفت شيوخك ، فقال الفتوى بالعلم ولقد أفتى من هو أعلم منا وهو الله تعالى فإنه يقول (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وكان بعض الصالحين يقول : إلهنا أعطيتنا فى الأولى أحسن الأشكال . فأعطنا فى الآخرة أحسن الفعال ، وهو العفو عن الذنوب ، والتجاوز عن العيوب .

أما قوله تعالى ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ ففيه وجهان : (الأول) قال ابن عباس يريد أرذل العمر . وهو مثل قوله يرد إلى أرذل العمر ، قال ابن قتيبة السافلون هم الضعفاء والزمنى ، ومن لا يستطيع حيلة ولا يجد سبيلا ، يقال سفل يسفل فهو سافل وهم سافلون ، كما يقال علا يعلو فهو عال وهم عالون ، أراد أن الهرم يخرف ويضعف سمعه وبصره وعقله وتقل حيلته ويعجز عن عمل الصالحات ، فيكون أسفل الجميع ، وقال الفراء : ولو كانت أسفل سافل لكان صواباً ، لأن لفظ الإنسان واحد ، وأنت تقول هذا أفضل قائم ولا تقول أفضل قائمين ، إلا أنه قيل سافلين على الجمع لأن الإنسان فى معنى جمع فهو كقوله (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) وقال (وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم) .

(والقول الثانى) ماذكره مجاهد والحسن ثم رددناه إلى النار ، قال على عليه السلام وضع أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض فيبدأ بالأسفل فيملأ وهو أسفل سافلين ، وعلى هذا التقدير فالمعنى ثم رددناه إلى أسفل سافلين إلى النار .

أما قوله تعالى ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فاعلم أن هذا الاستثناء على القول الأول منقطع ، والمعنى ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله إياهم بالشيخوخة والهرم ، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة وعلى تخاذل نهوضهم ، وأما على القول الثانى فالاستثناء متصل ظاهر الاتصال .

أما قوله تعالى ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ ففيه قولان (أحدهما) غير منقوص ولا مقطوع (وثانيهما) أجر غير ممنون أى لا يمن به عليهم . واعلم أن كل ذلك من صفات الثواب ، لأنه يجب أن يكون غير منقطع وأن لا يكون منغصاً بالمنة .

ثم قال تعالى ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ وفيه سؤالان :

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَاكِمِينَ «٨»

﴿ الأول ﴾ من المخاطب بقوله (فما يكذبك) ؟ الجواب فيه قولان (أحدهما) أنه خطاب الانسان على طريقة الالتفات ، والمراد من قوله (فما يكذبك) أن كل من أخبر عن الواقع بأنه لا يقع فهو كاذب ، والمعنى فما الذى يلجئك إلى هذا الكذب (والثانى) وهو اختيار الفراء أنه خطاب مع محمد ﷺ ، والمعنى فمن يكذبك يا أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل بالدين .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما وجه التعجب ؟ (الجواب) أن خلق الإنسان من النطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدريجه فى مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوى ، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر دليل واضح على قدرة الخالق على الحشر والنشر ، فمن شاهد هذه الحالة ثم بقى مصراً على إنكار الحشر فلا شىء أعجب منه .

ثم قال تعالى ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى تفسيره وجهين (أحدهما) أن هذا تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان ثم رده إلى أرذل العمر . يقول الله تعالى : أليس الذى فعل ذلك بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ، وإذا ثبتت القدرة والحكمة بهذه الدلالة صح القول بإمكان الحشر ووقوعه ، أما الإمكان فبالنظر إلى القدرة ، وأما الوقوع فبالنظر إلى الحكمة لأن عدم ذلك يقدح فى الحكمة . كما قال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) . (والثانى) أن هذا تنبيه من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأنه يحكم بينه وبين خصومه يوم القيامة بالعدل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال القاضى هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا يفعل القبيح ولا يخلق أفعال العباد مع ما فيها من السفه والظلم ، فإنه لو كان الفاعل لأفعال العباد هو الله تعالى لكان كل سفه وكل أمر بسفه وكل ترغيب فى سفه فهو من الله تعالى ومن كان كذلك فهو أسفه السفهاء ، كما أنه لا حكمة ولا أمر بالحكمة ولا ترغيب فى الحكمة إلا من الله تعالى ، ومن كان كذلك فهو أحكم الحكماء . ولما ثبت فى حقه تعالى الأمران لم يكن وصفه بأنه أحكم الحكماء أولى من وصفه بأنه أسفه السفهاء . ولما امتنع هذا الوصف فى حقه تعالى علمنا أنه ليس خالقاً لأفعال العباد (والجواب) المعارضة بالعلم والداعى ، ثم نقول : السفيه من قامت السفاهة به لا من خلق السفاهة ، كما أن المتحرك والساكن من قامت الحركة والسكون به لا من خلقهما ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

﴿ سورة القلم ﴾
﴿ تسع عشرة آية مكية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

﴿ سورة القلم تسع عشرة آية مكية ﴾
زعم المفسرون أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن وقال آخرون الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ اعلم أن فى الباء من قوله (باسم ربك) قولين (أحدهما) قال أبو عبيدة الباء زائدة ، والمعنى : اقرأ اسم ربك ، كما قال الأخطل :

هن الحرائر لا ربات أخمرة   سود المحاجر لا يقرأن بالسور

ومعنى اقرأ اسم ربك ، أى أذكر اسمه ، وهذ القول ضعيف لوجوه (أحدها) أنه لو كان معناه اذكر اسم ربك ما حسن منه أن يقول ما أنا بقارىء ، أى لا أذكر اسم ربى (وثانيها) أن هذا الأمر لا يليق بالرسول ، لأنه ما كان له شغل سوى ذكر الله . فكيف يأمره بأن يشتغل بما كان مشغولا به أبداً (وثالثها) أن فيه تضييع الباء من غير فائدة .

﴿ القول الثانى ﴾ أن المراد من قوله (اقرأ) أى اقرأ القرآن ، إذ القراءة لا تستعمل إلا فيه قال تعالى (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) وقال (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث) وقوله (باسم ربك) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون محل باسم ربك النصب على الحال فيكون التقدير : اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أى قل بسم الله ثم اقرأ ، وفى هذا دلالة على أنه يجب قراءة التسمية فى ابتداء كل سورة كما أنزل الله تعالى وأمر به ، وفى هذه الآية رد على من لا يرى ذلك واجباً ولا يبتدىء بها (وثانيها) أن يكون المعنى اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك كأنه يجعل الاسم آلة فيما يحاوله من أمر الدين والدنيا ، ونظيره كتبت بالقلم ، وتحقيقه أنه لما قال له (اقرأ) فقال له لست بقارىء ، فقال (اقرأ باسم ربك) أى استعن باسم ربك واتخذه آلة فى تحصيل هذا الذى عسر عليك (وثالثها) أن قوله (اقرأ باسم ربك) أى اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله كما تقول بنيت هذه الدار باسم الأمير وصنعت هذا الكتاب باسم الوزير ولأجله ، فإن العبادة

إذا صارت لله تعالى ، فكيف يجترىء الشيطان أن يتصرف فيما هو لله تعالى ؟ فإن قيل كيف يستمر هذا التأويل فى قولك قبل الأكل بسم الله ، وكذا قبل كل فعل مباح ؟ قلنا فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك إضافة مجازية كما تضيف ضيعتك إلى بعض الكبار لتدفع بذلك ظلم الظلمة ، كذا تضيف فعلك إلى الله ليقطع الشيطان طمعه عن مشاركتك ، فقد روى أن من لم يذكر اسم الله شاركه الشيطان فى ذلك الطعام (والثانى) أنه ربما استعان بذلك المباح على التقوى على طاعة الله فيصير المباح طاعة فيصح ذلك التأويل فيه .

أما قوله (ربك) ففيه سؤالات :

﴿ أحدها ﴾ وهو أن الرب من صفات الفعل . والله من أسماء الذات وأسماء الذات أشرف من أسماء الفعل ، ولأنا قد دللنا بالوجوه الكثيرة على أن اسم الله أشرف من اسم الرب ، ثم إنه تعالى قال ههنا (باسم ربك) ولم يقل اقرأ باسم الله كما قال فى التسمية المعروفة (بسم الله الرحمن الرحيم) (وجوابه) أنه أمر بالعبادة ، وبصفات الذات ، وهو لا يستوجب شيئاً ، وإنما يستوجب العبادة بصفات الفعل ، فكان ذلك أبلغ فى الحث على الطاعة ، ولأن هذه السورة كانت من أوائل مانزل على ما كان الرسول عليه السلام قد فزع فاستماله ليزول الفزع ، فقال هو الذى رباك فكيف يفزعك ؟ فأفاد هذا الحرف معنيين (أحدهما) ربيتك فلزمك القضاء فلا تتكاسل (والثانى) أن الشروع ملزم للاتمام ، وقد ربيتك منذ كذا فكيف أضيعك ، أى حين كنت علقاً لم أدع تربيتك فبعد أن صرت خلقاً نفيساً موحداً عارفاً بى كيف أضيعك !.

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الحكمة فى أنه أضاف ذاته إليه ، فقال (باسم ربك) ؟ (الجواب) تارة يضيف ذاته إليه بالربوبية كما ههنا . وتارة يضيفه إلى نفسه بالعبودية ، أسرى بعبده ، نظيره قوله عليه السلام «على منى وأنا منه» كأنه تعالى يقول هو لى وأنا له ، يقرره قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) أو نقول إضافة ذاته إلى عبده أحسن من إضافة العبد إليه ، إذ قد علم فى الشاهد أن من له ابنان ينفعه أكبرهما دون الأصغر ، يقول هو ابنى فحسب لما أنه ينال منه المنفعة ، فيقول الرب تعالى المنفعة تصل منى إليك ، ولم تصل منك إلى خدمة ولا طاعة إلى الآن ، فأقول أنا لك ولا أقول أنت لى ، ثم إذا أتيت بما طلبته منك من طاعة أو توبة أضفتك إلى نفسى فقلت أنزل على عبده (ياعبادى الذين أسرفوا) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم ذكر عقيب قوله (ربك) قوله (الذى خلق) ؟ (الجواب) كأن العبد يقول ما الدليل على أنك ربى ؟ فيقول لأنك كنت بذاتك وصفاتك معدوما . ثم صرت موجوداً فلا بد لك فى ذاتك وصفاتك من خالق ، وهذا الخلق والإيجاد تربية فدل ذلك على أنى ربك وأنت مربوبى .

ٱلَّذِى خَلَقَ «١» خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ «٢»

أما قوله تعالى ﴿ الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير هذه الآية ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون قوله (الذى خلق) لا يقدر له مفعول ، ويكون المعنى الذى حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه (والثانى) أن يقدر له مفعول ويكون المعنى أنه الذى خلق كل شىء ، فيتناول كل مخلوق ، لأنه مطلق ، فليس حمله على البعض أولى من حمله على الباقى ، كقولنا الله أكبر ، أى من كل شىء ، ثم قوله بعد ذلك (خلق الإنسان من علق) تخصيص للانسان بالذكر من بين جملة المخلوقات ، إما لأن التنزيل إليه أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض (والثالث) أن يكون قوله (اقرأ باسم ربك الذى خلق) مبهماً ثم فسره بقوله (خلق الإنسان من علق) تفخيما لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية على أنه لا خالق غير الله تعالى ، قالوا لأنه سبحانه جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات ، وكل صفة هذا شأنها فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها ، قالوا وبهذا الطريق عرفنا أن خاصية الإلهية هى القدرة على الاختراع ومما يؤكد ذلك أن فرعون لما طلب حقيقة الإله ، فقال : (وما رب العالمين) قال موسى (ربكم ورب آبائكم الأولين) والربوبية إشارة إلى الخالقية التى ذكرها ههنا ، وكل ذلك يدل على قولنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله تعالى ، أو النظر فى معرفة الله أو القصد إلى ذلك النظر على الاختلاف المشهور فيما بينهم ، ثم إن الحكيم سبحانه لما أراد أن يبعثه رسولا إلى المشركين ، لو قال له : اقرأ باسم ربك الذى لا شريك له ، لأبوا أن يقبلوا ذلك منه ، لكنه تعالى قدم فى ذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به كما يحكى أن زفر لما بعثه أبو حنيفة إلى البصرة لتقرير مذهبه ، فلما ذكر أبا حنيفة زيفوه ولم يلتفتوا إليه ، فرجع إلى أبى حنيفة وأخبره بذلك ، فقال إنك لم تعرف طريق التبليغ ، لكن ارجع إليهم ، واذكر فى المسألة أقاويل أئمتهم ثم بين ضعفها ، ثم قل بعد ذلك ههنا قول آخر ، واذكر قولى وحجتى ، فإذا تمكن ذلك فى قلبهم ، فقل هذا قول أبى حنيفة لأنهم حينئذ يستحيون فلا يردون ، فكذا ههنا أن الحق سبحانه يقول ، إن هؤلاء عباد الأوثان ، فلو أثنيت على وأعرضت عن الأوثان لأبوا ذلك ، لكن اذكر لهم أنهم هم الذين خلقوا من العلقة فلا يمكنهم إنكاره ، ثم قل ولا بد للفعل من فاعل فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك إلى الوثن لعلمهم بأنهم نحتوه . فبهذا التدريج يقرون بأنى أنا المستحق للثناء دون الأوثان ، كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) ثم لما صارت الإلهية موقوفة على الخالقية حصل القطع بأن من لم يخلق لم يكن إلهاً ، فلهذا قال تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ودلت الآية على أن القول بالطبع باطل ، لأن المؤثر فيه إن كان حادثاً افتقر إلى مؤثر آخر ، وإن كان قديماً فإما أن يكون موجباً

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ «٣» الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ «٤»

أو قادراً، فإن كان موجباً لزم أن يقارنه الأثر فلم يبق إلا أنه مختار وهو عالم لأن التغير حصل على الترتيب الموافق للمصلحة.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما قال (من علق) على الجمع لأن الإنسان فى معنى الجمع، كقوله (إن الإنسان لفى خسر).

أما قوله تعالى ﴿ اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم ﴾ ففيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم اقرأ أولا لنفسك، والثانى للتبليغ أو الأول للتعلم من جبريل والثانى للتعليم. أو اقرأ فى صلاتك، والثانى خارج صلاتك.

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكرم إفادة ما ينبغى لا لعوض. فمن يهب السكين ممن يقتل به نفسه فهو ليس بكريم، ومن أعطى ثم طلب عوضاً فهو ليس بكريم، وليس يجب أن يكون العوض عيناً بل المدح والثواب والتخلص عن المذمة كله عوض، ولهذا قال أصحابنا إنه تعالى يستحيل أن يفعل فعلا لغرض لأنه لو فعل فعلا لغرض لكان حصول ذلك الغرض أولى له من لاحصوله، فحينئذ يستفيد بفعل ذلك الشىء حصول تلك الأولوية، ولو لم يفعل ذلك الفعل لما كان يحصل له تلك الأولوية، فيكون ناقصاً بذاته مستكملا بغيره وذلك محال، ثم ذكروا فى بيان أكرميته تعالى وجوهاً (أحدها) أنه كم من كريم يحلم وقت الجناية، لكن لا يبقى إحسانه على الوجه الذى كان قبل الجناية، وهو تعالى أكرم لأنه يزيد بإحسانه بعد الجناية، ومنه قول القائل:

متى زدت تقصيراً تزد لى تفضلا كأنى بالتقصير أستوجب الفضلا

(وثانيها) إنك كريم لكن ربك أكرم وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعاً إما مدحاً أو ثواباً أو يدفع ضرراً، أما أنا فالأكرم إذ لا أفعله إلا لمحض الكرم (وثالثها) أنه الأكرم لأن له الابتداء فى كل كرم وإحسان وكرمه غير مشوب بالتقصير (ورابعها) يحتمل أن يكون هذا حثاً على القراءة أى هو الأكرم لأنه يجازيك بكل حرف عشراً أو حثاً على الإخلاص، أى لا تقرأ لطمع ولكن لأجلى ودع على أمرك فأنا أكرم من أن لا أعطيك مالا يخطر ببالك، ويحتمل أن المعنى تجرد لدعوة الخلق ولا تخف أحداً فأنا أكرم من أن آمرك بهذا التكليف الشاق ثم لا أنصرك.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه سبحانه وصف نفسه بأنه (خلق الإنسان من علق) وثانياً بأنه الذى (علم بالقلم) ولا مناسبة فى الظاهر بين الأمرين، لكن التحقيق أن أول أحوال الإنسان كونه علقة وهى أخس الأشياء. وآخر أمره هو صيرورته عالماً بحقائق الأشياء، وهو أشرف مراتب المخلوقات فكأنه تعالى يقول انتقلت من أخس المراتب إلى أعلى المراتب فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة، ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات

عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ «٥» كَلَّا إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيَطْغَى «٦»

الإنسانية ، كأنه تعالى يقول الإيجاد والإحياء والإقدار والرزق كرم وربوبية ، أما الأكرم هو الذى أعطاك العلم لأن العلم هو النهاية فى الشرف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (باسم ربك الذى خلق .خلق الإنسان من علق) إشارة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة ، وقوله (الذى علم بالقلم) إشارة إلى الأحكام المكتوبة التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع ، فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية والثانى إلى النبوة ، وقدم الأول على الثانى تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى قوله (علم بالقلم) وجهان (أحدهما) أن المراد من القلم الكتابة التى تعرف بها الأمور الغائبة ، وجعل القلم كناية عنها (والثانى) أن المراد علم الإنسان الكتابة بالقلم وكلا القولين متقارب ، إذ المراد التنبيه على فضيلة الكتابة ، يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام ، فقال ريح لا يبقى ، قال فما قيده ، قال الكتابة ، فالقلم صياد يصيد العلوم يبكى ويضحك ، بركوعه تسجد الأنام ، وبحركته تبقى العلوم على مر الليالى والأيام ، نظيره قول زكريا (إذ نادى ربه نداء خفياً) أخفى وأسمع فكذا القلم لا ينطق ثم يسمع الشرق والغرب ، فسبحانه من قادر بسوادها جعل الدين منوراً ، كما أنه جعلك بالسواد مبصراً ، فالقلم قوام الإنسان والإنسان قوام العين ، ولا تقل القلم نائب اللسان ، فإن القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم . التراب طهور ، ولو إلى عشر حجج ، والقلم بدل [عن اللسان] ولو [بعث] إلى المشرق والمغرب (١).

أما قوله تعالى ﴿ علم الإنسان مالم يعلم ﴾ فيحتمل أن يكون المراد علمه بالقلم وعلمه أيضاً غير ذلك ولم يذكر واو النسق ، وقد يجرى مثل هذا فى الكلام تقول أكرمتك أحسنت إليك ملكتك الأموال وليتك الولايات ، ويحتمل أن يكون المراد من اللفظين واحداً ويكون المعنى : علم الإنسان بالقلم ما لم يعلمه ، فيكون قوله (علم الإنسان مالم يعلم) بياناً لقوله (علم بالقلم) .

قال تعالى ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد من الإنسان ههنا إنسان واحد وهو أبو جهل ، ثم منهم من قال نزلت السورة من ههنا إلى آخرها فى أبى جهل ، وقيل نزلت من قوله (أرأيت الذى ينهى عبداً) إلى آخر السورة فى أبى جهل . قال ابن عباس : كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فجاء أبو جهل ، فقال ألم أنهك عن هذا ؟ فزجره النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال

(١) هذه العبارة كما هى فى الأصل ، وهى مضطربة ، قوله التراب طهور إلخ أى أنه يغنى عن الماء فى التيمم به ، وما بين الأقواس المكنفة لزيادة الايضاح ، وهو يقصد إلى أن المقارنة بين الماء والتراب كالمقارنة بين القلم واللسان والله أعلم .

أبو جهل : والله إنك لتعلم أنى أكثر أهل الوادى نادياً ، فأنزل الله تعالى (فليدع ناديه ، سندع الزبانية) قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله ، فكأنه تعالى لما عرفه أنه مخلوق من علق فلا يليق به التكبر ، فهو عند ذلك ازداد طغياناً وتعززاً بماله ورياسته فى مكة . ويروى أنه قال ليس بمكة أكرم مى . ولعله لعنه الله قال ذلك رداً لقوله (وربك الأكرم) ثم القائلون بهذا القول منهم من زعم أنه ليست هذه السورة من أوائل ما نزل . ومنهم من قال : يحتمل أن يكون خمس آيات من أول السورة نزلت أولا ، ثم نزلت البقية بعد ذلك فى شأن أبى جهل ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أول السورة ، لأن تأليف الآيات إنما كان بأمر الله تعالى ، ألا ترى أن قوله تعالى (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) آخر ما نزل عند المفسرين ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل (القول الثانى) أن المراد من الإنسان المذكور فى هذه الآية جملة الإنسان ، والقول الأول وإن كان أظهر بحسب الروايات ، إلا أن هذا القول أقرب بحسب الظاهر ، لأنه تعالى بين أن الله سبحانه مع أنه خلقه من علقة ، وأنعم عليه بالنعم التى قدمنا ذكرها ، إذ أغناه ، وزاد فى النعمة عليه فإنه يطغى ويتجاوز الحد فى المعاصى واتباع هوى النفس ، وذلك وعيد وزجر عن هذه الطريقة ، ثم إنه تعالى أكد هذا الزجر بقوله (إن إلى ربك الرجعى) أى إلى حيث لا مالك سواه ، فتقع المحاسبة على ما كان منه من العمل والمؤاخذة بحسب ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (كلا) فيه وجوه (أحدها) أنه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه ، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه (وثانيها) قال مقاتل : كلا لا يعلم الإنسان أن الله هو الذى خلقه من العلقة وعلمه بعد الجهل ، وذلك لأنه عند صيرورته غنياً يطغى ويتكبر ، ويصير مستغرق القلب فى حب الدنيا فلا يتفكر فى هذه الأحوال ولا يتأمل فيها (وثالثها) ذكر الجرجانى صاحب النظم أن (كلا) ههنا بمعنى حقاً لأنه ليس قبله ولا بعده شىء تكون (كلا) رداً له ، وهذا كما قالوه فى (كلا والقمر) فإنهم زعموا أنه بمعنى : إى والقمر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الطغيان هو التكبر والتمرد ، وتحقيق الكلام فى هذه الآية أن الله تعالى لما ذكر فى مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يبعد من العاقل أن لا يطلع عليها ولا يقف على حقائقها . أتبعها بما هو السبب الأصلى فى الغفلة عنها وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة ، فإنه لا سبب لعمى القلب فى الحقيقة إلا ذلك . فإن قيل إن فرعون ادعى الربوبية . فقال الله تعالى فى حقه (اذهب إلى فرعون إنه طغى) وههنا ذكر فى أبى جهل (ليطغى) فأكده بهذه اللام ، فما السبب فى هذه الزيادة ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) أنه قال لموسى (اذهب إلى فرعون إنه طغى) وذلك قبل أن يلقاه موسى ، وقبل أن يعرض عليه الأدلة ، وقبل أن يدعى الربوبية . وأما ههنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله حين رد عليه أقبح الرد (وثانيها) أن فرعون مع كمال سلطته ما كان يزيد كفره على القول ، وما كان ليتعرض لقتل موسى عليه السلام ولا لإيذائه . وأما أبو جهل فهو مع قلة جاهه كان

أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ «٧» إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ «٨»

يقصد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وإيذاءه (وثالثها) أن فرعون أحسن إلى موسى أولا ، وقال آخراً (آمنت) . وأما أبو جهل فكان يحسد النبي في صباه ، وقال في آخر رمقه : بلغوا عنى محمداً أنى أموت ولا أحد أبغض إلى منه (ورابعها) أنهما وإن كانا رسولين لكن الحبيب فى مقابلة الكليم كاليد فى مقابلة العين ، والعاقل يصون عينه فوق ما يصون يده ، بل يصون عينه باليد ، فلهذا السبب كانت المبالغة ههنا أكثر .

أما قوله تعالى ﴿ أن رآه استغنى ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الأخفش : لأن رآه فحذف اللام ، كما يقال أنكم لتطغون أن رأيتم غناكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء إنما قال (أن رآه) ولم يقل رأى نفسه كما يقال قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التى تستدعى اسما وخبراً نحو الظن والحسبان ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس فتقول رأيتنى وظننتنى وحسبتنى فقوله (أن رآه استغنى) من هذا الباب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (استغنى) وجهان : (أحدهما) استغنى بماله عن ربه ، والمراد من الآية ليس هو الأول لأن الإنسان قد ينال الثروة فلا يزيد إلا تواضعاً كسليمان عليه السلام، فانه كان يجالس المساكين ويقول «مسكين جالس مسكيناً» وعبد الرحمن بن عوف ما طغى مع كثرة أمواله ، بل العاقل يعلم أنه عند الغنى يكون أكثر حاجة إلى الله تعالى منه حال فقره ، لأنه فى حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه ، وأما فى حال الغنى فانه يتمنى سلامة نفسه وماله ومماليكه ، وفى الآية (وجه ثالث)(١) وهو أن سين (استغنى) سين الطالب والمعنى أن الانسان رأى أن نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته وبذلت الجهد فى الطلب فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد ، لا لأنه نالها باعطاء الله وتوفيقه ، وهذا جهل وحمق فكم من باذل وسعه فى الحرص والطلب وهو يموت جوعاً ، ثم ترى أكثر الأغنياء فى الآخرة يصيرون مدبرين خائفين ، يريهم الله أن ذلك الغنى ما كان بفعلهم وقوتهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أول السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال ، وكفى بذلك مرغباً فى الدين والعلم ومنفراً عن الدنيا والمال .

ثم قال تعالى ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (الرجعى) المرجع والرجوع وهى بأجمعها مصادر ، يقال رجع إليه رجوعاً

(١) لم يذكر الوجه الثانى كما ترى ولعله سقط من الناسخ .

أَرَأَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ «٩» عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ «١٠»

ومرجعاً ورجعى على وزن فعلى ، وفى معنى الآية وجهان : (أحدهما) أنه يرى ثواب طاعته وعقاب تمرده وتكبره وطغيانه ، ونظيره قوله (ولا تحسبن الله غافلا) إلى قوله (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) وهذه الموعظة لا تؤثر إلا فى قلب من له قدم صدق ، أما الجاهل فيغضب ولا يعتقد إلا الفرح العاجل (والقول الثانى) أنه تعالى يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت ، كما رده من النقصان إلى الكمال ، حيث نقله من الجمادية إلى الحياة ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الذل إلى العز ، فما هذا التعزز والقوة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى أن أبا جهل قال للرسول عليه الصلاة والسلام : أتزعم أن من استغنى طغى ، فاجعل لنا جبال مكة ذهباً وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى ، فندع ديننا ونتبع دينك ، فنزل جبريل وقال : إن شئت فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مثل مافعلنا بأصحاب المائدة ، فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم .

قوله تعالى ﴿ أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ روى عن أبى جهل لعنه الله أنه قال : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم ، قال فوالذى يحلف به لئن رأيته لأطأن عنقه ، ثم إنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فنكص على عقبيه ، فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ فقال إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولا شديداً . وعن الحسن أن أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة .

واعلم أن ظاهر الآية أن المراد فى هذه الآية هو الإنسان المتقدم ذكره ، فلذلك قالوا إنه ورد فى أبى جهل ، وذكروا ماكان منه من التوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام حين رآه يصلى ، ولا يمتنع أن يكون نزولها فى أبى جهل ، ثم يعم فى الكل ، لكن ما بعده يقتضى أنه فى رجل بعينه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أرأيت) خطاب مع الرسول على سبيل التعجب ، ووجه التعجب فيه أمور (أحدها) أنه عليه السلام قال : اللهم أعز الإسلام إما بأبى جهل بن هشام أو بعمر ، فكأنه تعالى قال له : كنت تظن أنه يعز به الإسلام ، أمثله يعز به الإسلام ، وهو (ينهى عبداً إذا صلى) (وثانيها) أنه كان يلقب بأبى الحكم ، فكأنه تعالى يقول : كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه ، أيوصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان ! (وثالثها) أن ذلك الأحمق يأمر وينهى ، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته ، مع أنه ليس بخالق ولا رب . ثم إنه ينهى عن طاعة الرب والخالق ، ألا يكون هذا غاية الحماقة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ينهى عبداً) ولم يقل ينهاك ، وفيه فوائد (أحدها) أن التنكير فى عبداً يدل على كونه كاملا فى العبودية ، كأنه يقول : إنه عبد لا يفى العالم بشرح بيانه وصفة إخلاصه فى

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰ «١١» أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰ «١٢»

عبوديته (يروى) فى هذا المعنى أن يهودياً من فصحاء اليهود جاء إلى عمر فى أيام خلافته فقال أخبرنى عن أخلاق رسولكم ، فقال عمر : اطلبه من بلال فهو أعلم به منى . ثم إن بلالا دله على فاطمة ثم فاطمة دلته على على عليه السلام ، فلما سأل علياً عنه قال : صف لى متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه ، فقال الرجل هذا لا يتيسر لى . فقال على : عجزت عن وصف متاع الدنيا وقد شهد الله على قلته حيث قال (قل متاع الدنيا قليل) فكيف أصف أخلاق النبى وقد شهد الله تعالى بأنه عظيم حيث قال (وإنك لعلى خلق عظيم) فكأنه تعالى قال ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية وذلك عين الجهل والحمق (وثانيها) أن هذا أبلغ فى الذم لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته فينهى كل من يرى (وثالثها) أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة ، روى عن على عليه السلام أنه رأى فى المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد ، فقال مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ، فقيل له ألا تنهاهم ؟ فقال أخشى أن أدخل تحت قوله (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى) فلم يصرح بالنهى عن الصلاة ، وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حين قال له أبو يوسف أيقول المصلى حين يرفع رأسه من الركوع : اللهم اغفر لى ؟ قال يقول ربنا لك الحمد ويسجد ولم يصرح بالنهى (ورابعها) أيظن أبو جهل أنه لو لم يسجد محمد لى لا أجد ساجداً غيره ، إن محمداً عبد واحد ، ولى من الملائكة المقربين مالا يحصيهم إلا أنا وهم دائما فى الصلاة والتسبيح (وخامسها) أنه تفخيم لشأن النبى عليه السلام يقول إنه مع التنكير معرف ، نظيره الكناية فى سورة القدر حملت على القرآن ولم يسبق له ذكر (أسرى بعبده) (أنزل على عبده) (وأنه لما قام عبد الله) .

ثم قال تعالى ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أرأيت) خطاب لمن ؟ فيه وجهان (الأول) أنه خطاب للنبى عليه السلام ، والدليل عليه أن الأول وهو قوله (أرأيت الذى ينهى عبداً) للنبى صلى الله عليه وسلم والثالث وهو قوله (أرأيت إن كذب وتولى) للنبى عليه الصلاة والسلام فلو جعلنا الوسط لغير النبى لخرج الكلام عن النظم الحسن ، يقول الله تعالى يامحمد : أرأيت إن كان هذا الكافر ، ولم يقل لو كان إشارة إلى المستقبل كأنه يقول أرأيت إن صار على الهدى ، واشتغل بأمر نفسه ، أما كان يليق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة . فلو اختار الدين والهدى والأمر بالتقوى ، أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهى عن خدمته وطاعته ، كأنه تعالى يقول : تلهف عليه كيف فوت على نفسه المراتب العالية وقنع بالمراتب الدنيئة .

﴿ القول الثانى ﴾ أنه خطاب للكافر ، لأن الله تعالى كالمشاهد للظالم والمظلوم ، وكالمولى الذى قام بين يديه عبدان . وكالحاكم الذى حضر عنده المدعى ، والمدعى عليه نخاطب هذا مرة ، وهذا

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى «١٣» أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى «١٤»

مرة . فلما قال للنبى (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى) التفت بعدذلك إلى الكافر ، فقال : أرأيت يا كافرإن كانت صلاته هدى ودعاؤه إلى الله أمراً بالتقوى أتنهاه مع ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ههناسؤالوهو أن المذكور فى أول الآية . هوالصلاة وهوقوله (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى) والمذكور ههنا أمران . وهو قوله (أرأيت إن كان على الهدى) فى فعل الصلاة ، فلم ضم إليه شيئاً ثانياً ، وهو قوله (أو أمر بالتقوى) ؟ (جوابه) من وجوه (أحدها) أن الذى شق على أبى جهل من أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام هو هذان الأمران الصلاة والدعاء إلى الله . فلا جرم ذكرهما ههنا (وثانيها) أن النبى عليه الصلاة والسلام كان لا يوجد إلا فى أحد أمرين ، إما فى إصلاح نفسه ، وذلك بفعل الصلاة أو فى إصلاح غيره ، وذلك بالأمر بالتقوى (وثالثها) أنه عليه السلام كان فى صلاته على الهدى وآمراً بالتقوى ، لأن كل من رآه وهو فى الصلاة كان يرق قلبه . فيميل إلى الإيمان ، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل ، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول .

ثم قال تعالى ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ وفيه قولان :

﴿ القول الأول ﴾ أنه خطاب مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن الدلائل التى ذكرها فى أول هذه السورة جلية ظاهرة ، وكل أحد يعلم ببديهة عقله ، أن منع العبدمن خدمة مولاه فعل باطل وسفه ظاهر ، فإذن كل من كذب بتلك الدلائل وتولى عن خدمة مولاه بل منع غيره عن خدمة مولاه يعلم بعقله السليم أنه على الباطل . وأنه لا يفعل ذلك إلا عناداً ، فلهذا قال تعالى لرسوله أرأيت يا محمد إن كذب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة ، وتولى عن خدمة خالقه ، ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة ويعلمها ، أفلا يزجره ذلك عن هذه الأعمال القبيحة (والثانى) أنه خطاب للكافر ، والمعنى إن كان يا كافر محمد كاذباً أو متولياً ، ألا يعلم بأن الله يرى حتى ينتهى بل احتاج إلى نهيك .

أما قوله ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المقصود من الآية التهديد بالحشر والنشر ، والمعنى أنه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يهمل ، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فلا بد وأن يوصل جزاء كل أحد إليه بتمامه فيكون هذا تخويفاً شديداً للعصاة ، وترغيباً عظيماً لأهل الطاعة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية وإن نزلت فى حق أبى جهل فكل من نهى عن طاعة الله فهو شريك أبى جهل فى هذا الوعيد . ولا يرد عليه المنع من الصلاة فى الدار المغصوبة والأوقات المكروهة ، لأن المنهى عنه غير الصلاة وهو المعصية ، ولا يرد المولى بمنع عبده عن قيام الليل

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ «١٥» نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ «١٨»

وصوم التطوع وزوجته عن الاعتكاف ، لأن ذلك لاستيفاء مصلحته بإذن ربه لا بغضاً لعبادة ربه .

ثم قال تعالى ﴿ كلا ﴾ وفيه وجوه (أحدها) أنه ردع لأبي جهل ومنع له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات (وثانيها) كلا لن يصل أبو جهل إلى مايقول إنه يقتل محمداً أو يطأ عنقه ، بل تلميذ محمد هو الذي يقتله ويطأ صدره (وثالثها) قال مقاتل : كلا لا يعلم أن الله يرى وإن كان يعلم لكن إذا كان لاينتفع بما يعلم فكأنه لا يعلم .

ثم قال تعالى ﴿ لئن لم ينته ﴾ أى عما هو فيه ﴿ لنسفعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (لنسفعاً) وجوه (أحدها) لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار ، والسفع القبض على الشيء ، وجذبه بشدة ، وهو كقوله (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) (وثانيها) السفع الضرب ، أى لنلطمن وجهه (وثالثها) لنسودن وجهه ، قال الخليل تقول للشيء إذا لفحته النار لفحاً يسيراً يغير لون البشرة قد سفعته النار ، قال والسفع ثلاثة أحجار يوضع عليها القدر سميت بذلك لسوادها ، قال والسفعة سواد فى الخدين . وبالجملة فتسويد الوجه علامة الإذلال والإهانة (ورابعها) لنسمنه قال ابن عباس فى قوله (سنسمه على الخرطوم) إنه أبو جهل (وخامسها) لنذلنه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء لنسفعن بالنون المشددة ، أى الفاعل لهذا الفعل هو الله والملائكة ، كما قال (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) وقرأ ابن مسعود لأسفعن ، أى يقول الله تعالى يا محمد . أنا الذى أتولى إهانته ، نظيره (هو الذى أيدك) ، (هو الذى أنزل السكينة) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا السفع يحتمل أن يكون المراد منه إلى النار فى الآخرة وأن يكون المراد منه فى الدنيا ، وهذا أيضاً على وجوه (أحدها) ما روى أن أبا جهل لما قال : إن رأيته يصلى لأطأن عنقه ، فأنزل الله تعالى هذه السورة ، وأمره جبريل عليه السلام بأن يقرأ على أبى جهل ويخر لله ساجداً فى آخرها ففعل ، فعدا إليه أبو جهل ليطأ عنقه ، فلما دنا منه نكص على عقبيه راجعاً ، فقيل له مالك ؟ قال إن بينى وبينه فحلا فاغراً فاه لو مشيت إليه لالتقمنى ، وقيل كان جبريل وميكائيل عليهما السلام على كتفيه فى صورة الأسد (والثانى) أن يكون المراد يوم بدر فيكون ذلك بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجرونه إلى القتل إذا عاد إلى النهى ، فلما عاد لاجرم مكنهم الله تعالى من ناصيته يوم بدر ، روى أنه لما نزلت سورة الرحمن (علم القرآن) قال عليه السلام لأصحابه من يقرؤها منكم على رؤساء قريش ، فتثاقلوا مخافة أذيتهم ، فقام ابن مسعود وقال : أنا يارسول الله ، فأجلسه عليه السلام ، ثم قال من يقرؤها عليهم فلم يقم إلا ابن مسعود ، ثم ثالثاً كذلك إلى أن أذن له ، وكان عليه السلام يبقى عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر

جثته ، ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة ، فافتتح قراءة السورة ، فقام أبو جهل فلطمه فشق أذنه وأدماه ، فانصرف وعيناه تدمع ، فلما رآه النبي عليه السلام رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً ، فإذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكا مستبشراً ، فقال ياجبريل تضحك وابن مسعود يبكى ! فقال ستعلم ، فلما ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ فى الجهاد ، فقال عليه السلام ، خذ رمحك والتمس فى الجرحى من كان به رمق فاقتله فإنك تنال ثواب المجاهدين ، فأخذ يطالع القتلى ، فإذا أبو جهل مصروع يخور ، فخاف أن تكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه ، ولعل هذا معنى قوله (سنسمه على الخرطوم) ثم لما عرف عجزه ولم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه فارتقى إليه بحيلة ، فلما رآه أبو جهل قال يا رويعى الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً ، فقال ابن مسعود : الإسلام يعلو ولا يعلى عليه . فقال أبو جهل بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلى منه فى حياتى ولا أحد أبغض إلى منه فى حال مماتى ، فروى أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال «فرعونى أشد من فرعون موسى فإنه قال (آمنت) وهو قد زاد عتواً» ثم قال لابن مسعود اقطع رأسى بسيفى هذا لأنه أحد وأقطع ، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله ، ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفاً لأجل أن لا يقوى على الحمل لوجوه : (أحدها) أنه كلب والكلب يجر (والثانى) لشق الأذن فيقتص الأذن بالأذن (والثالث) لتحقق الوعيد المذكور بقوله (لنسفعاً بالناصية) فتجر تلك الرأس على مقدمها ، ثم إن ابن مسعود لما لم يطقه شق أذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره إلى رسول الله ﷺ وجبريل بين يديه يضحك ، ويقول يامحمد أذن بأذن لكن الرأس ههنا مع الأذن ، فهذا ما روى فى مقتل أبى جهل نقلته معنى لا لفظاً ، وهو معنى قوله (لنسفعاً بالناصية) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الناصية شعر الجبهة وقد يسمى مكان الشعر ناصية ، ثم إنه تعالى كنى ههنا عن الوجه والرأس بالناصية ، ولعل السبب فيه أن أبا جهل كان شديد الاهتمام بترجيل تلك الناصية وتطييبها ، وربما كان يهتم أيضاً بتسويدها فأخبره الله تعالى أنه يسودها مع الوجه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أنه تعالى عرف الناصية بحرف التعريف كأنه تعالى يقول الناصية المعروفة عندكم ذاتها لكنها مجهولة عندكم صفاتها ناصية وأى ناصية كاذبة قولا خاطئة فعلا ، وإنما وصف بالكذب لأنه كان كاذباً على الله تعالى فى أنه لم يرسل محمداً وكاذباً على رسوله فى أنه ساحر أو كذاب أوليس بنبى ، وقيل كذبه أنه قال : أنا أكثر أهل هذه الوادى نادياً ، ووصف الناصية بأنها خاطئة لأن صاحبها متمرد على الله تعالى قال الله تعالى (لا يأكله إلا الخاطئون) والفرق بين الخاطىء والمخطىء أن الخاطىء معاقب مؤاخذ والمخطىء غير مؤاخذ . ووصف الناصية بالخاطئة الكاذبة كما وصف الوجوه بأنها ناظرة فى قوله تعالى (إلى ربها ناظرة) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ (ناصية) بدل من الناصية ، وجاز إبدالها من المعرفة وهى نكرة ، لأنها وصفت فاستقلت بفائدة .

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ «١٧» سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ «١٨»

﴿ المسألة السابعة ﴾ قرىء ناصية بالرفع والتقدير هى ناصية، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم. واعلم أن الرسول عليه السلام لما أغلظ فى القول لأبى جهل وتلا عليه هذه الآيات. قال: يامحمد بمن تهددنى وإنى لأ كثرهذا الوادى نادياً، فافتخر بجماعته الذين كانوا يأكلون حطامه. فنزل قوله تعالى ﴿ فليدع ناديه، سندع الزبانية ﴾ وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد مر تفسير النادى عند قوله (وتأتون فى ناديكم المنكر) قال أبو عبيدة ناديه أى أهل مجلسه، وبالجملة فالمراد من النادى أهل النادى، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله، وسمى نادياً لأن القوم يندون إليه ندأ وندوة، ومنه دار الندوة بمكة، وكانوا يجتمعون فيها للتشاور، وقيل سمى نادياً لأنه مجلس الندى والجود. ذكر ذلك على سبيل التهكم أى: اجمع أهل الكرم والدفاع فى زعمك لينصروك.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو عبيدة والمبرد واحد الزبانية زبنية وأصله من زبنية إذا دفعته وهو كل متمرد من إنس أو جن، ومثله فى المعنى والتقدير عفرية يقال فلان زبنية عفرية، وقال الأخفش قال بعضهم واحده الزبانى، وقال آخرون الزابن، وقال آخرون هذا من الجمع الذى لا واحد له من لفظه فى لغة العرب مثل أبابيل وعباديد وبالجملة فالمراد ملائكة العذاب، ولا شك أنهم مخصوصون بقوة شديدة. وقال مقاتل هم خزنة جهنم أرجلهم فى الأرض ورؤوسهم فى السماء، وقال قتادة الزبانية هم الشرط فى كلام العرب وهم الملائكة الغلاظ الشداد. وملائكة النار سموا الزبانية لأنهم يزبنون الكفار أى يدفعونهم فى جهنم.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى الآية قولان (الأول) أى فليفعل ما ذكره من أنه يدعو أنصاره ويستعين بهم فى مباطلة محمد، فإنه لو فعل ذلك فنحن ندعو الزبانية الذين لاطاقة لناديه وقومه بهم، قال ابن عباس: لودعا ناديه لأخذته الزبانية من ساعته معاينة، وقيل هذا إخبار من الله تعالى بأنه يجر فى الدنيا كالكلب وقد فعل به ذلك يوم بدر، وقيل بل هذا إخبار بأن الزبانية يجرونه فى الآخرة إلى النار (القول الثانى) أن فى الآية تقديما وتأخيراً أى لنسفعاً بالناصية وسندع الزبانية فى الآخرة، فليدع هو ناديه حينئذ فليمنعوه.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الفاء فى قوله (فليدع ناديه) تدل على المعجز. لأن هذا يكون تحريضاً للكافر على دعوة ناديه وقومه، ومتى فعل الكافر ذلك ترتب عليه دعوة الزبانية. فلما لم يجترىء الكافر على ذلك دل على ظهور معجزة الرسول ﷺ.

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرىء (ستدعى) على المجهول، وهذه السين ليست للشك[1] وإن عسى

---

(١) السين من معانيها التأكيد للوعد أو الوعيد، نحو قوله تعالى (فسيكفيكهم الله) ونحو سأنتقم منك. ولم أقف على أنها للشك ولعل الامام أراد التأكيد بنى مقابله وهو الشك. لأن أبا جهل كان شاكا فى الآخرة:

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ «١٩»

من الله واجب الوقوع ، وخصوصاً عند بشارة الرسول ﷺ بأن ينتقم له من عدوه ، ولعل فائدة السين هو المراد من قوله عليه السلام « لأنصرنك ولو بعد حين » .

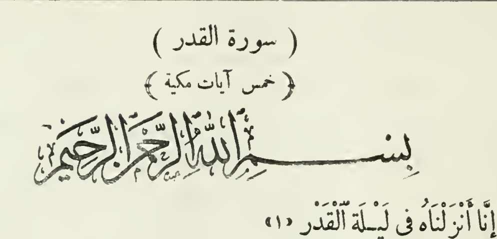
ثم قال ﴿ كلا ﴾ وهو ردع لأبي جهل ، وقيل معناه لن يصل إلى ما يتصلف به من أنه يدعو ناديه ولئن دعاهم لن ينفعوه ولن ينصروه ، وهو أذل وأحقر من أن يقاومك ، ويحتمل : لن ينال ما يتمنى من طاعتك له حين نهاك عن الصلاة ، وقيل معناه : ألا لا تطعه .

ثم قال ﴿ لا تطعه ﴾ وهو كقوله (فلا تطع المكذبين) ، ﴿ واسجد ﴾ وعند أكثر أهل التأويل أراد به صل وتوفر على عبادة الله تعالى فعلا وإبلاغاً ، وليقل فكرك فى هذا العدو فإن الله مقويك وناصرك ، وقال بعضهم بل المراد الخضوع ، وقال آخرون : بل المراد نفس السجود فى الصلاة .

ثم قال ﴿ واقترب ﴾ والمراد وابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك ، وفى الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد » وقال بعضهم المراد : اسجد يا محمد ، واقترب يا أبا جهل منه حتى تبصر ما ينالك من أخذ الزبانية إياك ، فكأنه تعالى أمره بالسجود ليزداد غيظ الكافر ، كقوله (ليغيظ بهم الكفار) والسبب الموجب لازدياد الغيظ هو أن الكافر كان يمنعه من القيام ، فيكون غيظه وغضبه عند مشاهدة السجود أتم ، ثم قال عند ذلك (واقترب) منه يا أبا جهل وضع قدمك عليه ، فان الرجل ساجد مشغول بنفسه ، وهذا تهكم به واستحقار لشأنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(سورة القدر)

﴿ خمس آيات مكية ﴾



إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ «١»

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أجمع المفسرون على أن المراد : إنا أنزلنا القرآن فى ليلة القدر ، ولكنه تعالى ترك التصريح بالذكر ، لأن هذا التركيب يدل على عظم القرآن من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه أسند إنزاله إليه وجعله مختصاً به دون غيره (والثانى) أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر ، شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التصريح ، ألا ترى أنه فى السورة المتقدمة لم يذكر اسم أبى جهل ولم يخف على أحد لاشتهاره ، وقوله (فلولا إذا بلغت الحلقوم) لم يذكر الموت لشهرته . فكذا ههنا (والثالث) تعظيم الوقت الذى أنزل فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى قال فى بعض المواضع (إنى) كقوله (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وفى بعض المواضع (إنا) كقوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) . (إنا نحن نزلنا الذكر) ، (إنا أرسلنا نوحاً) ، (إناأعطيناك الكوثر) . واعلم أن قوله (إنا) تارة يراد به التعظيم . وحمله على الجمع محال لأن الدلائل دلت على وحدة الصانع ، ولأنه لو كان فى الآلهة كثرة لانحطت رتبة كل واحد منهم عن الإلهية ، لأنه لو كان كل واحد منهم قادراً على الكمال لاستغنى بكل واحد منهم عن كل واحد منهم ، وكونه مستغنى عنه نقص فى حقه فيكون الكل ناقصاً . وإن لم يكن كل واحد منهم قادراً على الكمال كان ناقصاً . فعلمنا أن قوله (إنا) محمول على التعظيم لا على الجمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قيل مامعنى إنه أنزل فى ليلة القدر ، مع العلم بأنه أنزل نجوماً ؟ قلنا فيه وجوه : (أحدها) قال الشعبى ابتدأ بإنزاله ليلة القدر لأن البعث كان فى رمضان (والثانى) قال ابن عباس أنزل إلى سماء الدنيا جملة ليلة القدر ، ثم إلى الأرض نجوماً ، كما قال (فلا أقسم بمواقع النجوم) وقد ذكرنا هذه المسألة فى قوله (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) لايقال : فعلى هذا القول لم لم يقل أنزلناه إلى السماء ؟ لأن إطلاقه يوهم الإنزال إلى الأرض ، لأنا نقول إن إنزاله إلى السماء كإنزاله إلى الأرض ، لأنه لم يكن ليشرع فى أمر ثم لايتمه ، وهو كغائب جاء إلى نواحى البلد

يقال جاء فلان ، أو يقال الغرض من تقريبه وإنزاله إلى سماء الدنيا أن يشوقهم إلى نزوله كمن يسمع الخبر بمجىء منشور لوالده أو أمه ، فانه يزداد شوقه إلى مطالعته كما قال :

وأبرح مايكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

وهذا لأن السماء كالمشترك بيننا وبين الملائكة ، فهى لهم مسكن ولنا سقف وزينة ، كما قال : (وجعلنا السماء سقفاً) فإنزاله القرآن هناك كإنزاله ههنا (والوجه الثالث فى الجواب) أن التقدير أنزلنا هذا الذكر (فى ليلة القدر) أى فى فضيلة ليلة القدر وبيان شرفها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ القدر مصدر قدرت أقدر قدراً ، والمراد به ما يمضيه الله من الأمور ، قال (إنا كل شىء خلقناه بقدر) والقدر ، والقدر واحد إلا أنه بالتسكين مصدر وبالفتح اسم ، قال الواحدى : القدر فى اللغة بمعنى التقدير ، وهو جعل الشىء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان ، واختلفوا فى أنه لم سميت هذه الليلة ليلة القدر ، على وجوه (أحدها) أنها ليلة تقدير الأمور والأحكام ، قال عطاء : عن ابن عباس أن الله قدر ما يكون فى كل تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية ، ونظيره قوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) واعلم أن تقدير الله لايحدث فى تلك الليلة . فإنه تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض فى الأزل ، بل المراد إظهار تلك المقادير للملائكة فى تلك الليلة بأن يكتبها فى اللوح المحفوظ ، وهذا القول اختيار عامة العلماء (الثانى) نقل عن الزهرى أنه قال (ليلة القدر) ليلة العظمة والشرف من قولهم لفلان قدر عند فلان ، أى منزلة وشرف ، ويدل عليه قوله (ليلة القدر خير من ألف شهر) ثم هذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يرجع ذلك إلى الفاعل أى من أتى فيها بالطاعات صار ذا قدر وشرف (وثانيهما) إلى الفعل أى الطاعات لها فى تلك الليلة قدر زائد وشرف زائد ، وعن أبى بكر الوراق سميت (ليلة القدر) لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر ، على لسان ملك ذى قدر ، على أمة لها قدر ، ولعل الله تعالى إنما ذكر لفظة القدر فى هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب .

﴿ والقول الثالث ﴾ ليلة القدر ، أى الضيق فإن الأرض تضيق عن الملائكة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه (أحدها) أنه تعالى أخفاها ، كما أخفى سائر الأشياء ، فإنه أخفى رضاه فى الطاعات ، حتى يرغبوا فى الكل ، وأخفى غضبه فى المعاصى ليحترزوا عن الكل ، وأخفى وليه فيما بين الناس حتى يعظموا الكل ، وأخفى الإجابة فى الدعاء ليبالغوا فى كل الدعوات . وأخفى الإسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء ، وأخفى فى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل ، وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة ، وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف ، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالى رمضان (وثانيها) كأنه تعالى يقول : لو عينت ليلة القدر ، وأنا عالم بتجاسركم على المعصية ، فربما دعتك الشهوة فى

تلك الليلة إلى المعصية ، فوقعت فى الذنب ، فكانت معصيتك مع علمك أشد من معصيتك لا مع علمك ، فلهذا السبب أخفيتها عليك ، روى أنه عليه السلام دخل المسجد فرأى نائماً ، فقال يا على نبهه ليتوضأ ، فأيقظه على . ثم قال على يارسول الله إنك سباق إلى الخيرات ، فلم لم تنبهه ؟ قال : لأن رده عليك ليس بكفر ، ففعلت ذلك لتخف جنايته لوأبى ، وإذاكان هذا رحمة الرسول ، فقس عليه رحمة الرب تعالى . فكأنه تعالى يقول : إذا علمت ليلة القدر فإن أطعت فيها اكتسبت ثواب ألف شهر ، وإن عصيت فيها اكتسبت عقاب ألف شهر ، ودفع العقاب أولى من جلب الثواب (وثالثها) أنى أخفيت هذه الليلة حتى يجتهد المكلف فى طلبها ، فيكتسب ثواب الاجتهاد (ورابعها) أن العبد إذا لم يتيقن ليلة القدر ، فإنه يجتهد فى الطاعة فى جميع ليالى رمضان ، على رجاء أنه ربما كانت هذه الليلة هى ليلة القدر ، فيباهى الله تعالى بهم ملائكته ، ويقول : كنتم تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء . فهذا جده واجتهاده فى الليلة المظنونة ، فكيف لو جعلتها معلومة له ! فحينئذ يظهر سر قوله : (إنى أعلم ما لا تعلمون) .

﴿ المسأله السادسة ﴾ اختلفوا فى أن هـذه الليلة هل تستتبع اليوم ؟ قال الشعبى نعم يومها كليلتها . ولعل الوجه فيـه أن ذكر الليالى يستتبع الأيام . ومنه إذا نذر اعتكاف ليلتين ألزمناه بيوميهما قال تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) أى اليوم يخلف ليلته وبالضد .

﴿ المسألة السابعة ﴾ هذه الليلة هل هى باقية ؟ قال الخليل : من قال إن فضلها لنزول القرآن فيها يقول انقطعت وكانت مرة ، والجمهور على أنها باقيـة . وعلى هذا هل هى مختصة برمضان أم لا ؟ روى عن ابن مسعود أنه قال : من يقم الحول يصبها . وفسرها عكرمة بليلة البراءة فى قوله (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) والجمهور على أنها مختصة برمضان واحتجوا عليه بقوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وقال (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) فوجب أن تكون ليلة القدر فى رمضان لئلا يلزم التناقض ، وعلى هذا القول اختلفوا فى تعيينها على ثمـانية أقوال ، فقال ابن رزين ليلة القدر هى الليلة الأولى من رمضان ، وقال الحسن البصرى السابعة عشرة ، وعن أنس مرفوعاً التاسعة عشرة ، وقال محمد بن إسحق الحادية والعشرون . وعن ابن عباس الثالثة والعشرون ، وقال ابن مسعود الرابعة والعشرون ، وقال أبو ذر الغفارى الخامسة والعشرون . وقال أبى بن كعب وجماعة من الصحابة السابعة والعشرون ، وقال بعضهم التاسعة والعشرون . أما الذين قالوا إنها الليلة الأولى [فقد]قالوا : روى وهب أن صحف إبراهيم أنزلت فى الليلة الأولى من رمضان والتوراة لست ليال مضين من رمضان بعد صحف إبراهيم بسبعمائة سنة ، وأنزل الزبور على داود لثنتى عشرة ليلة خلت من رمضان بعد التوراة بخمسمائة عام وأنزل الإنجيل على عيسى لثمـان عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بستمائة عام وعشرين عاماً ، وكان القرآن ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ليلة قدر من السنة إلى السنة كان جبريل عليه السلام ينزل به من بيت العزة من السماء

وَمَا أَدْرَيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ «٢» لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ «٣»

السابعة إلى سماء الدنيا ، فأنزل الله تعالى القرآن فى عشرين شهراً فى عشرين سنة ، فلما كان هذا الشهر هو الشهر الذى حصلت فيه هذه الخيرات العظيمة ، لاجرم كان فى غاية الشرف والقدر والرتبة فكانت الليلة الأولى منه ليلة القدر ، وأما الحسن البصرى فانه قال هى ليلة سبعة عشر ، لأنها ليلة كانت صبيحتها وقعة بدر ، وأما التاسعة عشرة فقد روى أنس فيها خبراً ، وأما الليلة الحادية والعشرون فقد مال الشافعى إليه لحديث الماء والطين ، والذى عليه المعظم أنها ليلة السابع والعشرين ، وذكروا فيه أمارات ضعيفة(أحدها) حديث ابن عباس أن السورة ثلاثون كلمة . وقوله (هى) هى السابعة والعشرون منها (وثانيها) روى أن عمر سأل الصحابة ثم قال لابن عباس غص ياغواص فقال زيد بن ثابت أحضرت أولاد المهاجرين وما أحضرت أولادنا . فقال عمر : لعلك تقول إن هذا غلام ، ولكن عنده ماليس عندكم . فقال ابن عباس أحب الأعداد إلى الله تعالى الوتر وأحب الوتر إليه السبعة ، فذكر السموات السبع والأرضين السبع والأسبوع ودركات النار وعدد الطواف والأعضاء السبعة ، فدل على أنها السابعة والعشرون (وثالثها) نقل أيضاً عن ابن عباس ، أنه قال (ليلة القدر) تسعة أحرف ، وهو مذكور ثلاث مرات فتكون السابعة والعشرين (ورابعها) أنه كان لعثمان بن أبى العاص غلام ، فقال يامولاى إن البحر يعذب ماؤه ليلة من الشهر ، قال : إذا كانت تلك الليلة ، فأعلمنى فإذا هى السابعة والعشرون من رمضان . وأما من قال إنها الليلة الأخيرة قال لأنها هى الليلة التى تتم فيها طاعات هذا الشهر ، بل أول رمضان كآدم وآخره كمحمد ، ولذلك روى فى الحديث ، يعتق فى آخر رمضان بعدد ما أعتق من أول الشهر ، بل الليلة الأولى كمن ولد له ذكر ، فهى ليلة شكر ، والأخيرة ليلة الفراق كمن مات له ولد ، فهى ليلة صبر ، وقد علمت فرق ما بين الصبر والشكر .

ثم قال تعالى ﴿ وما أدراك ماليلة القدر ﴾ يعنى ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها ، ثم إنه تعالى بين فضيلتها من ثلاثة أوجه :

(الأول) قوله تعالى ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير الآية وجوه (أحدها) أن العبادة فيها (خير من ألف شهر) ليس فيها هذه الليلة ، لأنه كالمستحيل أن يقال إنها (خير من ألف شهر) فيها هذه الليلة ، وإنما كان كذلك لما يزيد الله فيها من المنافع والأرزاق وأنواع الخير (وثانيها) قال مجاهد :كان فى بنى إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسى فعل ذلك ألف شهر، فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك، فأنزل الله هذه الآية ، أى ليلة القدر لأمتك خير من ألف شهر لذلك الإسرائيلى الذى حمل السلاح ألف شهر (وثالثها) قال مالك بن أنس : أرى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعمار الناس ، فاستقصر أعمار أمته ، وخاف أن لا يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغه سائر الأمم ، فأعطاه الله ليلة القدر وهى خير من ألف شهر لسائر الأمم (ورابعها) روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن . قال : قلت للحسن بن على عليه السلام يامسود وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له يعنى معاوية ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى فى منامه بنى أمية يطؤن منبره واحداً بعد واحد ، وفى رواية ينزون على منبره نزو القردة ، فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) إلى قوله (خير من ألف شهر) يعنى ملك بنى أمية قال القاسم فحسبنا ملك بنى أمية ، فإذا هو ألف شهر . طعن القاضى فى هذه الوجوه فقال ما ذكر من (ألف شهر) فى أيام بنى أمية بعيد ، لأنه تعالى لا يذكر فضلها بذكر ألف شهر مذمومة ، وأيام بنى أمية كانت مذمومة .

واعلم أن هذا الطعن ضعيف . وذلك لأن أيام بنى أمية كانت أياماً عظيمة بحسب السعادات الدنيوية ، فلا يمتنع أن يقول الله إنى : أعطيتك ليلة هى فى السعادات الدينية أفضل من تلك السعادات الدنيوية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم ، أما البشارة فهى أنه تعالى ذكر أن هذه الليلة خير . ولم يبين قدر الخيرية ، وهذا كقوله عليه السلام لمبارزة على عليه السلام مع عمرو بن عبد ود [العامرى] أفضل من عمل أمتى إلى يوم القيامة . فلم يقل مثل عمله بل قال أفضل كأنه يقول حسبك هذا من الوزن والباقى جزاف .

واعلم أن من أحياها فكأنما عبد الله تعالى نيفاً وثمانين سنة ، ومن أحياها كل سنة فكأنه رزق أعماراً كثيرة ، ومن أحيا الشهر لينالها بيقين فكأنه أحيا ثلاثين قدراً ، يروى أنه يجاء يوم القيامة بالإسرائيلى الذى عبد الله أربعمائة سنة ، ويجاء برجل من هذه الأمة ، وقد عبد الله أربعين سنة فيكون ثوابه أكثر ، فيقول الإسرائيلى أنت العدل ، وأرى ثوابه أكثر ، فيقول لأنكم كنتم تخافون العقوبة المعجلة فتعبدون ، وأمة محمد كانوا آمنين لقوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم إنهم كانوا يعبدون ، فلهذا السبب كانت عباداتهم أكثر ثواباً . وأما التهديد فهو أنه تعالى توعد صاحب الكبيرة بالدخول فى النار ، وأن إحياء مائة ليلة من القدر لا يخلصه عن ذلك العذاب المستحق بتطفيف حبة واحدة ، فهذا فيه إشارة إلى تعظيم حال الذنب والمعصية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لقائل أن يقول : صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أجرك على قدر نصبك » ومن المعلوم أن الطاعة فى ألف شهر أشق من الطاعة فى ليلة واحدة ، فكيف يعقل استواؤهما ؟ (والجواب) من وجوه . (أحدها) أن الفعل الواحد قد يختلف حاله فى الحسن والقبح بسبب اختلاف الوجوه المنضمة إليه . ألا ترى أن صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بكذا درجة . مع أن الصورة قد تنتقض فإن المسبوق سقطت عنه ركعة واحدة . وأيضاً

تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا

فأنت تقول لمن يرجم : إنه إنما يرجم لأنه زان فهو قول حسن ، ولو قلته للنصرانى فقذف يوجب التعزير ، ولو قلته للمحصن فهو يوجب الحد ، فقد اختلفت الأحـكام فى هذه المواضع ، مع أن الصورة واحدة فى الـكل ، بل لو قلته فى حق عائشـة كان كفراً ، ولذلك قال (وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) وذلك لأن هذا طعن فى حق عائشة التى كانت رحلة فى العلم ، لقوله عليـه السلام « خذوا ثلثى دينكم من هذه الحميراء » وطعن فى صفوان مع أنه كان رجلا بدرياً ، وطعن فى صفوان مع أنه كان رجلا بدرياً ، وطعن فى كافة المؤمنين لأنها أم المؤمنين ، وللولد حق المطالبة بقذف الأم وإن كان كافراً ، بل طعن فى النبى الذى كان أشد خلق الله غيرة ، بل طعن فى حكمة الله إذ لا يجوز أن يتركه حتى يتزوج بامرأة زانية ، ثم القائل بقوله : هذا زان ، فقد ظن أن هذه اللفظة سهلة مع أنها أثقل من الجبال . فقد ثبت بهذا أن الأفعال تختلف آثارها فى الثواب والعقاب لاختلاف وجوهها . فلا يبعـد أن تـكون الطاعة القليلة فى الصورة مساوية فى الثواب للطاعات الـكثيرة (والوجه الثـانى) فى الجواب أن مقصود الحـكيم سبحانه أن يجر الخلق إلى الطاعات فتـارة يجعل ثمن الطاعة ضعفين ، فقال (إن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً) ومرة عشراً ، ومرة سبعمائة ، وتارة بحسب الأزمنة ، وتارة بحسب الأمـكنة . والمقصود الأصلى من الكل جر المـكلف إلى الطاعة وصرفه عن الاشتغال بالدنيا ، فتارة يرجح البيت وزمزم على سائر البلاد ، وتارة يفضل رمضان على سـائر الشهور ، وتارة يفضل الجمعة على سائر الأيام ، وتارة يفضل ليلة القدر على سائر الليالى ، والمقصود ما ذكرناه (الوجه الثانى) من فضائل هذه الليلة .

قوله تعالى ﴿ تنزل الملائـكة والروح فيها ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن نظر الملائكة على الأرواح ، ونظر البشر على الأشباح ، ثم إن الملائـكة لمـا رأوا روحك محلا للصفات الذميمة من الشهوة والغضب ما قبلوك . فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وأبواك لمـا رأوا قبح صورتك فى أول الأمر حين كنت منياً وعلقـة ما قبلوك أيضاً ، بل أظهروا النفرة . واستقذروا ذلك المنى والعلقة ، وغسـلوا ثيابهم عنه ، ثم كم احتالوا للاسقاط والإبطال ، ثم إنه تعالى لمـا أعطاك الصورة الحسنة فالأبوان لمـا رأوا تلك الصورة الحسنة قبلوك ومالوا إليك . فـكذا الملائـكة لمـا رأوا فى روحك الصورة الحسنة وهى معرفة الله وطاعته أحبوك ونزلوا إليك معتذرين عما قالوه أولا . فهذا هو المراد من قوله (تنزل الملائكة) فإذا نزلوا إليك رأوا روحك فى ظلمة ليل البدن ، وظلمة القوى الجسمانية فحينئذ يعتذرون عما تقدم (ويستغفرون للذين آمنوا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن قوله تعالى (تنزل الملائكة) يقتضى ظاهره نزول كل الملائكة ، ثم إن

الملائكة لهم كثرة عظيمة لاتحتمل كلهم الأرض ، فلهذا السبب اختلفوا فقال بعضهم إنها تنزل بأسرها إلى السماء الدنيا ، فإن قيل الإشكال بعد باق لأن السماء مملوأة بحيث لا يوجد فيها موضع إهاب إلا وفيه ملك ، فكيف تسع الجميع سماء واحدة ؟ قلنا يقضى بعموم الكتاب على خبر الواحد ، كيف والمروى إنهم ينزلون فوجاً فوجاً فمن نازل وصاعد كأهل الحج فإنهم على كثرتهم يدخلون الكعبة بالكلية لكن الناس بين داخل وخارج . ولهذا السبب مدت إلى غاية طلوع الفجر فلذلك ذكر بلفظ (تنزل) الذى يفيد المرة بعد المرة .

﴿ والقول الثانى ﴾ وهو إختيار الأكثرين أنهم ينزلون إلى الأرض وهو الأوجه ، لأن الغرض هو الترغيب فى إحياء هذه الليلة ، ولأنه دلت الأحاديث على أن الملائكة ينزلون فى سائر الأيام إلى مجالس الذكر والدين . فلأن يحصل ذلك فى هذه الليلة مع علو شأنها أولى ، ولأن النزول المطلق لايفيد إلا النزول من السماء إلى الأرض ، ثم اختلف من قال ينزلون إلى الأرض على وجوه : (أحدها) قال بعضهم ينزلون ليروا عبادة البشر وجدهم واجتهادهم فى الطاعة (وثانيها) أن الملائكة قالوا (وما نتنزل إلا بأمر ربك) فهذا يدل على أنهم كانوا مأمورين بذلك النزول فلا يدل على غاية المحبة.

أما هذه الآية وهو قوله (بإذن ربهم) فإنها تدل على أنهم استأذنوا أولا فأذنوا ، وذلك يدل على غاية المحبة ،لأنهم كانوا يرغبون إلينا ويتمنون لقاءنا . لكن كانوا ينتظرون الإذن . فإن قيل قوله (وإنا لنحن الصافون) ينافى قوله (تنزل الملائكة) قلنا نصرف الحالتين إلى زمانين مختلفين و(ثالثها) أنه تعالى وعد فى الآخرة أن الملائكة (يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم) فههنا فى الدنيا إن اشتغلت بعبادتى نزلت الملائكة عليك حتى يدخلوا عليك للتسليم والزيارة ، روى عن على عليه السلام « أنهم ينزلون ليسلموا علينا وليشفعوا لنا فمن أصابته التسليمة غفر له ذنبه » (ورابعها) أن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة فى الاشتغال بطاعته فى الأرض فهم ينزلون إلى الأرض لتصير طاعاتهم أكثر ثواباً ،كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعاته هناك أكثر ثواباً ، وكل ذلك ترغيب للانسان فى الطاعة (وخامسها) أن الانسان يأتى بالطاعات والخيرات عند حضور الأكابر من العلماء والزهاد أحسن مما يكون فى الخلوة . فالله تعالى أنزل الملائكة المقربين حتى أن المكلف يعلم أنه إنما يأتى بالطاعات فى حضور أولئك العلماء العباد الزهاد فيكون أتم وعن النقصان أبعد (وسادسها) أن من الناس من خص لفظ الملائكة ببعض فرق الملائكة ، عن كعب أن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلى الجنة ، فهى على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة ، وساقها فى الجنة وأغصانها تحت الكرسى فيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله يعبدون الله ومقام جبريل فى وسطها . ليس فيها ملك إلا وقد أعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين ينزلون مع جبريل ليلة القدر ، فلاتبقى بقعة من الأرض إلا وعليها ملك ساجد أو قائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات ، وجبريل لايدع أحداً من الناس إلا صافحهم ، وعلامة ذلك من اقشعر جلده

بإذن ربهم

ورق قلبه ودمعت عيناه . فإن ذلك من مصافحة جبريل عليه السلام ، من قال فيها ثلاث مرات لا إله إلا الله غفر له بواحدة ، ونجاه من النار بواحدة ، وأدخله الجنة بواحدة . وأول من يصعد جبريل حتى يصير أمام الشمس فيبسط جناحين أخضرين لا ينشرهما إلا تلك الساعة من يوم تلك الليلة ثم يدعو ملكا ملكا ، فيصعد الكل ويجتمع نور الملائكة ونور جناح جبريل عليه السلام ، فيقيم جبريل ومن معه من الملائكة بين الشمس وسماء الدنيا يومهم ذلك مشغولين بالدعاء والرحمة والاستغفار للمؤمنين ؛ ولمن صام رمضان احتساباً ، فإذا أمسوا دخلوا سماء الدنيا فيجلسون حلقاً حلقاً فتجتمع إليهم ملائكة السماء فيسألونهم عن رجل رجل وعن امرأة امرأة ، حتى يقولوا مافعل فلان وكيف وجدتموه ؟ فيقولون وجدناه عام أول متعبداً ، وفي هـذا العام مبتدعاً ، وفلان كان عام أول مبتدعا ، وهذا العام متعبداً ، فيكفون عن الدعاء للأول ، ويشتغلون بالدعاء للثاني ، ووجدنا فلاناً تالياً ، وفلاناً راكعاً ، وفلاناً ساجداً ، فهم كذلك يومهم وليلتهم حتى يصعدوا السماء الثانية وهكذا يفعلون في كل سماء حتى ينتهوا إلى السدرة ، فتقول لهم السدرة : ياسكاني حدثوني عن الناس فإن لي عليكم حقاً ، وإني أحب من أحب الله ، فذكر كعب أنهم يعدون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم . ثم يصل ذلك الخبر إلى الجنة ، فتقول الجنة : اللهم عجلهم إلي ، والملائكة ، وأهل السدرة يقولون : آمين آمين ، إذا عرفت هذا فنقول ، كلما كان الجمع أعظم ، كان نزول الرحمة هناك أكثر ، ولذلك فإن أعظم الجموع في موقف الحج ، لاجرم كان نزول الرحمة هناك أكثر ، فكذا في ليلة القدر يحصل مجمع الملائكة المقربين ، فلا جرم كان نزول الرحمة أكثر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا في الروح أقوالا (أحدها) أنه ملك عظيم ، لو التقم السموات والأرضين كان ذلك له لقمة واحدة (وثانيها) طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا ليلة القدر ، كالزهاد الذين لا نراهم إلا يوم العيد (وثالثها) خلق من خلق الله يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ، ولا من الإنس ، ولعلهم خدم أهل الجنة (ورابعها) يحتمل أنه عيسى عليه السلام لأنه اسمه ، ثم إنه ينزل في موافقة الملائكة ليطلع على أمة محمد (وخامسها) أنه القرآن . (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) (وسادسها) الرحمة قرىء (لاتيأسوا من روح الله) بالرفع كأنه تعالى ، يقول الملائكة ينزلون رحمتي تنزل في أثرهم فيجدون سعادة الدنيا وسعادة الآخرة (وسابعها) الروح أشرف الملائكة (وثامنها) عن أبي نجيح الروح هم الحفظة والكرام الكاتبون فصاحب اليمين يكتب إتيانه بالواجب ، وصاحب الشمال يكتب تركه للقبيح ، والأصح أن الروح هنا جبريل . وتخصيصه بالذكر لزيادة شرفه كأنه تعالى يقول الملائكة في كفة والروح في كفة

أما قوله تعالى ﴿ بإذن ربهم ﴾ فقد ذكرنا أن هذا يدل على أنهم كانوا مشتاقين إلينا ، فإن

مِنْ كُلِّ أَمْرٍ «٥»

قيل : كيف يرغبون إلينا مع علمهم بكثرة معاصينا ؟ قلنا إنهم لا يقفون على تفصيل المعاصى روى أنهم يطالعون اللوح ، فيرون فيه طاعة المكلف مفصلة ، فإذا وصلوا إلى معاصيه أرخى الستر فلا يرونها ، فحينئذ يقول سبحان من أظهر الجميل ، وستر على القبيح ، ثم قد ذكرنا فوائد فى نزولهم ونذكر الآن فوائد أخرى وحاصلها أنهم يرون فى الأرض من أنواع الطاعات أشياء ما رأوها فى عالم السموات (أحدها) أن الأغنياء يجيئون بالطعام من بيوتهم فيجعلونه ضيافة للفقراء والفقراء يأكلون طعام الأغنياء ويعبدون الله ، وهذا نوع من الطاعة لا يوجد فى السموات (وثانيها) أنهم يسمعون أنين العصاة وهذا لا يوجد فى السموات (وثالثها) أنه تعالى قال « لأنين المذنبين أحب إلى من زجل المسبحين » فقالوا تعالوا نذهب إلى الأرض فنسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من صوت تسبيحنا ، وكيف لا يكون أحب وزجل المسبحين إظهار لكمال حال المطيعين ، وأنين العصاة إظهار لغفارية رب الأرض والسموات [وهذه هى المسألة الأولى](١) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية دالة على عصمة الملائكة ونظيرها قوله (وما نتنزل إلا بأمر ربك) وقوله (لا يسبقونه بالقول) وفيها دقيقة وهى أنه تعالى لم يقل مأذونين بل قال (بإذن ربهم) وهو إشارة إلى أنهم لا يتصرفون تصرفاً ما إلا بإذنه . ومن ذلك قول الرجل لامرأته إن خرجت إلا بإذنى ، فانه يعتبر الإذن فى كل خرجة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ربهم) يفيد تعظيما للملائكة وتحقيراً للعصاة ،كأنه تعالى قال : كانوا لى فكنت لهم ،ونظيره فى حقنا (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض) وقال لمحمد عليه السلام (وإذ قال ربك) ونظيره ماروى أن داود لما مرض مرض الموت قال : إلهى كن لسليمان كما كنت لى ، فنزل الوحى وقال : قل لسليمان فليكن لى كما كنت لى ! وروى عن ابراهيم الخليل عليه السلام أنه فقد الضيف أياماً فخرج بالسفرة ليلتمس ضيفاً فاذا بخيمة . فنادى أتريدون الضيف ؟ فقيل نعم ، فقال للضيف أيوجد عندك إدام لبن أو عسل ؟ فرفع الرجل صخرتين فضرب إحداهما بالأخرى فانشقا فخرج من إحداهما اللبن ومن الأخرى العسل ، فتعجب ابراهيم وقال : إلهى أنا خليلك ولم أجد مثل ذلك الإكرام ، فما له ؟ فنزل الوحى ياخليلى كان لنا فكنا له .

أما قوله تعالى ﴿ من كل أمر ﴾ فمعناه تنزل الملائكة والروح فيها من أجل كل أمر ، والمعنى أن كل واحد منهم إنما نزل لمهم آخر ، ثم ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أنهم كانوا فى أشغال كثيرة فبعضهم للركوع وبعضهم للسجود ، وبعضهم بالدعاء ، وكذا القول فى التفكر والتعليم ، وإبلاغ الوحى ، وبعضهم لإدراك فضيلة الليلة أو ليسلموا على المؤمنين (وثانيها) وهو قول الأكثرين

(١) ما بين القوسين المربعين زيادة دعا إليها عدم ترجمة المؤلف للمسألة الأولى ، أو لعلها قد سقطت من الناسخ .

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ «٥»

من أجل كل أمر قدر فى تلك السنة من خير أو شر ، وفيه إشارة إلى أن نزولهم إنما كان عبادة ، فكأنهم قالوا ما نزلنا إلى الأرض لهوى أنفسنا ، لكن لأجل كل أمر فيه مصلحة المكلفين . وعم لفظ الأمر ليعم خير الدنيا والآخرة بياناً منه أنهم ينزلون بما هو صلاح المكلف فى دينه ودنياه كأن السائل يقول من أين جئت ؟ فيقول : مالك وهذا الفضول ، ولكن قل لأى أمر جئت لأنه حظك (وثالثها) قرأ بعضهم (من كل امرىء) أى من أجل كل إنسان ، وروى أنهم لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه ، قيل : أليس أنه قد روى أنه تقسم الآجال والأرزاق ليلة النصف من شعبان ، والآن تقولون إن ذلك يكون ليلة القدر ؟ قلنا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله يقدر المقادير فى ليلة البراءة ، فإذا كان ليلة القدر يسلمها إلى أربابها » وقيل يقدر ليلة البراءة الآجال والأرزاق ، وليلة القدر يقدر الأمور التى فيها الخير والبركة والسلامة ، وقيل يقدر فى ليلة القدر ما يتعلق به إعزاز الدين ، وما فيه النفع العظيم للمسلمين ، وأما ليلة البراءة فيكتب فيها أسماء من يموت ويسلم إلى ملك الموت .

(الوجه الثالث) من فضائل هذه الليلة . قوله تعالى ﴿سلام هى حتى مطلع الفجر﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله سلام وجوه (أحدها) أن ليلة القدر ، إلى طلوع الفجر سلام أى تسلم الملائكة على المطيعين ، وذلك لأن الملائكة ينزلون فوجاً فوجاً من ابتداء الليل إلى طلوع الفجر فترادف النزول لكثرة السلام (وثانيها) وصفت الليلة بأنها سلام ، ثم يجب أن لا يستحقر هذا السلام لأن سبعة من الملائكة سلموا على الخليل فى قصة العجل الحنيذ ، فازداد فرحه بذلك على فرحه بملك الدنيا ، بل الخليل لما سلم الملائكة عليه صار نار نمروذ عليه (برداً وسلاماً) أفلا تصير ناره تعالى ببركة تسليم الملائكة علينا (برداً وسلاماً لكن ضيافة الخليل لهم كانت عجلا مشوياً وهم يريدون منا قلباً مشوياً ، بل فيه دقيقة ، وهى إظهار فضل هذه الأمة ، فإن هناك الملائكة . نزلوا على الخليل ، وههنا نزلوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) أنه سلام من الشرور والآفات ، أى سلامة وهذا كما يقال : إنما فلان حج وغزو أى هو أبداً مشغول بهما ، ومثله :

« فإنما هى إقبال وإدبار »

وقالوا تتنزل الملائكة والروح فى ليلة القدر بالخيرات والسعادات ولا ينزل فيها من تقدير المضار شىء فما ينزل فى هذه الليلة فهو سلام ، أى سلامة ونفع وخير (ورابعها) قال أبو مسلم سلام أى الليلة سالمة عن الرياح والأذى والصواعق إلى ما شابه ذلك (وخامسها) سلام لا يستطيع الشيطان فيها سوءاً (وسادسها) أن الوقف عند قوله (من كل أمر سلام) فيتصل السلام بما قبله ومعناه أن تقدير الخير والبركة والسلامة يدوم إلى طلوع الفجر ، وهذا الوجه ضعيف (وسابعها)

أنها من أولها إلى مطلع الفجر سالمة فى أن العبادة فى كل واحد من أجزائها خير من ألف شهر ليست كسائر الليالى فى أنه يستحب للفرض الثلث الأول وللعبادة النصف والدعاء السحر بل هى متساوية الأوقات والأجزاء (وثانيها) سلام هى ، أى جنة هى لأن من أسماء الجنة دار السلام أى الجنة المصوغة من السلامة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المطلع الطلوع يقال طلع الفجر طلوعاً ومطلعاً ، والمعنى أنه يدوم ذلك السلام إلى طلوع الفجر ، ومن قرأ بكسر اللام فهو اسم لوقت الطلوع وكذا مكان الطلوع مطلع قاله الزجاج ، أما أبو عبيدة والفراء وغيرهما فانهم اختاروا فتح اللام لأنه بمعنى المصدر ، وقالوا الكسر اسم نحو المشرق ولا معنى لاسم موضع الطلوع ههنا بل إن حمل على ماذكره الزجاج من اسم وقت الطلوع صح ، قال أبو على ويمكن حمله على المصدر أيضاً ، لأن من المصادر التى ينبغى أن تكون على المفعل ما قد كسر كقولهم علاه المكبر والمعجز ، وقوله (ويسألونك عن المحيض) فكذلك كسر المطلع جاء شاذاً عما عليه بابه . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(سورة البينة)

(وهى ثمانية آيات مدنية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ «١» رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً «٢» فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ «٣» وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ «٤»

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة ، وماتفرق الذين أوتوا الكتاب إلامن بعد ماجاءتهم البينة ﴾

إعلم أن فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدى فى كتاب البسيط : هذه الآية من أصعب مافى القرآن نظما وتفسيراً , وقد تخبط فيها الكبار من العلماء ، ثم إنه رحمه الله تعالى لم يلخص كيفية الإشكال فيها وأنا أقول : وجه الإشكال أن تقدير الآية (لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة) التى هى الرسول . ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا لكنه معلوم ، إذ المراد هو الكفر الذى كانوا عليه ، فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا منفكين . عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التى هى الرسول ، ثم إن كلمة حتى لانتهاء الغاية فهذه الآية تقتضى أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول ، ثم قال بعد ذلك (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) وهذا يقتضى أن كفرهم قد ازداد عند مجىء الرسول عليه السلام . فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة فى الظاهر ، هذا منتهى الإشكال فيما أظن (والجواب) عنه من وجوه (أولها) وأحسنها الوجه الذى لخصه صاحب الكشاف . وهو أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان ، كانوا يقولون قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم : لا تنفك عما نحن عليه من ديننا ، ولا نتركه حتى يبعث النبى الموعود الذى هو مكتوب فى التوراة والإنجيل . وهو محمد عليه السلام ، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ، ثم قال : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) يعنى

أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ، ثم مافرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجىء الرسول . ونظيره فى الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست أمتنع مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقنى الله الغنى ، فلما رزقه الله الغنى ازداد فسقاً فيقول واعظه لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك فى الفسق إلا بعد اليسار يذكره ماكان يقوله توبيخاً وإلزاماً ، وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد ، وهو أن قوله (لم يكن الذين كفروا منفكين) عن كفرهم (حتى تأتيهم البينة) مذكورة حكاية عنهم ، وقوله (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) هو إخبار عن الواقع ، والمعنى أن الذى وقع كان على خلاف ما ادعوا (وثانيها) أن تقدير الآية ، لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة . وعلى هذا التقدير يزول الإشكال هكذا ذكره القاضى إلا أن تفسير لفظة حتى بهذا ليس من اللغة فى شىء (وثالثها) أنا لانحمل قوله (منفكين) على الكفر بل على كونهم منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل والمعنى لم يكن الذين كفروا منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل حتى تأتيهم البينة قال ابن عرفة أى حتى أتتهم ، فاللفظ لفظ المضارع ومعناه الماضى ، وهو كقوله تعالى (ماتتلو الشياطين) أى ماتلت ، والمعنى أنهم ماكانوا منفكين عن ذكر مناقبه ، ثم لما جاءهم محمد تفرقوا فيه ، وقال كل واحد فيه قولا آخر ردياً ونظيره قوله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) والقول المختار فى هذه الآية هو الأول ، وفى الآية وجه رابع وهو أنه تعالى حكم على الكفار أنهم ماكانوا منفكين عن كفرهم إلى وقت مجىء الرسول ، وكلمة حتى تقتضى أن يكون الحال بعد ذلك ، بخلاف ماكان قبل ذلك ، والأمر هكذا كان لأن ذلك المجموع مابقوا على الكفر بل تفرقوا فمنهم من صار مؤمناً . ومنهم من صار كافراً ، ولما لم يبق حال أولئك الجمع بعد مجىء الرسول كما كان قبل مجيئه ، كفى ذلك فى العمل بمدلول لفظ حتى ، وفيها (وجه خامس) وهو أن الكفار كانوا قبل مبعث الرسول منفكين عن التردد فى كفرهم بل كانوا جازمين به معتقدين حقيقته ، ثم زال ذلك الجزم بعد مبعث الرسول ، بل بقوا شاكين متحيرين فى ذلك الدين وفى سائر الأديان ، ونظيره قوله (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) والمعنى أن الدين الذى كانوا عليه صار كأنه اختلط بلحمهم ودمهم فاليهودى كان جازماً فى يهوديته وكذا النصرانى وعابد الوثن ، فلما بعث محمد عليه الصلاة والسلام : اضطربت الخواطر والأفكار وتشكك كل أحد فى دينه ومذهبه ومقالته ، وقوله تعالى (منفكين) مشعر بهذا لأن انفكاك الشىء عن الشىء هو انفصاله عنه . فمعناه أن قلوبهم ماخلت عن تلك العقائد ومانفصلت عن الجزم بصحتها ، ثم إن بعد المبعث لم يبق الأمر على تلك الحالة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكفار كانوا جنسين (أحدهما) أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى وكانوا كفاراً بإحداثهم فى دينهم ما كفروا به كقولهم (عزير ابن الله) و(المسيح ابن الله) وتحريفهم

كتاب الله ودينه (والثانى) المشركون الذين كانوا لا ينسبون إلى كتاب ، فذكر الله تعالى الجنسين بقوله (الذين كفروا) على الإجمال ثم أردف ذلك الإجمال بالتفصيل ، وهو قوله (من أهل الكتاب والمشركين) وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ تقدير الآية : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين فهذا يقتضى أن أهل الكتاب منهم كافر ومنهم ليس بكافر . وهذا حق ، وأن المشركين منهم كافر ومنهم ليس بكافر ، ومعلوم أن هذا ليس بحق (والجواب) من وجوه (أحدها) كلمة من ههنا ليست للتبعيض بل للتبيين كقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) (وثانيها) أن الذين كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، بعضهم من أهل الكتاب وبعضهم من المشركين ، فإدخال كلمة من لهذا السبب (وثالثها) أن يكون قوله (والمشركين) أيضاً وصفاً لأهل الكتاب ، وذلك لأن النصارى مثلثة واليهود عامتهم مشبهة ، وهذا كله شرك ، وقد يقول القائل جاءنى العقلاء والظرفاء يريد بذلك قوماً بأعيانهم يصفهم بالأمرين . وقال تعالى (الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود) وهذا وصف لطائفة واحدة ، وفى القرآن من هذا الباب كثير ، وهو أن ينعت قوم بنعوت شتى ، يعطف بعضها على بعض بواو العطف ويكون الكل وصفاً لموصوف واحد .

﴿ السؤال الثانى ﴾ المجوس هل يدخلون فى أهل الكتاب ؟ (قلنا) ذكر بعض العلماء أنهم داخلون فى أهل الكتاب لقوله عليه السلام « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » وأنكره الآخرون قال لأنه تعالى إنما ذكر من الكفار من كان فى بلاد العرب ، وهم اليهود والنصارى . قال تعالى حكاية عنهم (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) والطائفتان هم اليهود والنصارى .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما الفائدة فى تقديم أهل الكتاب فى الكفر على المشركين ؟ حيث قال (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ؟ (الجواب) أن الواو لا تفيد الترتيب ، ومع هذا ففيه فوائد (أحدها) أن السورة مدنية ، فكأن أهل الكتاب هم المقصودون بالذكر (وثانيها) أنهم كانوا علماء بالكتب فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد أتم ، فكان إصرارهم على الكفر أقبح (وثالثها) أنهم لكونهم علماء يقتدى غيرهم بهم فكان كفرهم أصلا لكفر غيرهم ، فلهذا قدموا فى الذكر (ورابعها) أنهم لكونهم علماء أشرف من غيرهم فقدموا فى الذكر .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم قال من أهل الكتاب ، ولم يقل من اليهود والنصارى ؟ (الجواب) لأن قوله (من أهل الكتاب) يدل على كونهم علماء ، وذلك يقتضى إما مزيد تعظيم ، فلاجرم ذكروا بهذا اللقب دون اليهود والنصارى ، أو لأن كونه عالماً يقتضى مزيد قبح فى كفره ، فذكروا بهذا الوصف تنبيهاً على تلك الزيادة من العقاب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية فيها أحكام تتعلق بالشرع (أحدها) أنه تعالى فسر قوله (الذين كفروا) بأهل الكتاب وبالمشركين ، فهذا يقتضى كون الكل واحداً فى الكفر ، فمن ذلك قال العلماء : الكفر كله ملة واحدة . فالمشرك يرث اليهودى وبالعكس (والثانى) أن العطف أوجب المغايرة ، فلذلك نقول الذمى ليس بمشرك ، وقال عليه السلام «غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم» فأثبت التفرقة بين الكتابى والمشرك (الثالث) نبه بذكر أهل الكتاب أنه لا يجوز الاغترار بأهل العلم إذ قد حدث فى أهل القرآن مثل ماحدث فى الأمم الماضية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال القفال الانفكاك هو انفراج الشىء عن الشىء وأصله من الفك وهو الفتح والزوال ، ومنه فككت الكتاب إذا أزلت ختمه ففتحته ، ومنه فكاك الرهن وهو زوال الانغلاق الذى كان عليه ألا ترى أن ضد قوله انفك الرهن ، ومنه فكاك الأسير وفكه ، فثبت أن انفكاك الشىء عن الشىء هو أن يزيله بعد التحامه به ، كالعظم إذا انفك من مفصله ، والمعنى أنهم متشبثون بدينهم تشبثاً قوياً لايزيلونه إلا عند مجىء البينة ، وأما البينة فهى الحجة الظاهرة التى بها يتميز الحق من الباطل فهى من البيان أو البينونة لأنها تبين الحق من الباطل ، وفى المراد من البينة فى هذه الآية أقوال :

﴿ الأول ﴾ أنها هى الرسول ، ثم ذكروا فى أنه لم سمى الرسول بالبينة وجوهاً (الأول) أن ذاته كانت بينة على نبوته ، وذلك لأنه عليه السلام كان فى نهاية الجد فى تقرير النبوة والرسالة ، ومن كان كذاباً متصنعاً فإنه لايتأتى منه ذلك الجد المتناهى ، فلم يبق فيه إلا أن يكون صادقاً أو معتوهاً (والثانى) معلوم البطلان لأنه كان فى غاية كمال العقل ، فلم يبق إلا أنه كان صادقاً (الثانى) أن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغاً إلى حد كمال الإعجاز ، والجاحظ قرر هذا المعنى ، والغزالى رحمه الله نصره فى كتاب المنقذ ، فاذاً لهذين الوجهين سمى هو فى نفسه بأنه بينة (الثالث) أن معجزاته عليه الصلاة والسلام كانت فى غاية الظهور وكانت أيضاً فى غاية الكثرة فلاجتماع هذين الأمرين جعل كأنه عليه السلام فى نفسه بينة وحجة ، ولذلك سماه الله تعالى (سراجا منيراً) .
واحتج القائلون بأن المراد من البينة هو الرسول بقوله تعالى بعد هذه الآية (رسول من الله) فهو رفع على البدل من البينة ، وقرأ عبد الله (رسولا) حال من البينة قالوا والألف واللام فى قوله (البينة) للتعريف أى هو الذى سبق ذكره فى التوراة والانجيل على لسان موسى وعيسى ، أو يقال إنها للتفخيم أى هو (البينة) التى لا مزيد عليها أو البينة كل البينة لأن التعريف قد يكون للتفخيم وكذا التنكير وقد جمعهما الله ههنا فى حق الرسول عليه السلام فبدأ بالتعريف وهو لفظ البينة ثم ثنى بالتنكير فقال (رسول من الله) أى هو رسول ، وأى رسول ، ونظيره ماذكره الله تعالى فى الثناء على نفسه فقال (ذو العرش المجيد) ثم قال (فعال) فنكر بعد التعريف .

﴿ القول الثانى ﴾ أن المراد من (البينة) مطلق الرسل وهو قول أبى مسلم قال المراد من قوله

(حتى تأتيهم البينة) أى حتى تأتيهم رسل من ملائكة الله تتلوا عليهم صحفاً مطهرة وهو كقوله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء) وكقوله (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة) .

﴿ القول الثالث ﴾ وهو قول قتادة وابن زيد (البينة) هى القرآن ونظيره قوله (أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) ثم قوله بعد ذلك (رسول من الله) لابد فيه من مضاف محذوف والتقدير : وتلك البينة وحى (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) .

أما قوله تعالى (يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة) فاعلم أن الصحف جمع صحيفة وهى ظرف للمكتوب ، وفى (المطهرة) وجوه : (أحدها) (مطهرة) عن الباطل وهى كقوله (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وقوله (مرفوعة مطهرة) ، (وثانيها) مطهرة عن الذكر القبيح فان القرآن يذكر بأحسن الذكر ويثنى عليه أحسن الثناء (وثالثها) أن يقال مطهرة أى ينبغى أن لا يمسها إلا المطهرون ، كقوله تعالى (فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون) .

واعلم أن المطهرة وإن جرت نعتاً للصحف فى الظاهر فهى نعت لما فى الصحف وهو القرآن وقوله (كتب) فيه قولان (أحدهما) المراد من الكتب الآيات المكتوبة فى الصحف (والثانى) قال صاحب النظم الكتب قد يكون بمعنى الحكم (كتب الله لأغلبن) ومنه حديث العسيف « لأقضين بينكما بكتاب الله » أى بحكم الله فيحتمل أن يكون المراد من قوله (كتب قيمة) أى أحكام قيمة أما القيمة ففيها قولان (الأول) قال الزجاج مستقيمة لاعوج فيها تبين الحق من الباطل من قام يقوم كالسيد والميت ، وهو كقولهم قام الدليل على كذا إذا ظهر واستقام (الثانى) أن تكون القيمة بمعنى القائمة أى هى قائمة مستقلة بالحجة والدلالة ، من قولهم قام فلان بالأمر يقوم به إذا أجراه على وجهه ، ومنه يقال للقائم بأمر القوم القيم ، فان قيل كيف نسب تلاوة الصحف المطهرة إلى الرسول مع أنه كان أمياً ؟ قلنا إذا تلا مثل المسطور فى تلك الصحف كان تالياً مافيها وقد جاء فى كتاب منسوب إلى جعفر الصادق أنه عليه السلام كان يقرأ من الكتاب ، وإن كان لايكتب ، ولعل هذا كان من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

أما قوله تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى هذه الآية سؤال ، وهو أنه تعالى ذكر فى أول السورة ، أهل الكتاب والمشركين ، وههنا ذكر أهل الكتاب فقط ، فما السبب فيه ؟ (وجوابه) من وجوه (أحدها) أن المشركين لم يقروا على دينهم فمن آمن فهو المراد ومن لم يؤمن قتل ، بخلاف أهل الكتاب الذين يقرون على كفرهم ببذل الجزية (وثانيها) أن أهل الكتاب كانوا عالمين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب أنهم وجدوها فى كتبهم ، فاذا وصفوا بالتفرق مع العلم كان من لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ «٥»

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الجبائى هذه الآية تبطل قول القدرية الذين قالوا إن الناس تفرقوا فى الشقاوة والسعادة فى أصلاب الآباء قبل أن تأتيهم البينة (والجواب) أن هذا ركيك لأن المراد منه أن علم الله بذلك وإرادته له حاصل فى الأزل ، أما ظهوره من المكلف فانما وقع بعد الحالة المخصوصة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالوا هذه الآية دالة على أن الكفر والتفرق فعلهم لا أنه مقدر عليهم لأنه قال (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) ، ثم قال (أوتوا الكتاب) أى أن الله وملائكته آتاهم ذلك فالخير والتوفيق مضاف إلى الله ، والشر والتفرق والكفر مضاف إليهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المقصود من هذه الآية تسلية الرسول ﷺ أى لايغمنك تفرقهم فليس ذلك لقصور فى الحجة بل لعنادهم ، فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا فى السبت وعبادة العجل (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) فهى عادة قديمة لهم .

أما قوله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (وما أمروا) وجهان : (أحدهما) أن يكون المراد (وما أمروا) فى التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفى ، فيكون المراد أنهم كانوا مأمورين بذلك إلا أنه تعالى لما أتبعه بقوله (وذلك دين القيمة) علمنا أن ذلك الحكم كما أنه كان مشروعا فى حقهم فهو مشروع فى حقنا (وثانيها) أن يكون المراد : وما أمر أهل الكتاب على لسان محمد ﷺ إلا بهذه الأشياء ، وهذا أولى ، لثلاثة أوجه : (أحدها) أن الآية على هذا التقدير تفيد شرعاً جديداً وحمل كلام الله على ما يكون أكثر فائدة أولى (وثانيها) وهو أن ذكر محمد عليه السلام قد مر ههنا وهو قوله (حتى تأتيهم البينة) وذكر سائر الأنبياء عليهم السلام لم يتقدم (وثالثها) أنه تعالى ختم الآية بقوله (وذلك دين القيمة) فحكم بكون ماهو متعلق هذه الآية دينا قيما فوجب أن يكون شرعا فى حقنا سواء قلنا بأنه شرع من قبلنا أو شرع جديد يكون هذا بيانا لشرع محمد عليه الصلاة والسلام وهذا قول مقاتل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (إلا ليعبدوا الله) دقيقة وهى أن هذه اللام لام الغرض ، فلا يمكن حمله على ظاهره لأن كل من فعل فعلا لغرض فهو ناقص لذاته مستكمل بذلك الغرض ، فلو فعل الله فعلا لكان ناقصاً لذاته مستكملا بالغير وهو محال ، لأن ذلك الغرض إن كان قديما

لزم من قدمه قدم الفعل ، وإن كان محدثاً افتقر إلى غرض آخر فلزم التسلسل وهو محال ولأنه إن عجز عن تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة فهو عاجز ، وإن كان قادراً عليه كان توسيط تلك الواسطة عبثاً، فثبت أنه لا يمكن حمله على ظاهره فلابد فيه من التأويل . ثم قال الفراء العرب تجعل اللام فى موضع أن فى الأمر والإرادة كثيراً ، من ذلك قوله تعالى (يريد الله ليبين لكم ، يريدون ليطفئوا) وقال فى الأمر (وأمرنا لنسلم) وهى فى قراءة عبد الله (وما أمروا إلا أن يعبدوا الله) فثبت أن المراد : وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين . والإخلاص عبارة عن النية الخالصة ، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة ، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منوياً ، ثم قالت الشافعية الوضوء مأمور به فى قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) ودلت هذه الآية على أن كل مأمور يجب أن يكون منوياً ، فيلزم من مجموع الآيتين وجوب كون الوضوء منوياً ، وأما المعتزلة فانهم يوجبون تعليل أفعال الله وأحكامه بالأغراض ، لاجرم أجروا الآية على ظاهرها فقالوا معنى الآية : وما أمروا بشىء إلا لأجل أن يعبدوا الله ،والاستدلال على هذا القول أيضاً قوى، لأن التقدير وما أمروا بشىء إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين فى ذلك الشىء ، وهذا أيضاً يقتضى اعتبار النية فى جميع المأمورات . فان قيل النظر فى معرفة الله مأمور به ويستحيل اعتبار النية فيه . لأن النية لا يمكن اعتبارها إلا بعد المعرفة ، فما كان قبل المعرفة لا يمكن اعتبار النية فيه . قلنا هب أنه خص عموم الآية فى هذه الصورة بحكم الدليل العقلى الذى ذكرتم فيبقى فى الباقى حجة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (أمروا) مذكور بلفظ ما لم يسم فاعله وهو (كتب عليكم الصيام) (كتب عليكم القصاص) قالوا فيه وجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول العبادة شاقة ولا أريد مشقتك إرادة أصلية بل إرادتى لعبادتك كإرادة الوالدة لحجامتك ، ولهذا لما آل الأمر إلى الرحمة قال (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ،(كتب فى قلوبهم الإيمان) وذكر فى الواقعات إذا أراد الأب من ابنه عملا يقول له أولا : ينبغى أن تفعل هذا ولا يأمره صريحاً ، لأنه ربما يرد عليه فتعظم جنايته ، فههنا أيضاً لم يصرح بالأمر لتخف جناية الراد (وثانيها) أنا على القول بالحسن والقبح العقليين ، نقول كأنه تعالى يقول : لست أنا الآمر للعبادة فقط ، بل عقلك أيضاً يأمرك لأن النهاية فى التعظيم لمن أوصل إليك [أن] نهاية الإنعام واجبة فى العقول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اللام فى قوله : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا : العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة ، أو إلى البعد عن عقاب النار ، بل لأجل أنك عبد وهو رب ، فلو لم يحصل فى الدين ثواب ولا عقاب البتة ، ثم أمرك بالعبادة . وجبت لمحض العبودية ، وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب ، فالمعبود فى الحقيقة هو الثواب والعقاب ، والحق واسطة ، ونعم ماقيل : من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى(١).

(١) قوله بالثانى لا معنى له ، ولعلها مصحفة عن الفانى .

ومن آثر العرفان لا للعرفان ، بل للمعروف ، فقد خاض لجة الوصول .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ العبادة هى التذلل ، ومنه طريق معبد ، أى مذلل ، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ ، لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام ، وما أطاعوهم ولكن فى الشرع صارت اسماً لكل طاعة لله ، أديت له على وجه التذلل والنهاية فى التعظيم ، واعلم أن العبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من يكون واحداً فى ذاته وصفاته الذاتية ، والفعلية ، فإن كان له مثل لم يجز أن يصرف إليه النهاية فى التعظيم ، ثم نقول : لابد فى كون الفعل عبادة من شيئين (أحدهما) غاية التعظيم ، ولذلك قلنا : إن صلاة الصبى ، ليست بعبادة ، لأنه لا يعرف عظمة الله ، فلا يكون فعله فى غاية التعظيم (والثانى) أن يكون مأموراً به ، ففعل اليهودى ليس بعبادة ، وإن تضمن نهاية التعظيم ، لأنه غير مأمور به . والنكتة الوعظية فيه ، أن فعل الصبى ليس بعبادة لفقد التعظيم وفعل اليهودى ليس بعبادة لفقد الأمر ، فكيف يكون ركوعك الناقص عبادة ولا أمر ولا تعظيم ؟ .

﴿ المسألة السادسة ﴾ الإخلاص هو أن يأتى بالفعل خالصاً لداعية واحدة ، ولا يكون لغيرها من الدواعى تأثير فى الدعاء إلى ذلك الفعل ، والنكت الوعظية فيه من وجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول عبدى لا تسع فى إكثار الطاعة . بل فى إخلاصها لأنى ما بذلت كل مقدورى لك حتى أطلب منك كل مقدورك ، بل بذلت لك البعض . فأطلب منك البعض نصفاً من العشرين ، وشاة من الأربعين ، لكن القدر الذى فعلته لم أرد بفعله سواك ، فلا ترد بطاعتك سواى ، فلا تستثن من طاعتك لنفسك فضلا من أن تستثنيه لغيرك ، فمن ذلك المباح الذى يوجد منك فى الصلاة كالحكة والتنحنح فهو حظ استثنيته لنفسك فانتفى الإخلاص ، وأما الإلتفات المكروه فذا حظ الشيطان (وثانيها) كأنه تعالى قال : ياعقل أنت حكيم لا تميل إلى الجهل والسفه وأنا حكيم لا أفعل ذلك البتة ، فإذاً لا تريد إلا ما أريد ولا أريد إلا ماتريد . ثم إنه سبحانه ملك العالمين والعقل ملك لهذا البدن ، فكأنه تعالى بفضله قال الملك لايخدم الملك لكن [لكى] نصطلح أجعل جميع ماأفعله لأجلك (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً) فاجعل أنت أيضاً جميع ماتفعله لأجلى (وماأمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) .

واعلم أن قوله (مخلصين) نصب على الحال فهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه ، والمخلص هو الذى يأتى بالحسن لحسنه . والواجب لوجوبه ، فيأتى بالفعل لوجهه مخلصاً لربه ، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر ، بل قالوا لايجعل طلب الجنة مقصوداً ولا النجاة عن النار مطلوباً وإن كان لابد من ذلك ، وفى التوراة : ما أريد به وجهى فقليله كثير وما أريد به غير وجهى فكثيره قليل . وقالوا من الإخلاص أن لا يزيد فى العبادات عبادة أخرى لأجل الغير ، مثل الواجب من الأضحية شاة ، فإذا ذبحت اثنتين واحدة لله وواحدة للأمير لم يجز لأنه شرك ، وإن زدت فى الخشوع ، لأن الناس يرونه لم يجز ، فهذا إذا خلطت بالعبادة عبادة

أخرى ، فكيف ولو خلطت بها محظوراً مثل أن تتقدم على إمامك ، بل لا يجوز دفع الزكاة إلى الوالدين والمولودين ولا إلى العبيد ولا الإماء لأنه لم يخلص ، فإذا طلبت بذلك سرور والدك أو ولدك يزول الإخلاص ، فكيف إذا طلبت مسرة شهوتك كيف يبقى الإخلاص ؟ وقد اختلفت ألفاظ السلف فى معنى قوله (مخلصين) قال بعضهم : مقرين له بالعبادة ، وقال آخرون : قاصدين بقلوبهم رضا الله فى العبادة ، وقال الزجاج أى يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره ، ويدل على هذا قوله (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً) .

أما قوله تعالى (حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ففيه أقوال :

﴿ الأول ﴾ قال مجاهد متبعين دين إبراهيم عليه السلام ، ولذلك قال (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وهذا التفسير فيه لطيفة كأنه سبحانه لما علم أن التقليد مستول على الطباع لم يستجز منعه عن التقليد بالكلية ولم يستجز التعويل على التقليد أيضاً بالكلية ، فلا جرم ذكر قوماً أجمع الخلق بالكلية على تزكيتهم ، وهو إبراهيم ومن معه . فقال (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه) فكأنه تعالى قال : إن كنت تقلد أحداً فى دينك ، فكن مقلداً إبراهيم ، حيث تبرأ من الأصنام وهذا غير عجيب فإنه قد تبرأ من نفسه حين سلمها إلى النيران ، ومن ماله حين بذله للضيفان ، ومن ولده حين بذله للقربان . بل روى أنه سمع سبوح قدوس فاستطابه ، ولم ير شخصاً فاستعاده ، فقال أما بغير أجر فلا ، فبذل كل ماملكه فظهر له جبريل عليه السلام ، وقال حق لك حيث سماك خليلا فخذ مالك ، فإن القائل ، كنت أنا ،بل انقطع إلى الله حتى عن جبريل حين قال له أما إليك فلا ، فالحق سبحانه كأنه يقول : إن كنت عابداً فاعبد كعبادته ، فإذا لم تترك الحلال وأبواب السلاطين ، أما تترك الحرام وموافقة الشياطين ، فإن لم تقدر على متابعة إبراهيم ، فاجتهد فى متابعة ولده الصبي ، كيف انقاد لحكم ربه مع صغره ، فمد عنقه لحكم الرؤيا ، وإن كنت دون الرجل فاتبع الموسوم بنقصان العقل ، وهو أم الذبيح ، كيف تجرعت تلك الغصة ، ثم إن المرأة الحرة نصف الرجل فإن الاثنتين يقومان مقام الرجل الواحد فى الشهادة والإرث ، والرقيقة نصف الحرة بدليل أن للحرة ليلتين من القسم فهاجر كانت ربع الرجل ، ثم انظر أنها كيف أطاعت ربها فتحملت المحنة فى ولدها ثم صبرت حين تركها الخليل وحيدة فريدة فى جبال مكة بلا ماء ولا زاد ، وانصرف ، لا يكلمها ولا يعطف عليها ، قالت آلله أمرك بهذا ؟ فأومأ برأسه نعم ، فرضيت بذلك وصبرت على تلك المشاق .

﴿ والقول الثانى ﴾ المراد من قوله (حنفاء) أى مستقيمين والحنف هو الاستقامة ، وإنما سمى مائل القدم أحنف على سبيل التفاؤل ، كقولنا للأعمى بصير وللمهلكة مفازة ، ونظيره قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) (اهدنا الصراط المستقيم) .

﴿ القول الثالث ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما حجاجاً ، وذلك لأنه ذكر العباد أولا ثم قال (حنفاء) وإنما قدم الحج على الصلاة لأن فى الحج صلاة وإنفاق مال (الرابع) قال أبو قلابة

الحنيف الذى آمن بجميع الرسل ولم يستثن أحداً منهم ، فمن لم يؤمن بأفضل الأنبياء كيف يكون حنيفاً (الخامس) حنفاء أى جامعين لكل الدين إذ الحنيفية كل الدين ، قال عليه السلام « بعثت بالحنيفية السهلة السمحة » (السادس) قال قتادة هى الختان وتحريم نكاح المحارم أى مختونين محرمين لنكاح الأم والمحارم ، فقوله (حنفاء) إشارة إلى النفى ، ثم أردفه بالإثبات ، وهو قوله (ويقيموا الصلاة) (السابع) قال أبو مسلم أصله من الحنف فى الرجل ، وهو إدبار إبهامها عن أخواتها حتى يقبل على إبهام الأخرى ، فيكون الحنيف هو الذى يعدل عن الأديان كلها إلى الإسلام (الثامن) قال الربيع بن أنيس الحنيف الذى يستقبل القبلة بصلاته ، وإنما قال ذلك لأنه عند التكبير يقول : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وأما الكلام فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقد مر مراراً كثيرة ، ثم قال (وذلك دين القيمة) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المبرد والزجاج : ذلك دين الملة القيمة ، فالقيمة نعت لموصوف محذوف ، والمراد من القيمة إما المستقيمة أو القائمة ، وقد ذكرنا هذين القولين فى قوله (كتب قيمة) وقال الفراء : هذا من إضافة النعت إلى المنعوت . كقوله (إن هذا لهو حق اليقين) والهاء للمبالغة كما فى قوله (كتب قيمة) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى هذه الآية لطائف (إحداها) أن الكمال فى كل شىء إنما يحصل إذا حصل الأصل والفرع معاً ، فقوم أطنبوا فى الأعمال من غير إحكام الأصول ، وهم اليهود والنصارى والمجوس ، فانهم ربما أتعبوا أنفسهم فى الطاعات ، ولكنهم ماحصلوا الدين الحق ، وقوم حصلوا الأصول وأهملوا الفروع ، وهم المرجئة الذين قالوا لايضر الذنب مع الإيمان ، والله تعالى خطأ الفريقين فى هذه الآية ، وبين أنه لابد من العلم والإخلاص فى قوله (مخلصين) ومن العمل فى قوله (ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ثم قال وذلك المجموع كله هو (دين القيمة) أى البينة المستقيمة المعتدلة ، فكما أن مجموع الأعضاء بدن واحد كذا هذا المجموع دين واحد فقلب دينك الاعتقاد ووجهه الصلاة ولسانه الواصف لحقيقته الزكاة لأن باللسان يظهر قدر فضلك وبالصدقة يظهر قدر دينك ، ثم إن القيم من يقوم بمصالح من يعجز عن إقامة مصالح نفسه فكأنه سبحانه يقول القائم بتحصيل مصالحك عاجلا وآجلا هو هذا المجموع ، ونظيره قوله تعالى (ديناً قيما) وقوله فى القرآن (قيما لينذر بأساً شديداً) لأن القرآن هو القيم بالإرشاد إلى الحق ، ويؤيده قوله عليه السلام « من كان فى عمل الله كان الله فى عمله » وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام « يادنيا من خدمك فاستخدميه ، ومن خدمنى فاخدميه » ، (وثانيها) أن المحسنين فى أفعالهم هم مثل الحق سبحانه وذلك بالإحسان إلى عبيده والملائكة ، وذلك بأنهم اشتغلوا بالتسبيح ، لخالقهم فالإحسان من الله لامن الملائكة ، والتعظيم والعبودية من الملائكة لا من الله ، ثم إن الإنسان إذا حضر عرصة القيامة فيقول الله مباهياً بهم : ملائكتى هؤلاء أمثالكم سبحوا وهللوا ، بل فى بعض الأفعال أمثالى أحسنوا

وتصدقوا ، ثم إنى أكرمكم ياملائكتى بمجرد ما أتيتم به من العبودية وأنتم تعظمونى بمجرد مافعلت من الإحسان فهؤلاء جمعوا بين الأمرين : أقاموا الصلاة أتوا بالعبودية وآتوا الزكاة أتوا بالإحسان ، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين وهم صبروا على الأمرين ، فتتعجب الملائكة منهم وينصبون إليهم النظارة ، فلهذا قال (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم) أفلا يكون هذا الدين قيما (وثالثها) أن الدين كالنفس فحياة الدين بالمعرفة ثم النفس العالمة بلاقدرة كالزمن العاجز ، والقادرة بلا علم مجنونة فاذا اجتمع العلم والقدرة كانت النفس كاملة فكذا الصلاة للدين كالعلم والزكاة كالقدرة ، فاذا اجتمعتا سمى الدين قيمة (ورابعها) وهو فائدة الترتيب أن الحكيم تعالى أمر رسوله أن يدعوهم إلى أسهل شيء ، وهو القول والاعتقاد فقال (مخلصين) ثم لما أجابوه زاد ، فسألهم الصلاة التى بعد أدائها تبقى النفس سالمة كما كانت ، ثم لما أجابوه وأراد منهم الصدقة وعلم أنها تشق عليهم قال « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول » ثم لما ذكر الكل قال (وذلك دين القيمة) ،

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج من قال الإيمان عبارة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل بهذه الآية ، فقال مجموع القول والفعل والعمل هو الدين والدين هو الإسلام والإسلام هو الإيمان فاذاً مجموع القول والفعل والعمل هو الإيمان ،لأنه تعالى ذكر فى هذه الآية مجموع هذه الثلاثة . ثم قال (وذلك دين القيمة) أى وذلك المذكور هو دين القيمة وإنما قلنا إن الدين هو الإسلام لقوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) وإنما قلنا إن الإسلام هو الإيمان لوجهين (الأول) أن الإيمان لو كان غير الإسلام لما كان مقبولا عند الله تعالى لقوله تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) لكن الإيمان بالإجماع مقبول عند الله ، فهو إذاً عين الإسلام (والثانى) قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) فاستثناء المسلم من المؤمن ، يدل على أن الإسلام يصدق عليه ، وإذا ثبتت هذه المقدمات ، ظهر أن مجموع هذه الثلاثة أعنى القول والفعل والعمل هو الإيمان ، وحينئذ يبطل قول من قال ، الإيمان اسم لمجرد المعرفة ، أو لمجرد الإقرار أو لهما معاً ﴿ والجواب) لم لا يجوز أن تكون الإشارة بقوله (وذلك) إلى الإخلاص فقط ؟ والدليل عليه أنا على هذا التقدير لانحتاج إلى الإضمار ، وأنتم تحتاجون إلى الإضمار ، فتقولون : المراد وذلك المذكور ، ولا شك أن عدم الإضمار أولى ، سلمنا أن قوله (وذلك) إشارة إلى مجموع ما تقدم لكنه يدل على أن ذلك المجموع هو الدين القيم ، فلم قلتم إن ذلك المجموع هو الدين ، وذلك لأن الدين غير ، والدين القيم غير ، فالدين القيم هو الدين الكامل المستقل بنفسه ، وذلك إنما يكون إذا كان الدين حاصلا ، وكانت آثاره ونتائجه معه حاصلة أيضاً ، وهى الصلاة والزكاة ، وإذا لم يوجد هذا المجموع ، لم يكن الدين القيم حاصلا ، لكن لم قلتم إن أصل الدين لا يكون حاصلا والنزاع ما وقع إلا فيه ؟ والله أعلم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ «٦»

قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الكفار أولا فى قوله (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ثم ذكر ثانياً حال المؤمنين فى قوله (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) أعاد فى آخر هذه السورة ذكر كلا الفريقين ، فبدأ أيضاً بحال الكفار ، فقال (إن الذين كفروا) واعلم أنه تعالى ذكر من أحوالهم أمرين (أحدهما) الخلود فى نار جهنم (والثانى) أنهم شر الخلق . وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قدم أهل الكتاب على المشركين فى الذكر ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أنه عليه الصلاة والسلام ،كان يقدم حق الله سبحانه على حق نفسه ، ألا ترى أن القوم لما كسروا رباعيته قال « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ولما فاتته صلاة العصر يوم الخندق قال « اللهم املأ بطونهم وقبورهم ناراً » فكأنه عليه السلام قال كانت الضربة ثم على وجه الصورة ، وفى يوم الخندق على وجه السيرة التى هى الصلاة . ثم إنه سبحانه قضاه ذلك فقال كما قدمت حقى على حقك فأنا أيضاً أقدم حقك على حق نفسى ، فمن ترك الصلاة طول عمره لا يكفر ومن طعن فى شعرة من شعراتك يكفر . إذا عرفت ذلك فنقول : أهل الكتاب ما كانوا يطعنون فى الله بل فى الرسول ، وأما المشركون فإنهم كانوا يطعنون فى الله . فلما أراد الله تعالى فى هذه الآية أن يذكر سوء حالهم بدأ أولا فى الحكاية بذكر من طعن فى محمد عليه الصلاة والسلام وهم أهل الكتاب ، ثم ثانياً بذكر من طعن فيه تعالى وهم المشركون (وثانيها) أن جناية أهل الكتاب فى حق الرسول عليه السلام كانت أعظم ، لأن المشركين رأوه صغيراً ونشأ فيما (١) بينهم ، ثم سفه أحلامهم وأبطل أديانهم ، وهذا أمر شاق ، أما أهل الكتاب فقد كانوا يستفتحون برسالته ويقرون بمبعثه فلما جاءهم أنكروه مع العلم به فكانت جنايتهم أشد .

﴿السؤال الثانى﴾ لم ذكر (كفروا) بلفظ الفعل (والمشركين) باسم الفاعل ؟ (والجواب) تنبيها على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل ، ومقرين بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان وإنكار الحشر والقيامة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أن المشركين كانوا ينكرون الصانع وينكرون النبوة وينكرون

(١) لعل الأولى أن يقال : ونشأ يتيما بينهم ، ولعل فيما صحفت عن يتيما .

القيامة ، أما أهل الكتاب فكانوا مقرين بكل هذه الأشياء إلا أنهم كانوا منكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان كفر أهل الكتاب أخف من كفر المشركين ، وإذا كان كذلك فكيف يجوز التسوية بين الفريقين فى العذاب ؟ (والجواب) يقال بئر جهنام إذا كان بعيد القعر ، فكأنه تعالى يقول تكبروا طلباً للرفعة فصاروا إلى أسفل السافلين ، ثم إن الفريقين وإن اشتركا فى ذلك لكنه لا ينافى اشتراكهم فى هذا القدر تفاوتهم فى مراتب العذاب . واعلم أن الوجه فى حسن هذا العذاب أن الإساءة على قسمين إساءة إلى من أساء إليك وإساءة إلى من أحسن إليك . وهذا القسم الثانى هو أقبح القسمين والإحسان أيضاً على قسمين إحسان إلى من أحسن إليك ، وإحسان إلى من أساء إليك ، وهذا أحسن القسمين ، فكان إحسان الله إلى هؤلاء الكفار أعظم أنواع الإحسان وإساءتهم وكفرهم أقبح أنواع الإساءة ، ومعلوم أن العقوبة إنما تكون بحسب الجناية ، فبالشتم تعزير وبالقذف حد وبالسرقة قطع ، وبالزنا رجم ، وبالقتل قصاص ، بل شتم المماثل يوجب التعزير ، والنظر الشزر إلى الرسول يوجب القتل . فلما كانت جناية هؤلاء الكفار أعظم الجنايات ، لاجرم استحقوا أعظم العقوبات . وهو نار جهنم ، فإنها نار فى موضع عميق مظلم هائل لامفر عنه البتة ، ثم كأنه قال قائل : هب أنه ليس هناك رجاء الفرار ، فهل هناك رجاء الإخراج ؟ فقال : لا بل يبقون خالدين فيها ، ثم كأنه قيل فهل هناك أحد يرق قلبه عليهم ؟ فقال لا بل يذمونهم ، ويلعنونهم لأنهم شر البرية .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما السبب فى أنه لم يقل ههنا خالدين فيها أبداً ، وقال فى صفة أهل الثواب (خالدين فيها أبداً) ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) التنبيه على أن رحمته أزيد من غضبه (وثانيها) أن العقوبات والحدود والكفارات تتداخل ، أما الثواب فأقسامه لا تتداخل (وثالثها) روى حكاية عن الله أنه قال : ياداود حببنى إلى خلقى ، قال وكيف أفعل ذلك ؟ قال اذكر لهم سعة رحمتى ، فكان هذا من هذا الباب .

﴿ السؤال الخامس ﴾ كيف القراءة فى لفظ البرية ؟ (الجواب) قرأ نافع البريئة بالهمز ، وقرأ الباقون بغير همز وهو من برأ الله الخلق ، والقياس فيها الهمز إلا أنه ترك همزه ، كالنبى والذرية والخابية ، والهمزة فيه كالرد إلى الأصل المتروك فى الاستعمال ، كما أن من همز النبى كان كذلك وترك الهمز فيه أجود ، وإن كان الهمز هو الأصل ، لأن ذلك صار كالشىء المرفوض المتروك . وهمز من همز البرية يدل على فساد قول من قال إنه من البرا الذى هو التراب .

﴿ السؤال السادس ﴾ ماالفائدة فى قوله هم شر البرية ؟ (الجواب) أنه يفيد النفى والإثبات أى هم دون غيرهم . واعلم أن شر البرية جملة يطول تفصيلها ، شر من السراق ، لأنهم سرقوا من كتاب الله . صفة محمد ﷺ ، وشر من قطاع الطريق ، لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق ، وشر من الجهال الأجلاف . لأن الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون أقبح .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ «٧»

واعلم أن هذا تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد .

﴿ السؤال السابع ﴾ هذه الآية هل هى مجراة على عمومها ؟ (الجواب) لا بل هى مخصوصة بصورتين (إحداهما) أن من تاب منهم وأسلم خرج عن الوعيد (والثانية) قال بعضهم : لا يجوز أن يدخل فى الآية من مضى من الكفار ، لأن فرعون كان شراً منهم ، فأما الآية الثانية وهى الآية الدالة على ثواب المؤمنين فعامة فيمن تقدم وتأخر ، لأنهم أفضل الأمم .

قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الوجه فى حسن تقديم الوعيد على الوعد وجوه (أحدها) أن الوعيد كالدواء ، والوعد كالغذاء ، ويجب تقديم الدواء حتى إذا صار البدن نقياً انتفع بالغذاء ، فإن البدن غير النقى كلما غذوته زدته شراً ، هكذا قاله بقراط فى كتاب الفصول (وثانيها) أن الجلد بعد الدبغ يصير صالحاً للمداس والخف ، أما قبله فلا ، ولذلك فإن الإنسان متى وقع فى محنة أو شدة رجع إلى الله ، فإذا نال الدنيا أعرض ، على ما قال (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) (وثالثها) أن فيه بشارة ، كأنه تعالى يقول : لما لم يكن بد من الأمرين ختمت بالوعد الذى هو بشارة منى فى أنى أختم أمرك بالخير ، ألست كنت نجساً فى مكان نجس ، ثم أخرجتك إلى الدنيا طاهراً ، أفلا أخرجك إلى الجنة طاهراً !

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج من قال إن الطاعات ليست داخلة فى مسمى الإيمان بأن الأعمال الصالحة معطوفة فى هذه الآية على الإيمان ، والمعطوف غير المعطوف عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (إن الذين آمنوا) ولم يقل إن المؤمنين إشارة إلى أنهم أقاموا سوق الإسلام حال كساده ، وبذلوا الأموال والمهج لأجله . ولهذا السبب استحقوا الفضيلة العظمى ، كما قال (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ولفظة (آمنوا) أى فعلوا الإيمان مرة .

واعلم أن الذين يعتبرون الموافاة يحتجون بهذه الآية ، وذلك لأنها تدل على أن من أتى بالإيمان مرة واحدة فله هذا الثواب ، والذى يموت على الكفر لا يكون له هذا الثواب ، فعلمنا أنه ما صدر الإيمان عنه فى الحقيقة قبل ذلك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وعملوا الصالحات) من مقابلة الجمع بالجمع ، فلا يكلف الواحد بجميع الصالحات ، بل لكل مكلف حظ ، فحظ الغنى الإعطاء ، وحظ الفقير الأخذ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج بعضهم بهذه الآية فى تفضيل البشر على الملك ، قالوا روى أبو هريرة أنه عليه السلام قال « أتعجبون من منزلة الملائكة من الله تعالى ! والذى نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من ذلك ، واقرأوا إن شئتم : إن الذين آمنوا وعملوا

جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ «٨»

الصالحات أولئك هم خير البرية » .

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لوجوه : (أحدها) ما روى عن يزيد النحوى أن البرية بنو آدم من البرا وهو التراب فلا يدخل الملك فيه البتة (وثانيها) أن قوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) غير مختص بالبشر بل يدخل فيه الملك (وثالثها) أن الملك خرج عن النص بسائر الدلائل ، قالوا وذلك لأن الفضيلة إما مكتسبة أو موهوبة ، فإن نظرت إلى الموهوبة فأصلهم من نور وأصلك من حمأ مسنون . ومسكنهم دار لم يترك فيها أبوك مع الزلة ومسكنكم أرض هى مسكن الشياطين ، وأيضاً فمصالحنا منتظمة بهم ورزقنا فى يد البعض وروحنا فى يد البعض ، ثم هم العلماء . ونحن المتعلمون ، ثم انظر إلى عظيم همتهم لا يميلون إلى محقرات الذنوب ، ومن ذلك فإن الله تعالى لم يحك عنهم سوى دعوى الإلهية حين قال (ومن يقل منهم إنى إله من دونه) أى لو أقدموا على ذنب فهمتهم بلغت غاية لا يليق بها إلا دعوى الربوبية ، وأنت أبداً عبد البطن والفرج ، وأما العبادة فهم أكثر عبادة من النبى لأنه تعالى مدح النبى باحياء ثلثى الليل وقال فيهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ومرة (لا يسأمون) وتمام القول فى هذه المسألة قد تقدم فى سورة البقرة .

قوله تعالى ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾.

اعلم أن التفسير ظاهر ونحن نذكر ما فيها من اللطائف فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن المكلف لما تأمل وجد نفسه مخلوقاً من المحن والآفات ، فصاغه من أنجس شىء فى أضيق مكان إلى أن خرج باكياً لا للفراق ولكن مشتكياً من وحشة الحبس ليرحم ، كالذى يطلق من الحبس يغلبه البكاء ليرحم ، ثم لم يرحم بل شدته القابلة ولم يكن مشدوداً فى الرحم ثم لم يمض قليل مدة حتى ألقوه فى المهد وشدوه بالقماط ، ثم لم يمض قليل حتى أسلموه إلى أستاذ يحبسه فى المكتب ويضربه على التعليم وهكذا إلى أن بلغ الحلم ، ثم بعد ذلك شد بمسامير العقل والتكليف ثم إن المكلف يصير كالمتحير ، يقول من الذى يفعل فى هذه الأفعال مع أنه ما صدرت عنى جناية ! فلم يزل يتفكر حتى ظفر بالفاعل ، فوجده عالماً لا يشبه العالمين ، وقادراً لا يشبه القادرين ، وعرف أن كل ذلك وإن كان صورته صورة المحنة ، لكن حقيقته محض الكرم والرحمة . فترك الشكاية وأقبل على الشكر ، ثم وقع فى قلب العبد أن يقابل إحسانه بالخدمة له والطاعة ، فجعل قلبه مسكناً لسلطان عرفانه ، فكأن الحق قال : عبدى أنزل معرفتى فى قلبك حتى

لا يخرجها منه شيء أو يسبقها هناك ، فيقول العبد : يارب أنزلت حب الثدى فى قلبى ثم أخرجته . وكذا حب الأب والأم ، وحب الدنيا وشهواتها وأخرجت الكل . أما حبك وعرفانك فلا أخرجهما من قلبى ، ثم إنه لما بقيت المعرفة والمحبة فى أرض القلب انفجر من هذا الينبوع أنهار وجداول ، فالجدول الذى وصل إلى العين حصل منه الاعتبار ، والذى وصل إلى الأذن حصل منه استماع مناجاة الموجودات وتسبيحاتهم ، وهكذا فى جميع الأعضاء والجوارح . فيقول الله عبدى جعلت قلبك كالجنة لى وأجريت فيه تلك الأنهار دائمة مخلدة . فأنت مع عجزك وقصورك فعلت هذا ، فأنا أولى بالجود والكرم والرحمة فجنة بجنة . فلهذا قال (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار) بل كأن الكريم الرحيم يقول عبدى أعطانى كل ما ملكه ، وأنا أعطيته بعض مافى ملكى ، وأنا أولى منه بالكرم والجود ، فلا جرم جعلت هذا البعض منه موهوباً دائماً مخلداً ، حتى يكون دوامه وخلوده جابراً لما فيه من النقصان الحاصل بسبب البعضية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجزاء اسم لما يقع به الكفاية ، ومنه اجتزت الماشية بالحشيش الرطب عن الماء ، فهذا يفيد معنيين (أحدهما) أنه يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص (والثانى) أنه تعالى يعطيه ما يقع به الكفاية ، فلا يبقى فى نفسه شيء إلا والمطلوب يكون حاصلا ، على ماقال (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (جزاؤهم) فأضاف الجزاء إليهم ، والإضافة المطلقة تدل على الملكية فكيف الجمع بينه وبين قوله (الذى أحلنا دار المقامة من فضله) (والجواب) أما أهل السنة فإنهم يقولون إنه لو قال الملك الكريم :من حرك أصبعه أعطيته ألف دينار ، فهذا شرط وجزاء بحسب اللغة وبحسب الوضع لا بحسب الاستحقاق الذاتى ، فقوله (جزاؤهم) يكفى فى صدقه هذا المعنى وأما المعتزلة فانهم قالوا فى قوله تعالى (الذى أحلنا دار المقامة من فضله) إن كلمة من لابتداء الغاية ، فالمعنى أن استحقاق هذه الجنان ، إنما حصل بسبب فضلك السابق فانك لولا أنك خلقتنا وأعطيتنا القدرة والعقل وأزلت الأعذار وأعطيت الألطاف وإلا لما وصلنا إلى هذه الدرجة . فان قيل فاذا كان لا حق لأحد عليه فى مذهبكم ، فما السبب فى التزام مثل هذا الانعام ؟ قلنا : أتسأل عن إنعامه الأمسى حال عدمنا ؟ أوعن إنعامه اليومى حال التكليف ؟ أوعن إنعامه فى غد القيامة ؟ فان سألت عن الأمسى فكأنه يقول : أنا منزه عن الإنتفاع والمائدة مملوءة من المنافع فلو لم أخلق الخلق لضاعت هذه المنافع ، فكما أن من له مال ولا عيال له فانه يشترى العبيد والجوارى لينتفعوا بماله ، فهو سبحانه اشترى من دار العدم هذا الخلق لينتفعوا بملكه ، كما روى «الخلق عيال الله» وأما اليومى فالنعمان(١) يوجب الإتمام بعد الشروع . فالرحمن أولى . وأما الغد فأنا مديونهم بحكم الوعد والإخبار فكيف لا أفى بذلك .

---

(١) يراد بالنعمان الوصفية من الانعام ، أو الاسمية والاسمية نص الأولى يقصد النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وهو .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى قوله (عند ربهم) لطائف :

﴿ أحدها ﴾ قال بعض الفقهاء : لو قال لاشىء لى على فلان ، فهذا يختص بالديون وله أن يدعى الوديعة . ولو قال لاشىء لى عند فلان انصرف إلى الوديعة دون الدين . ولو قال لاشىء لى قبل فلان انصرف إلى الدين والوديعة معاً ، إذا عرفت هـذا فقوله (عند ربهم) يفيد أنه وديعة والوديعة عين . ولو قال لفلان على كذا فهو إقرار بالدين ، والعين أشرف من الدين فقوله (عند ربهم) يفيد أنه كالمال المعين الحاضر العتيد ، فان قيل الوديعة أمانة وغير مضمونة والدين مضمون والمضمون خير مما كان غير مضمون ، قلنا : المضمون خير إذا تصور الهلاك فيه وهذا فى حق الله تعالى محال ، فلا جرم قلنا الوديعة هناك خير من المضمون .

﴿ وثانيها ﴾ إذا وقعت الفتنة فى البلدة ، فوضعت مالك عند إمام المحلة على سبيل الوديعة صرت فارغ القلب ، فههنا ستقع الفتنة فى بلدة بدنك ، وحينئذ تخاف الشياطين من أن يغيروا عليها ، فضع وديعة أمانتك عندى فانى أكتب لك به كتاباً يتلى فى المحاريب إلى يوم القيامة وهو قوله (جزاؤهم عند ربهم) حتى أسلمه إليك أحوج ما تكون إليه وهو فى عرصة القيامة .

﴿ وثالثها ﴾ أنه قال (عند ربهم) وفيه بشارة عظيمة ، كأنه تعالى يقول أنا الذى ربيتك أولا حين كنت معدوماً صفر اليد من الوجود والحياة والعقل والقدرة ، فخلقتك وأعطيتك كل هذه الأشياء فحين كنت مطلقاً أعطيتك هذه الأشياء ، وما ضيعتك أترى أنك إذا اكتسبت شيئاً وجعلته وديعة عندى فأنا أضيعها . كلا إن هذا مما لا يكون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (جزاؤهم عند ربهم جنات) فيه قولان :

﴿ أحدهما ﴾ أنه قابل الجمع بالجمع[1]، وهو يقتضى مقابلة الفرد بالفرد ، كما لو قال لامرأتيه أو عبديه : إن دخلتما هاتين الدارين فأنتما كذا فيحمل هذا على أن يدخل كل واحد منهما داراً على حدة ، وعن أبى يوسف لم يحنث حتى يدخلا الدارين، وعلى هذا إن ملكتما هذين العبدين . ودليل القول الأول (جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم) فعلى القول الأول بين أن الجزاء لكل مكلف جنة واحدة ، لكن أدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات كذا روى مرفوعاً . ويدل عليه قوله تعالى (وملكا كبيراً) ويحتمل أن يراد لكل مكلف جنات ، كما روى عن أبى يوسف وعليه يدل القرآن ، لأنه قال (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال (ومن دونهما جنتان) فذكر أربعاً للواحد ، والسبب فيه أنه بكى من خوف الله ، وذلك البكاء إنما نزل من أربعة أجفان اثنان دون الاثنين ، فاستحق جنتين دون الجنتين ، فحصلت له أربع جنات ، لسكبه البكاء من أربعة أجفان ، ثم إنه تعالى قدم الخوف فى قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وأخر الخوف فى هذه الآية لأنه ختم السورة بقوله (ذلك لمن خشى ربه) وفيه اشارة إلى أنه لابد من

(١) الصواب أن يقال : قابل المفرد بالجمع فالمفرد هنا لفظ جزاء والجمع لفظ جنات .

دوام الخوف ، أما قبل العمل فالحاصل خوف الاختلال ، وأما بعد العمل فالحاصل خوف الخلال ، إذ هذه العبادة لا تليق بتلك الحضرة .

﴿ المسأله السادسة ﴾ قوله (عدن) يفيد الاقامة (لا يخرجون منها) (وما هم منها بمخرجين) (لا يبغون عنها حولا) يقال عدن بالمكان أقام . وروى أن جنات عدن وسط الجنة ، وقيل عدن من المعدن أى هى معدن النعيم والأمن والسلامة ، قال بعضهم إنها سميت جنة إما من الجن أو الجنون أو الجنة أو الجنين ، فإن كانت من الجن فهم المخصوصون بسرعة الحركة يطوفون العالم فى ساعة واحدة فكأنه تعالى قال إنها فى إيصال المكلف إلى مشتهياته فى غاية الإسراع . مثل حركة الجن ، مع أنها دار إقامة وعدن ، وإما من الجنون فهو أن الجنة . بحيث لو رآها العاقل يصير كالمجنون ، لولا أن الله بفضله يثبته ، وإما من الجنة فلأنها جنة واقية تقيك من النار ، أو من الجنين ، فلأن المكلف يكون فى الجنة فى غاية التنعم . ويكون كالجنين لا يمسه برد ولا حر (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله (تجرى) إشارة إلى أن الماء الجارى ألطف من الراكد ، ومن ذلك النظر إلى الماء الجارى ، يزيد نوراً فى البصر بل كأنه تعالى قال : طاعتك كانت جارية مادمت حياً على ما قال (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) فوجب أن تكون أنهار إكرامى جارية إلى الأبد ، ثم قال من تحتها إشارة إلى عدم التنغيص ، وذلك لأن التنغيص فى البستان . إما بسبب عدم الماء الجارى . فذكر الجرى الدائم ، وإما بسبب الغرق والكثرة ، فذكر من تحتها ، ثم الألف واللام فى الأنهار للتعريف فتكون منصرفة إلى الأنهار المذكورة فى القرآن ، وهى نهر الماء واللبن والعسل والخمر ، واعلم أن النهار والأنهار من السعة والضياء . فلا تسمى الساقية نهراً ، بل العظيم هو الذى يسمى نهراً بدليل قوله (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار) فعطف ذلك على البحر .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ اعلم أنه تعالى لما وصف الجنة أتبعه بما هو أفضل من الجنة وهو الخلود أولا والرضا ثانياً ، وروى أنه عليه السلام قال «إن الخلود فى الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة»

﴿ أما الصفة الأولى ﴾ وهى الخلود ، فاعلم أن الله وصف الجنة مرة بجنات عدن ومرة بجنات النعيم ومرة بدار السلام ، وهذه الأوصاف الثلاثة إنما حصلت لأنك ركبت إيمانك من أمور ثلاثة اعتقاد وقول وعمل .

﴿ وأما الصفة الثانية ﴾ وهى الرضا ، فاعلم أن العبد مخلوق من جسد وروح ، فجنة الجسد هى الجنة الموصوفة وجنة الروح هى رضا الرب ، والإنسان مبتدأ أمره من عالم الجسد ومنتهى أمره من عالم العقل والروح ، فلا جرم ابتدأ بالجنة وجعل المنتهى هو رضا الله ، ثم إنه قدم رضى الله عنهم على قوله (ورضوا عنه) لأن الأزلى هو المؤثر فى المحدث ، والمحدث لا يؤثر فى الأزلى .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ إنما قال (رضى الله عنهم) ولم يقل رضى الرب عنهم ولا سائر الأسماء

لأن أشد الأسماء هيبة وجلالة لفظ الله ، لأنه هو الإسم الدال على الذات والصفات بأسرها أعنى صفات الجلال وصفات الإكرام ، فلو قال رضى الرب عنهم لم يشعر ذلك بكمال طاعة العبد لأن المربى قد يكتفى بالقليل ، أما لفظ الله فيفيد غاية الجلالة والهيبة ، وفى مثل هذه الحضرة لا يحصل الرضا إلا بالفعل الكامل والخدمة التامة ، فقوله (رضى الله عنهم) يفيد تطرية فعل العبد من هذه الجهة .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ اختلفوا فى قوله (رضى الله عنهم) فقال بعضهم معناه رضى أعمالهم ، وقال بعضهم المراد رضى بأن يمدحهم ويعظمهم . قال لأن الرضا عن الفاعل غير الرضا بفعله ، وهذا هو الأقرب ، وأما قوله (ورضوا عنه) فالمراد أنه رضوا بما جازاهم من النعيم والثواب .

أما قوله تعالى ﴿ ذلك لمن خشى ربه ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الخوف فى الطاعة حال حسنة قال تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) ولعل الخشية أشد من الخوف ، لأنه تعالى ذكره فى صفات الملائكة مقروناً بالإشفاق الذى هو أشد الخوف فقال (هم من خشية ربهم مشفقون) والكلام فى الخوف والخشية مشهور .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية إذا ضم إليها آية أخرى صار المجموع دليلا على فضل العلم والعلماء ، وذلك لأنه تعالى قال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فدلت هذه الآية على أن العالم يكون صاحب الخشية ، وهذه الآية وهى قوله (ذلك لمن خشى ربه) تدل على أن صاحب الخشية تكون له الجنة فيتولد من مجموع الآيتين أن الجنة حق العلماء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعضهم : هذه الآية تدل على أن المرء لا ينتهى إلى حد يصير معه آمناً بأن يعلم أنه من أهل الجنة ، وجعل هذه الآية دالة عليه . وهذا المذهب غير قوى ، لأن الأنبياء عليهم السلام قد علموا أنهم من أهل الجنة ، وهم مع ذلك من أشد العباد خشية لله تعالى ، كما قال عليه الصلاة والسلام «أعرفكم بالله أخوفكم من الله ، وأنا أخوفكم منه» والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(سـورة الزلزلة)

(وهى ثمان آيات مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا «١»

﴿ سورة الزلزلة وهى ثمان آيات مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة وجوهاً (أحدها) أنه تعالى لما قال (جزاؤهم عند ربهم) فكأن المكلف قال ومتى يكون ذلك يارب فقال : (إذا زلزلت الأرض زلزالها) فالعالمون كلهم يكونون فى الخوف ، وأنت فى ذلك الوقت تنال جزاؤك وتكون آمناً فيه ، كما قال (وهم من فزع يومئذ آمنون) (وثانيها) أنه تعالى لما ذكر فى السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد فى وعيد الكافر ، فقال : أجازيه حين يقول الكافر السابق ذكره ، ماللأرض تزلزل ، نظيره قوله (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) ثم ذكر الطائفتين فقال (فأما الذين اسودت وجوههم) (وأما الذين ابيضت وجوههم) ثم جمع بينهما فى آخر السورة فذكر الذرة من الخير والشر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (إذا) بحثان (أحدهما) أن لقائل أن يقول (إذا) للوقت فكيف وجه البداية بها فى أول السورة ؟ (وجوابه) من وجوه (الأول) كانوا يسألونه متى الساعة ؟ فقال : (إذا زلزلت الأرض) كأنه تعالى قال : لا سبيل إلى تعيينه بحسب وقته ولكنى أعينه بحسب علاماته ، (الثانى) أنه تعالى أراد أن يخبر المكلف أن الأرض تحدث وتشهد يوم القيامة مع أنها فى هذه الساعة جماد فكأنه قيل : متى يكون ذلك ؟ فقال (إذا زلزلت الأرض)

﴿البحث الثانى﴾ قالوا كلمة (إن) فى المجوز ، (وإذا) فى المقطوع به ، تقول : إن دخلت الدار فأنت طالق لأن الدخول يجوز ، أما إذا أردت التعليق بما يوجد قطعاً لا تقول ، إن بل تقول . إذا [نحو إذا] جاء غد فأنت طالق لأنه يوجد لا محالة . هذا هو الأصل ، فإن استعمل على خلافه فمجاز ، فلما كان الزلزال مقطوعاً به قال (إذا زلزلت) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الفراء : الزلزال بالكسر المصدر والزلزال بالفتح الاسم ، وقد قرىء بهما . وكذلك الوسواس هو الإسم أى اسم الشيطان الذى يوسوس إليك ، والوسواس بالكسر

وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا «٢»

المصدر ، والمعنى : حركت حركة شديدة ، كما قال (إذا رجت الأرض رجاً) وقال قوم : ليس المراد من زلزلت حركت ، بل المراد : تحركت واضطربت ، والدليل عليه أنه تعالى يخبر عنها فى جميع السورة كما يخبر عن المختار القادر ، ولأن هذا أدخل فى التهويل كأنه تعالى يقول : إن الجماد ليضطرب لأوائل القيامة ، أما آن لك أن تضطرب وتتيقظ من غفلتك ! ويقرب منه (لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) واعلم أن زل للحركة المعتادة ، وزلزل للحركة الشديدة العظيمة ، لما فيه من معنى التكرير ، وهو كالصرصر فى الريح ، ولأجل شدة هذه الحركة وصفها الله تعالى بالعظم فقال (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال مجاهد : المراد من الزلزلة المذكورة فى هذه الآية النفخة الأولى كقوله (يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة) أى تزلزل فى النفخة الأولى، ثم تزلزل ثانياً فتخرج موتاها وهى الأثقال ، وقال آخرون : هذه الزلزلة هى الثانية بدليل أنه تعالى جعل من لوازمها أنها تخرج الأرض أثقالها ، وذلك إنما يكون فى الزلزلة الثانية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى قوله (زلزالها) بالإضافة وجوه (أحدها) القدر اللائق بها فى الحكمة ، كقولك : أكرم التقى إكرامه وأهن الفاسق إهانته ، تريد مايستوجبانه من الإكرام والإهانة (والثانى) أن يكون المعنى زلزالها كله وجميع ماهو ممكن منه ، والمعنى أنه وجد من الزلزلة كل مايحتمله المحل (والثالث) (زلزالها) الموعود أو المكتوب عليها إذا قدرت تقدير الحى ، تقريره ماروى أنها تزلزل من شدة صوت اسرافيل لما أنها قدرت تقدير الحى .

أما قوله ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الأثقال قولان (أحدهما) أنه جمع ثقل وهو متاع البيت (وتحمل أثقالكم) جعل ما فى جوفها من الدفائن أثقالا لها ، قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ، وقيل سمى الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم إذا كانوا فى بطنها ويثقلون عليها إذا كانوا فوقها ، ثم قال المراد من هذه الزلزلة ، الزلزلة الأولى يقول : أخرجت الأرض أثقالها ، يعنى الكنوز فيمتلىء ظهر الأرض ذهباً ولا أحد يلتفت إليه ، كأن الذهب يصيح ويقول : أما كنت تخرب دينك ودنياك لأجلى ! أو تكون الفائدة فى إخراجها كما قال تعالى (يوم يحمى عليها فى نار جهنم) ومن قال المراد منها الزلزلة الثانية وهى بعد القيامة . قال تخرج الأثقال يعنى الموتى أحياء كالأم تلده حياً ، وقيل تلفظه الأرض ميتاً ، كما دفن ثم يحييه الله تعالى (والقول الثانى) أثقالها : أسرارها فيومئذ تكشف الأسرار ، ولذلك قال (يومئذ تحدث أخبارها) فتشهد لك أو عليك .

وَقَالَ ٱلْإِنْسَانُ مَا لَهَا «٣» يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا «٤»

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى قال فى صفة الأرض (ألم نجعل الأرض كفاتاً) ثم صارت بحال ترميك وهو تقرير لقوله (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) وقوله (يوم يفر المرء) .

أما قوله تعالى ﴿ وقال الإنسان مالها ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ مالها تزلزل هـذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما فى بطنها ، وذلك إما عند النفخة الأولى حين تلفظ ما فيها من الكنوز والدفائن ، أو عند النفخة الثانية حين تلفظ ما فيها من الأموات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قيل هذا قول الكافر وهو كما يقولون (من بعثنا من مرقدنا) فأما المؤمن فيقول (هـذا ما وعد الرحمن وصـدق المرسلون) وقيل بل هو عام فى حق المؤمن والكافر أى الإنسان الذى هو كنود جزوع ظلوم الذى من شأنه الغفلة والجهالة ، يقول مالها وهو ليس بسؤال بل هو للتعجب ، لمـا يرى من العجائب التى لم تسمع بها الآذان ، ولا تطلق بها لسان ، ولهذا قال الحسن إنه للكافر والفاجر معاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنمـا قال (مالها) على غير المواجهة لأنه يعاتب بهذا الكلام نفسه ، كأنه يقول : يانفس ماللأرض تفعل ذلك يعنى يانفس أنت السبب فيه فإنه لولا معاصيك لمـا صارت الأرض كذلك فالكفار يقولون هذا الكلام والمؤمنون يقولون (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن)

أما قوله تعالى ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ فاعلم أن ابن مسعود قرأ (تنبىء أخبارها) وسعيد ابن جبير تنبىء(١) ثم فيه سؤالات :

﴿ الأول ﴾ أين مفعولا تحدث ؟ (الجواب) قد حذف أولهما والثانى أخبارها وأصله تحدث الخلق أخبارها إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيما .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما معنى تحديث الأرض ؟ قلنا فيه وجوه : (أحدها) وهو قول أبى مسلم يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله فكأنها حدثت بذلك ، كقولك الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدث أن الدنيا قد انقضت وأن الآخرة قد أقبلت (والثانى) وهو قول الجمهور أن الله تعالى يجعل الأرض حيواناً عاقلا ناطقاً ويعرفها جميع ماعمل أهلها فحينئذ تشهد لمن أطاع وعلى من عصى ، قال عليه السلام «أن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عمل عليها» ثم تلا هذه الآية وهذا على مذهبنا غير بعيد لأن البنية عندنا ليست شرطاً لقبول الحياة ، فالأرض مع بقائها على شكلها ويبسها وقشفها يخلق الله فيها الحياة والنطق ، والمقصود كأن الأرض تشكو من العصاة

(١) رسمت فى الموضعين تنبىء ، وهى قراءة بالمعنى ويظهر أن الخلاف بين القراءتين ليس فى الرسم وإنمـا فى القراءة فاحدى القراءتين بكسر الباء مخففة والثانية بتشديدها .

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا «٥» يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ «٦»

وتشكر من أطاع الله ، فتقول إن فلاناً صلى وزكى وصام وحج فى ، وإن فلاناً كفر وزنى وسرق وجار ، حتى يود الكافر أن يساق إلى النار ، وكان على عليه السلام : إذا فرغ بيت المال صلى فيه ركعتين ويقول : لتشهدن أنى ملأتك بحق وفرغتك بحق (والقول الثالث) وهو قول المعتزلة أن الكلام يجوز خلقه فى الجماد ، فلا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الأرض حال كونها جماداً أصواتاً مقطعة مخصوصة فيكون المتكلم والشاهد على هذا التقدير هو الله تعالى .

﴿ السؤال الثالث ﴾ إذا ويومئذ ماناصبهما ؟ (الجواب) يومئذ بدل من إذا وناصبهما تحدث

﴿ السؤال الرابع ﴾ لفظ التحديث يفيد الاستئناس وهناك لااستئناس فما وجه هذا اللفظ ؟ (الجواب) أن الأرض كأنها تبث شكواها إلى أولياء الله وملائكته .

أما قوله تعالى ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ ففيه سؤالان :

﴿السؤال الأول﴾ بم تعلقت الباء فى قوله (بأن ربك) ؟ (الجواب) بتحدث ، ومعناه تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم لم يقل أوحى إليها ؟ (الجواب) فيه وجهان (الأول) قال أبو عبيدة (أوحى لها) أى أوحى إليها وأنشد للعجاج : «أوحى لها القرار فاستقرت»

(الثانى) لعله إنما قال لها أى فعلنا ذلك لأجلها حتى تتوسل الأرض بذلك إلى التشفى من العصاة .

قوله تعالى ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴾ الصدور ضد الورود فالوارد الجائى والصادر المنصرف وأشتاتاً متفرقين ، فيحتمل أن يردوا الأرض ، ثم يصدرون عن الأرض إلى عرصة القيامة ، ويحتمل أن يردوا عرصة القيامة للمحاسبة ثم يصدرون عنها إلى موضع الثواب والعقاب ، فإن قوله (أشتاتاً) أقرب إلى الوجه الأول ولفظة الصدر أقرب إلى الوجه الثانى ، وقوله (ليروا أعمالهم) أقرب إلى الوجه الأول لأن رؤية أعمالهم مكتوبة فى الصحائف أقرب إلى الحقيقة من رؤية جزاء الأعمال ، وإن صح أيضاً أن يحمل على رؤية جزاء الأعمال ، وقوله (أشتاتاً) فيه وجوه (أحدها) أن بعضهم يذهب إلى الموقف راكبا مع الثياب الحسنة وبياض الوجه والمنادى ينادى بين يديه : هذا ولى الله ، وآخرون يذهب بهم سود الوجوه حفاة عراة مع السلاسل والأغلال والمنادى ينادى بين يديه هذا عدو الله (وثانيها) أشتاتاً أى كل فريق مع شكله اليهودى مع اليهودى والنصرانى مع النصرانى (وثالثها) أشتاتاً من أقطار الأرض من كل ناحية ، ثم إنه سبحانه ذكر المقصود وقال (ليروا أعمالهم) قال بعضهم : ليروا صحائف أعمالهم ، لأن الكتاب يوضع بين يدى الرجل فيقول هذا طلاقك وبيعك هل تراه والمرئى وهو الكتاب وقال آخرون : ليروا جزاء أعمالهم ، وهو الجنة أو النار ، وإنما أوقع اسم العمل على الجزاء لأنه جزاء وفاق ، فكأنه

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ «٧» وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ «٨»

نفس العمل بل المجاز فى ذلك أدخل من الحقيقة . وفى قراءة النبى ﷺ (ليروا) بالفتح .

ثم قال تعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (مثقال ذرة) أى زنة ذرة ، قال الكلبى الذرة أصغر النمل ، وقال ابن عباس إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لزق به من التراب مثقال ذرة فليس من عبد عمل خيراً أو شراً قليلا كان أو كثيراً إلا أراه الله تعالى إياه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى رواية عن عاصم (يره) برفع الياء وقرأ الباقون (يره) بفتحها وقرأ بعضهم (يره) بالجزم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى الآية إشكال وهو أن حسنات الكافر محبطة بكفره وسيئات المؤمن مغفورة ، إما ابتداء وإما بسبب اجتناب الكبائر ، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر ؟

واعلم أن المفسرين أجابوا عنه من وجوه : (أحدها) قال احمد بن كعب القرظى (فمن يعمل مثقال ذرة) من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك فى الدنيا حتى يلقى الآخرة ، وليس له فيها شيء ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روى أنه عليه السلام قال لأبى بكر « ياأبا بكر مارأيت فى الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى توفاها يوم القيامة » (وثانيها) قال ابن عباس : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه ، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته . وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته (وثالثها) أن حسنات الكافر وإن كانت محيطة بكفره ولكن الموازنة معتبرة فتقدر تلك الحسنات انحبطت من عقاب كفره ، وكذا القول فى الجانب الآخر فلا يكون ذلك قادحاً فى عموم الآية (ورابعها) أن تخصص عموم قوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ونقول : المراد فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لقائل أن يقول إذا كان الأمر إلى هذا الحد فأين الكرم ؟ (والجواب) هذا هو الكرم ، لأن المعصية وإن قلت ففيها استخفاف ، والكريم لا يحتمله وفى الطاعة تعظيم ، وإن قل فالكريم لا يضيعه ، وكأن الله سبحانه يقول : لا تحسب مثقال الذرة من الخير صغيراً ، فإنك مع لؤمك وضعفك لم تضيع منى الذرة ، بل اعتبرتها ونظرت فيها ، واستدللت بها على ذاتى وصفاتى واتخذتها مركباً به وصلت إلى ، فإذا لم تضيع ذرتى أفأضيع ذرتك ! ثم التحقيق أن المقصود هو النية والقصد ، فإذا كان العمل قليلا لكن النية خالصة فقد حصل المطلوب ، وإن كان العمل كثيراً والنية دائرة فالمقصود فائت ، ومن ذلك ما روى عن كعب : لاتحقروا شيئاً من المعروف ، فإن رجلا دخل الجنة بإعارة إبرة فى سبيل الله ، وإن امرأة أعانت بحبة فى بناء بيت

المقدس فدخلت الجنة . وعن عائشة « كان بين يديها عنب فقدمته إلى نسوة بحضرتها ، فجاء سائل فأمرت له بحبة من ذلك العنب ، فضحك بعض من كان عندها ، فقالت إن فيما ترون مثاقيل الذرة وتلت هذه الآية » ولعلها كان غرضها التعليم ، وإلا فهى كانت فى غاية السخاوة . روى « أن ابن الزبير بعث إليها بمائة ألف وثمانين ألف درهم فى غرارتين ، فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أمست قالت : ياجارية هلمى فطورى ، فجاءت بخبز وزيت ، فقيل لها أما أمسكت لنا درهما نشترى به لحماً نفطر عليه ، فقالت لو ذكرتينى لفعلت ذلك » وقال مقاتل : نزلت هذه الآية فى رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، ويقول ما هذا بشىء ، وإنما نؤجر على ما نعطى ! وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، ويقول لاشىء على من هذا إنما الوعيد بالنار على الكبائر ، فنزلت هذه الآية ترغيباً فى القليل من الخير فإنه يوشك أن يكثر ، وتحذيراً من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر ، ولهذا قال عليه السلام « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ سورة العاديات ﴾

﴿ احدى عشرة آية مكية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا «١»

﴿ سورة العاديات ، إحدى عشرة آية مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والعاديات ضبحا ﴾
اعلم أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدت ، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمحمة ، ولكنه صوت نفس ، ثم اختلفوا فى المراد بالعاديات على قولين :
﴿ الأول ﴾ ماروى عن على عليه السلام وابن مسعود أنها الإبل، وهوقول ابراهيم والقرظى روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال «بينا أنا جالس فى الحجر إذ أتانى رجل فسألنى عن العاديات ضبحا ، ففسرتها بالخيل فذهب إلى على عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت ، فقال ادعه لى فلما وقفت على رأسه . قال تفتى الناس بما لا علم لك به ، والله إن كانت لأول غزوة فى الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد (والعاديات ضبحا) الإبل من عرفة إلى مزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى ، يعنى إبل الحاج ، قال ابن عباس فرجعت عن قولى إلى قول على عليه السلام» ويتأكد هذا القول بما روى أبى فى فضل السورة مرفوعا «من قرأها أعطى من الأجر بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعاً» وعلى هذا القول (فالموريات قدحا) أن الحوافر ترمى بالحجر من شدة العدو فتضرب به حجراً آخر فتورى النار أو يكون المعنى الذين يركبون الإبل وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم بالمزدلفة (فالمغيرات) الإغارة سرعة السير وهم يندفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى منى (فأثرن به نقعاً) يعنى غباراً بالعدو وعن محمد بن كعب النقع ما بين المزدلفة إلى منى (فوسطن به جمعاً) يعنى مزدلفة لأنها تسمى الجمع لاجتماع الحاج بها ، وعلى هذا التقدير ، فوجه القسم به من وجوه (أحدها) ما ذكرنا من المنافع الكثيرة فيه فى قوله (أفلا ينظرون إلى الإبل) (وثانيها) كأنه تعريض بالآدمى الكنود فكأنه تعالى يقول : إنى سخرت مثل هذا لك وأنت متمرد عن طاعتى (وثالثها) الغرض بذكر إبل الحج الترغيب فى الحج ، كأنه تعالى يقول : جعلت ذلك الإبل مقسما به ، فكيف أضيع

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا «٢»

عملك ! وفيه تعريض لمن يرغب عن الحج . فإن الكنود هو الكفور ، والذى لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك ، كما فى قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) إلى قوله (ومن كفر) .

﴿القول الثانى﴾ قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعطاء وأكثر المحققين أنه الخيل ، وروى ذلك مرفوعاً . قال الكلبى : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى أناس من كنانة فمكث ما شاء الله أن يمكث لا يأتيه منهم خبر فتخوف عليها . فنزل جبريل عليه السلام بخبر مسيرها ، فإن جعلنا الألف واللام فى (والعاديات) للمعهود السابق كان محل القسم خيل تلك السرية ، وإن جعلناهما للجنس كان ذلك قسما بكل خيل عدت فى سبيل الله .

واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادى أن المراد هو الخيل ، وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس ، واستعمال هذا اللفظ فى الإبل يكون على سبيل الاستعارة ، كما استعير المشافر والحافر للانسان ، والشفتان للمهر ، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز ، وأيضاً فالقدح يظهر بالحافر ما لا يظهر بخف الإبل ، وكذا قوله (فالمغيرات صبحاً) لأنه بالخيل أسهل منه بغيره ، وقد روينا أنه ورد فى بعض السرايا ، وإذا كان كذلك فالأقرب أن السورة مدنية ، لأن الإذن بالقتال كان بالمدينة ، وهو الذى قاله الكلبى ، إذا عرفت ذلك فههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى إنما أقسم بالخيل لأن لها فى العدو من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب ، فإنها تصلح للطلب والهرب والكر والفر ، فإذا ظننت أن النفع فى الطلب عدوت إلى الخصم لتفوز بالغنيمة ، وإذا ظننت أن المصلحة فى الهرب قدرت على أشد العدو ، ولا شك أن السلامة إحدى الغنيمتين . فأقسم تعالى بفرس الغازى لما فيه من منافع الدنيا والدين ، وفيه تنبيه على أن الإنسان يجب عليه أن يمسكه لا للزينة والتفاخر ، بل لهذه المنفعة ، وقد نبه تعالى على هذا المعنى فى قوله (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) فأدخل لام التعليل على الركوب ، وما أدخله على الزينة ، وإنما قال (ضبحاً) لأنه أمارة يظهر به التعب وأنه يبذل كل الوسع ولا يقف عند التعب ، فكأنه تعالى يقول : إنه مع ضعفه لا يترك طاعتك . فليكن العبد فى طاعة مولاه أيضاً كذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى انتصاب (ضبحا) وجوهاً (أحدها) قال الزجاج : والعاديات تضبح ضبحاً (وثانيها) أن يكون (والعاديات) فى معنى والضابحات ، لأن الضبح يكون مع العدو ، وهو قول الفراء (وثالثها) قال البصريون : التقدير : والعاديات ضابحة ، فقوله (صبحا) نصب على الحال .

أما قوله تعالى ﴿ فالموريات قدحاً ﴾

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا «٣» فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا «٤»

فاعلم أن الإيراء إخراج النار ، والقدح الصك تقول قدح فأورى وقد فأصلد ، ثم فى تفسير الآية وجوه (أحدها) قال ابن عباس : يريد ضرب الخيل بحوافرها الجبل فأورت منه النار مثل الزند إذا قدح ، وقال مقاتل : يعنى الخيل تقدحن بحوافرهن فى الحجارة ناراً كنار الحباحب(١) والحباحب اسم رجل كان بخيلا لا يوقد النار إلا إذا نام الناس ، فإذا انتبه أحد أطفأ ناره لئلا ينتفع بها أحد ، فشبهت هذه النار التى تنقدح من حوافر الخيل بتلك النار التى لم يكن فيها نفع ومن الناس من يقول : انها نعل الحديد يصك الحجر فتخرج النار ، والأول أبلغ لأن على ذلك التقدير تكون السنابك نفسها كالحديد (وثانيها) قال قوم هذه الآيات فى الخيل ، ولكن إيراؤها أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوهم ، كما قال تعالى (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) ومنه يقال للحرب إذا التحمت حمى الوطيس (وثالثها) هم الذين يغزون فيورون بالليل نيرانهم لحاجتهم وطعامهم (فالموريات) هم الجماعة من الغزاة (ورابعها) إنها هى الألسنة تورى نار العداوة لعظم ماتتكلم به (وخامسها) هى أفكار الرجال تورى نار المكر والخديعة ، روى ذلك عن ابن عباس ، ويقال لأقدحن لك ثم لأورين لك ، أى لأهيجن عليك شراً وحرباً ومكراً ، وقيل هو المكر إلا أنه مكر بإيقاد النار ليراهم العدو كثيراً ، ومن عادة العرب عند الغزو إذا قربوا من العدو أن يوقدوا نيراناً كثيرة ، لكى إذا نظر العدو إليهم ظنهم كثيراً (وسادسها) قال عكرمة الموريات قدحا الألسنة (وسابعها) (فالموريات قدحا) أى فالمنجحات أمراً ، يعنى الذين وجدوا مقصودهم وفازوا بمطلوبهم من الغزو والحج ، ويقال للمنجح فى حاجته ورى زنده ، ثم يرجع هذا إلى الجماعة المنجحة ،ويجوز أن يرجع إلى الخيل ينجح ركبانها ، قال جرير : وجدنا الأزد أكرمهم جواداً وأوراهم إذا قدحوا زنادا

ويقال فلان إذا قدح أورى ، وإذا منح أروى ، واعلم أن الوجه الأول أقرب لأن لفظ الإيراء حقيقة فى إيراء النار ، وفى غيره مجاز ، ولا يجوز ترك الحقيقة بغير دليل .

أما قوله تعالى ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ يعنى الخيل تغير على العدو وقت الصبح ، وكانوا يغيرون صباحاً لأنهم فى الليل يكونون فى الظلمة فلا يبصرون شيئاً ، وأما النهار فالناس يكونون فيه كالمستعدين للمدافعة والمحاربة ، أما هذا الوقت فالناس يكونون فيه فى الغفلة وعدم الاستعداد . وأما الذين حملوا هذه الآيات على الإبل ، قالوا المراد هو الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى ، والسنة أن لا تغير حتى تصبح ، ومعنى الإغارة فى اللغة الإسراع ، يقال أغار إذا أسرع وكانت العرب فى الجاهلية تقول : أشرق ثبير كيما نغير .أى نسرع فى الإفاضة .

أما قوله تعالى ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ ففيه مسائل :

(١) ويقال : الحباحب طائر صغير كالذبابة تضىء ليلا فيظنه الرائى ناراً .

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً «٥»

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى النقع قولان (أحدهما) أنه هو الغبار ، وقيل إنه مأخوذ من نقع الصوت إذا ارتفع ، فالغبار يسمى نقعاً لارتفاعه ، وقيل هو من النقع فى الماء ، فكأن صاحب الغبار غاص فيه ، كما يغوص الرجل فى الماء (والثانى) النقع الصياح من قوله عليه الصلاة والسلام . «ما لم يكن نقع ولا لقلقة» أى فهيجن فى المغار عليهم صياح النوائح ، وارتفعت أصواتهن ، ويقال ثار الغبار والدخان ، أى ارتفع وثار القطا عن مفحصه ، وأثرن الغبار أى هيجنه ، والمعنى أن الخيل أثرن الغبار لشدة العدو فى الموضع الذى أغرن فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير فى قوله به إلى ماذا يعود ؟ فيه وجوه (أحدها) وهو قول الفراء أنه عائد إلى المكان الذى انتهى إليه ، والموضع الذى تقع فيه الإغارة ، لأن فى قوله (فالمغيرات صبحاً) دليلا على أن الإغارة لابد لها من موضع ، وإذا علم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجر ذكره بالتصريح كقوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) (وثانيها) إنه عائد إلى ذلك الزمان الذى وقعت فيه الإغارة ، أى فأثرن فى ذلك الوقت نقعاً (وثالثها) وهو قول الكسائى أنه عائد إلى العدو ، أى فأثرن بالعدو نقعاً ، وقد تقدم ذكر العدو فى قوله (والعاديات) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فإن قيل على أى شىء عطف قوله (فأثرن) قلنا على الفعل الذى وضع اسم الفاعل موضعه ، والتقدير واللائى عدون فأورين ، وأغرن فأثرن .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ أبو حيوة (فأثّرن) بالتشديد بمعنى فأظهرن به غباراً ، لأن التأثير فيه معنى الإظهار ، أو قلب ثورن إلى وثرن وقلب الواو همزة .

أما قوله تعالى ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الليث وسطت النهر والمفازة أسطها وسطاوسطة ، أى صرت فى وسطها ، وكذلك وسطتها وتوسطتها ، ونحو هذا ، قال الفراء: والضمير فى قوله (به) إلى ماذا يرجع؟ فيه وجوه (أحدها) قال مقاتل : أى بالعدو ، وذلك أن العاديات تدل على العدو ، فجازت الكناية عنه ، وقوله (جمعاً) يعنى جمع العدو ، والمعنى صرن بعدوهن وسط جمع العدو ، ومن حمل الآيات على الإبل ، قال يعنى جمع منى (وثانيها) أن الضمير عائد إلى النقع أى (وسطن) بالنقع الجمع (وثالثها) المراد أن العاديات وسطن ملبسات بالنقع جمعاً من جموع الأعداء ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (فوسّطن) بالتشديد للتعدية ، والباء مزيدة للتوكيد كقوله (وأتوا به) وهى مبالغة فى وسطن ، واعلم أن الناس أكثروا فى صفة الفرس ، وهذا القدر الذى ذكره الله أحسن ، وقال عليه الصلاة والسلام « الخيل معقود بنواصيها الخير » ، وقال أيضا « ظهرها حرز

إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ «٦» وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ «٧» وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ «٨»

وبطنها كنز» واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به ، ذكر المقسم عليه وهو أمور ثلاثة :

(أحدها) قوله ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ قال الواحدى أصل الكنود منع الحق والخير ، والكنود الذى يمنع ما عليه ، والأرض الكنود هى التى لا تنبت شيئاً ثم المفسرين عبارات ، فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة : الكنود هو الكفور قالوا ومنه سمى الرجل المشهور كندة لأنه كند أباه ففارقه ، وعن الكلبى الكنود بلسان كندة العاصى وبلسان بنى مالك البخيل ، وبلسان مضر وربيعة الكفور ، وروى أبو أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن (الكنود) هو الكفور الذى يمنع رفده ، ويأكل وحده ، ويضرب عبده ، وقال الحسن (الكنود) اللوام لربه يعد المحن والمصائب ، وينسى النعم والراحات ، وهو كقوله (وأما إذا ما ابتلاه ربه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) .

واعلم أن معنى الكنود لا يخرج عن أن يكون كفراً أو فسقاً ، وكيفما كان فلا يمكن حمله على كل الناس ، فلا بد من صرفه إلى كافر معين ، أو إن حملناه على الكل كان المعنى أن طبع الإنسان يحمله على ذلك إلا إذا عصمه الله بلطفه وتوفيقه من ذلك ، والأول قول الأكثرين قالوا لأن ابن عباس قال : إنها نزلت فى قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشى ، وأيضاً فقوله (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور) لا يليق إلا بالكافر ، لأن ذلك كالدلالة على أنه منكر لذلك الأمر .

﴿ الثانى ﴾ من الأمور التى أقسم الله عليها قوله ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ وفيه قولان : (أحدهما) أن الانسان على ذلك أى على كنوده لشهيد يشهد على نفسه بذلك ، أما لأنه أمر ظاهر لا يمكنه أن يجحده ، أو لأنه يشهد على نفسه بذلك فى الآخرة ويعترف بذنوبه (القول الثانى) المراد وإن الله على ذلك لشهيد قالوا وهذا أولى لأن الضمير عائد إلى أقرب المذكورات والأقرب ههنا هو لفظ الرب تعالى ويكون ذلك كالوعيد والزجر له عن المعاصى من حيث إنه يحصى عليه أعماله ، وأما الناصرون للقول الأول فقالوا إن قوله بعد ذلك (وإنه لحب الخير لشديد) الضمير فيه عائد إلى الانسان ، فيجب أن يكون الضمير فى الآية التى قبله عائداً إلى الانسان ليكون النظم أحسن .

﴿ الأمر الثالث ﴾ مما أقسم الله عليه قوله ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ الخير المال من قوله تعالى (إن ترك خيراً) وقوله (وإذا مسه الخير منوعا) وهذا لأن الناس يعدون المال فيما بينهم خيراً كما أنه تعالى سمى ما ينال المجاهد من الجراح وأذى الحرب سوءا فى قوله (لم يمسسهم

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ «٩» وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ «١٠»

سوء) والشديد البخيل الممسك ، يقال فلان شديد ومتشدد . قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى   عقيلة مال الفاحش المتشدد

ثم فى التفسير وجوه (أحدها) أنه لأجل حب المال لبخيل ممسك (وثانيها) أن يكون المراد من الشديد القوى ، ويكون المعنى وإنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوى مطيق ، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف ، تقول هو شديد لهذا الأمر وقوى له ، إذا كان مطيقاً له ضابطاً ، (وثالثها) أراد إنه لحب الخيرات غير هش منبسط ولكنه شديد منقبض (ورابعها) قال الفراء يجوز أن يكون المعنى وإنه لحب الخير لشديد الحب يعنى أنه يحب المال ، ويحب كونه محباً له ، إلا أنه اكتفى بالحب الأول عن الثانى ، كما قال (اشتدت به الريح فى يوم عاصف) أى فى يوم عاصف الريح فاكتفى بالأولى عن الثانية (وخامسها) قال قطرب ، أى إنه شديد حب الخير ، كقولك إنه لزيد ضروب أى أنه ضروب زيد .

واعلم أنه تعالى لما عد عليه قبائح أفعاله خوفه . فقال ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القول فى (بعثر) مضى فى قوله تعالى (وإذا القبور بعثرت) وذكرنا أن معنى (بعثر) بعث وأثير وأخرج ، وقرىء بحثر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يسأل لم قال (بعثر ما فى القبور) ولم يقل بعثر من فى القبور ؟ ثم إنه لما قال مافى القبور ، فلم قال (إن ربهم بهم) ولم يقل إن ربها بها يومئذ لخبير ؟ (الجواب عن السؤال الأول) هو أن مافى الأرض من غير المكلفين أكثر فأخرج الكلام على الأغلب ، أو يقال أنهم حال ما يبعثرون لا يكونون أحياء عقلاء بل بعد البعث يصيرون كذلك ، فلا جرم كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء ، والضمير الثانى ضمير العقلاء .

ثم قال تعالى ﴿ وحصل مافى الصدور ﴾ قال أبو عبيدة ، أى ميز مافى الصدور ، وقال الليث : الحاصل من كل شىء مابقى وثبت وذهب ماسواه ، والتحصيل تمييز مايحصل والإسم الحصيلة قال لبيد:

وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه   إذا حصلت عند الإله الحصائل

وفى التفسير وجوه (أحدها) معنى حصل جمع فى الصحف ، أى أظهر محصلا مجموعاً (وثانيها) أنه لا بد من التمييز بين الواجب ، والمندوب ، والمباح ، والمكروه ، والمحظور ، فإن لكل واحد حكماً على حدة ، فتمييز البعض عن البعض ، وتخصيص كل واحد منها بحكمه اللائق به هو التحصيل ومنه قيل للمنخل المحصل (وثالثها) أن كثيراً ما يكون باطن الإنسان بخلاف ظاهره ، أما فى يوم القيامة فإنه تتكشف الأسرار وتنهتك الأستار ، ويظهر مافى البواطن ، كما قال (يوم تبلى السرائر) واعلم أن حظ الوعظ منه أن يقال إنك تستعد فيما لا فائدة لك فيه ، فتبنى المقبرة وتشترى

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ «١١»

التابوت ، وتفصل الكفن ، وتغزل العجوز الكفن . فيقال هذا كله للديدان ، فأين حظ الرحمن ! بل المرأة إذا كانت حاملا فإنها تعد للطفل ثياباً ، فإذا قلت لها لا طفل لك فما هذا الاستعداد؟ فتقول أليس يبعثر ما فى بطنى؟ فيقول الرب لك : ألا يبعثر ما فى بطن الأرض ، فأين الاستعداد ، وقرىء وحصل بالفتح والتخفيف بمعنى ظهر .

ثم قال ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ اعلم أن فيه سؤالات :

﴿ الأول ﴾ أنه يوهم أن علمه بهم فى ذلك اليوم إنما حصل بسبب الخبرة . وذلك يقتضى سبق الجهل وهو على الله تعالى محال (والجواب) من وجهين (أحدهما) كأنه تعالى يقول : إن من لم يكن عالماً ، فانه يصير بسبب الاختبار عالماً ، فمن كان لم يزل عالماً أن يكون خبيرا بأحوالك! (وثانيهما) أن فائدة تخصيص ذلك الوقت فى قوله (يومئذ) مع كونه عالماً لم يزل أنه وقت الجزاء ، وتقريره لمن الملك كأنه يقول لا حاكم يروج حكمه ولا عالم تروج فتواه يومئذ إلا هو ، وكم عالم لا يعرف الجواب وقت الواقعة ثم يتذكره بعد ذلك ، فكأنه تعالى يقول لست كذلك .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم خص أعمال القلوب بالذكر فى قوله (وحصل ما فى الصدور) وأهمل ذكر أعمال الجوارح ؟ (الجواب) لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلب . فانه لولا البواعث والإردات فى القلوب لما حصلت أفعال الجوارح ، ولذلك إنه تعالى جعلها الأصل فى الذم ، فقال (آثم قلبه) والأصل فى المدح . فقال (وجلت قلوبهم) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال (وحصل ما فى الصدور) ولم يقل وحصل ما فى القلوب؟ (الجواب) لأن القلب مطية الروح وهو بالطبع محب لمعرفة الله وخدمته ، إنما المنازع فى هذا الباب هو النفس ومحلها ما يقرب من الصدر ، ولذلك قال (يوسوس فى صدور الناس) وقال (أفمن شرح الله صدره للاسلام) فجعل الصدر موضعاً للاسلام .

﴿ السؤال الرابع ﴾ الضمير فى قوله (إن ربهم بهم) عائد إلى الانسان وهو واحد (والجواب) الانسان فى معنى الجمع كقوله تعالى (إن الإنسان لفى خسر) ثم قال (إلا الذين آمنوا) ولولا أنه للجمع وإلا لما صح ذلك . واعلم أنه بقى من مباحث هذه الآية مسألتان :

﴿ المسأله الأولى ﴾ هذه الآية تدل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات الزمانيات ، لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم فى ذلك اليوم فيكون منكره كافراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقل أن الحجاج سبق على لسانه أن بالنصب ، فأسقط اللام من قوله (لخبير) حتى لا يكون الكلام لحناً ، وهذا يذكر فى تقرير فصاحته ، فزعم بعض المشايخ أن هذا كفر لأنه قصد لتغيير المنزل . ونقل عن أبى السمال أنه قرأ على هذا الوجه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ سورة القارعة ﴾

﴿إحدى عشرة آية مكيـة﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْقَارِعَةُ «١» مَا ٱلْقَارِعَةُ «٢» وَمَا أَدْرَيكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ «٣»

﴿ سورة القارعة إحدى عشرة آية مكية ﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ختم السورة المتقدمة بقوله (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) فكأنه قيل وما ذلك اليوم ؟ فقيل هى القارعة .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ﴾ اعلم أن فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القرع الضرب بشدة واعتماد ، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة ، قال الله تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) ومنه قولهم : العبد يقرع بالعصا . ومنه المقرعة وقوارع القرآن وقرع الباب ، وتقارعوا تضاربوا بالسيوف ، واتفقوا على أن القارعة اسم من أسماء القيامة ، واختلفوا فى لمية هذه التسمية على وجوه (أحدها) أن سبب ذلك هو الصيحة التى تموت منها الخلائق ، لأن فى الصيحة الأولى تذهب العقول ، قال تعالى (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) وفى الثانيـة تموت الخلائق سوى إسرافيل ، ثم يميته الله ثم يحييه ، فينفخ الثالثة فيقومون . وروى أن الصور له ثقب على عدد الأموات لكل واحد ثقبة معلومة ، فيحيى الله كل جسد بتلك النفخة الواصلة إليه من تلك الثقبة المعينة ، والذى يؤكد هذا الوجه قوله تعالى (ما ينظرون إلا صيحة واحدة ، فإنما هى زجرة واحدة) (وثانيها) أن الأجرام العلوية والسفلية يصطكان اصطكاكا شديداً عند تخريب العالم ، فبسبب تلك القرعة سمى يوم القيامة بالقارعة (وثالثها) أن القارعة هى التى تقرع الناس بالأهوال والإفزاع ، وذلك فى السموات بالانشقاق والانفطار ، وفى الشمس والقمر بالتكور ، وفى الكواكب بالانتثار ، وفى الجبال بالدك والنسف ، وفى الأرض بالطى والتبديل . وهو قول الكلبى (ورابعها) أنها تقرع أعداء الله بالعذاب والخزى والنكال . وهو قول مقاتل ، قال بعض المحققين وهذا أولى من قول الكلبى لقوله تعالى (وهم من فزع يومئذ آمنون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى إعراب قوله (القارعة ما القارعة) وجوه (أحدها) أنه تحذير وقد

يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ «٤» وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ «٥»

جاء التحذير بالرفع والنصب تقول الأسد الأسد ، فيجوز الرفع والنصب (وثانيها) فيه إضمار أى ستأتيكم القارعة على ماأخبرت عنه فى قوله (إذا بعثر ما فى القبور) (وثالثها) رفع بالابتداء وخبره (ماالقارعة) وعلى قول قطرب الخبر . (وما أدراك ماالقارعة) فإن قيل إذا أخبرت عن شيء بشيء فلابدوأن تستفيد منه علماً زائدا ، وقوله (وما أدراك) يفيد كونه جاهلابه فكيف يعقل أن يكون هذا خبرا ؟ قلنا قد حصل لنا بهذا الخبر علم زائد ، لأنا كنا نظن أنها قارعة كسائر القوارع ، فبهذا التجهيل علمنا أنها قارعة فاقت القوارع فى الهول والشدة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وما أدراك ما القارعة) فيه وجوه (أحدها) معناه لا علم لك بكنهها ، لأنها فى الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ولا فهمه ، وكيفماقدرته فهوأعظم من تقديرك ، كأنه تعالى قال : قوارع الدنيا فى جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع ، ونار الدنيا فى جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار ، ولذلك قال فى آخر السورة (نار حامية) تنبيهاً على أن نارالدنيا فى جنب تلك ليست بحامية ، وصارآخرالسورة مطابقاً لأولها من هذا الوجه ، فإن قيل ههنا قال (وما أدراك ما القارعة) وقال فى آخر السورة (فأمه هاوية ، وما أدراك ماهية) ولم يقل وما أدراك ما هاوية فما الفرق ؟ قلنا الفرق أن كونها قارعة أمر محسوس ، أما كونها هاوية فليس كذلك ، فظهر الفرق بين الموضعين (وثانيها) أن ذلك التفصيل لا سبيل لأحد إلى العلم به إلا بأخبار الله وبيانه ، لأنه بحث عن وقوع الوقعات لا عن وجوب الواجبات ، فلا يكون إلى معرفته دليل إلا بالسمع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ نظير هذه الآية قوله (الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة) ثم قال المحققون قوله (القارعة ما القارعة) أشد من قوله (الحاقة ما الحاقة) لأن النازل آخراً لابد وأن يكون أبلغ لأن المقصود منه زيادة التنبيه ، وهذه الزيادة لاتحصل إلا إذا كانت أقوى ، وأما بالنظر إلى المعنى ، فالحاقة أشد لكونه راجعاً إلى معنى العدل ، والقارعة أشد لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل .

ثم قال تعالى ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ قال صاحب الكشاف : الظرف نصب بمضمر دلت عليه القارعة ، أى تقرع يوم يكون الناس كذا .

واعلم أنه تعالى وصف ذلك اليوم بأمرين (الأول) كون الناس فيه (كالفراش المبثوث) قال الزجاج : الفراش هو الحيوان الذى يتهافت فى النار ، وسمى فراشاً لتفرشه وانتشاره ، ثم إنه

تعالى شبه الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث ، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر . أما وجه التشبيه بالفراش ، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة ، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى ، فدل هذا على أنهم إذا بعثوا فزعوا ، واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة ، والمبثوث المفرق ، يقال بثه إذا فرقه . وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة . قال الفراء : كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضاً ، وبالجملة فالله سبحانه وتعالى شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر ، وبالفراش المبثوث ، لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش . ويتأكد ما ذكرنا بقوله تعالى (فتأتون أفواجاً) وقوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) وقوله في قصة يأجوج ومأجوج (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) فإن قيل الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار ، فكيف شبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معاً ؟ قلنا شبه الواحد بالصغير والكبير لكن في وصفين . أما التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة إلى غير جهة الأخرى . وأما بالجراد فبالكثرة والتتابع ، ويحتمل أن يقال إنها تكون كباراً أولا كالجراد ، ثم تصير صغاراً كالفراش بسبب احتراقهم بحر الشمس ، وذكروا في التشبيه بالفراش وجوهاً أخرى (أحدها) ماروى أنه عليه السلام قال « الناس عالم ومتعلم ، وسائر الناس همج رعاع » فجعلهم الله في الآخرة كذلك (جزاء وفاقاً) (وثانيها) أنه تعالى إنما أدخل حرف التشبيه ، فقال (كالفراش) لأنهم يكونون في ذلك اليوم أذل من الفراش ، لأن الفراش لايعذب ، وهؤلاء يعذبون ، ونظيره (كالأنعام بل هم أضل) .

﴿ الصفة الثانية ﴾ من صفات ذلك اليوم قوله تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) العهن الصوف ذو الألوان ، وقد مر تحقيقه عند قوله (وتكون الجبال كالعهن) والنفش فك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض ، وفي قراءة ابن مسعود : كالصوف المنفوش .

واعلم أن الله تعالى أخبر أن الجبال مختلفة الألوان على ما قال (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) ثم إنه سبحانه يفرق أجزاءها ويزيل التأليف والتركيب عنها فيصير ذلك مشابهاً للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشاً ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما ضم بين حال الناس وبين حال الجبال ، كأنه تعالى نبه على أن تأثير تلك القرعة في الجبال هو أنها صارت كالعهن المنفوش ، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها ! فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تتداركه رحمة ربه . ويحتمل أن يكون المراد أن جبال النار تصير كالعهن المنفوش لشدة حمرتها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد وصف الله تعالى تغير الأحوال على الجبال من وجوه (أولها) أن تصير قطعاً ، كما قال (ودكت الجبال دكا) ، (وثانيها) أن تصير كثيباً مهيلا ، كما قال (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) ثم تصير كالعهن المنفوش ، وهي أجزاء كالذر تدخل

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ «٦» فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ «٧» وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ «٨»

من كوة البيت لاتمسها الأيدى ، ثم قال فى الرابع تصير سراباً ، كما قال (وسيرت الجبال فكانت سراباً) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يقل يوم يكون الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش بل قال (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) لأن التكرير فى مثل هذا المقام أبلغ فى التحذير .

واعلم أنه تعالى لما وصف يوم القيامة قسم الناس فيه إلى قسمين فقال ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ واعلم أن فى الموازين قولين (أحدهما) أنه جمع موزون وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله ، وهذا قول الفراء قال ونظيره يقال : لك عندى درهم بميزان درهمك ووزن درهمك ودارى بميزان دارك ووزن دارك أى بحذائها (والثانى) أنه جمع ميزان ، قال ابن عباس الميزان له لسان وكفتان لايوزن فيه إلا الأعمال فيؤتى بحسنات المطيع فى أحسن صورة ، فإذا رجح فالجنة له ويؤتى بسيئات الكافر فى أقبح صورة فيخف وزنه فيدخل النار . وقال الحسن فى الميزان له كفتان ولا يوصف ، قال المتكلمون إن نفس الحسنات والسيئات لايصح وزنهما ، خصوصاً وقد تقضيا ، بل المراد أن الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن ، أو يجعل النور علامة الحسنات والظلمة علامة السيئات ، أو تصور صحيفة الحسنات بالصورة الحسنة وصحيفة السيئات بالصورة القبيحة فيظهر بذلك الثقل والخفة ، وتكون الفائدة فى ذلك ظهور حال صاحب الحسنات فى الجمع العظيم فيزداد سروراً ، وظهور حال صاحب السيئات فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق .

أما قوله تعالى ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ فالعيشة مصدر بمعنى العيش ، كالخيفة بمعنى الخوف ، وأما الراضية فقال الزجاج : معناه أى عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها وهى كقولهم لابن ، وتامر بمعنى ذو لبن وذو تمر ، ولهذا قال المفسرون تفسيرها مرضية على معنى يرضاها صاحبها .

ثم قال تعالى ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ أى قلت حسناته فرجحت السيئات على الحسنات قال أبو بكر رضى الله عنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً ، وقال مقاتل : إنما كان كذلك لأن الحق ثقيل والباطل خفيف .

فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ «٩» وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ «١٠» نَارٌ حَامِيَةٌ «١١»

أما قوله تعالى ﴿ فأمه هاوية ﴾ ففيه وجوه : (أحدها) أن الهاوية من أسماء النار وكأنها النار العميقة يهوى أهل النار فيها مهوى بعيداً ، والمعنى فمأواه النار . وقيل للمأوى أم على سبيل التشبيه بالأم التى لايقع الفزع من الولد إلا إليها (وثانيها) فأم رأسه هاوية فى النار ذكره الأخفش ، والكلبي ، وقتادة قال لأنهم يهوون فى النار على رؤوسهم (وثالثها) أنهم إذا دعوا على الرجل بالهلاك قالوا هوت أمه لأنه إذا هوى أى سقط وهلك فقد هوت أمه حزناً وثكلا ، فكأنه قيل (وأما من خفت موازينه) فقد هلك .

ثم قال تعالى ﴿ وما أدراك ماهيه ﴾ قال صاحب الكشاف هيه ضمير الداهية التى دل عليها قوله (فأمه هاوية) فى التفسير (الثالث) أو ضمير (هاوية) والهاء للسكت فإذا وصل جاز حذفها والاختيار الوقف بالهاء لاتباع المصحف والهاء ثابتة فيه ، وذكرنا الكلام فى هذه الهاء عند قوله (لم يتسنه ، فبهداهم اقتده ، ما أغنى عنى ماليه) .

ثم قال تعالى ﴿ نار حامية ﴾ والمعنى أن سائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية ، وهذا القدر كاف فى التنبيه على قوة سخونتها ، نعوذ بالله منها ومن جميع أنواع العذاب ، ونسأله التوفيق وحسن المآب (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد)

(سورة التكاثر)

﴿ ثمان آيات مكية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَيكُمُ التَّكَاثُرُ «١» حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ «٢»

﴿ سورة التكاثر ثمان آيات مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإلهاء الصرف إلى اللهو . واللهو الانصراف إلى مايدعو إليه الهوى ، ومعلوم أن الانصراف إلى الشيء يقتضى الإعراض عن غيره ، فلهذا قال أهل اللغة ألهانى فلان عن كذا أى أنسانى وشغلنى ، ومنه الحديث «أن الزبير كان إذا سمع صوت الرعد لهى عن حديثه» أى تركه وأعرض عنه ، وكل شيء تركته فقد لهيت عنه ، والتكاثر التباهى بكثرة المال والجاه والمناقب يقال تكاثر القوم تكاثراً إذا تعادوا ماالهم من كثرة المناقب ، وقال أبو مسلم : التكاثر تفاعل من الكثرة والتفاعل يقع على أحد وجوه ثلاثة يحتمل أن يكون بين الإثنين فيكون مفاعلة ، ويحتمل تكلف الفعل تقول تكارهت على كذا إذا فعلته وأنت كاره . وتقول تعاميت عن الأمر إذا تكلفت العمى عنه وتقول تغافلت ، ويحتمل أيضاً الفعل بنفسه كما تقول تباعدت عن الأمر أى بعدت عنه ، ولفظ التكاثر فى هذه الآية يحتمل الوجهين الأولين ، فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة لأنه كم من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه (أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً) ويحتمل تكلف الكثرة فان الحريص يتكلف جميع عمره تكثير ماله ، واعلم أن التفاخر والتكاثر شيء واحد ونظير هذه الآية قوله تعالى (وتفاخر بينكم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن التفاخر إنما يكون بإثبات الإنسان نوعاً من أنواع السعادة لنفسه ، وأجناس السعادة ثلاثة :

(فأحدها) فى النفس (والثانية) فى البدن (والثالثة) فيما يطيف بالبدن من خارج ، أما التى فى النفس فهى العلوم والأخلاق الفاضلة وهما المرادان بقوله حكاية عن ابراهيم (رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين) وبهما ينال البقاء الأبدى والسعادة السرمدية .

وأما التى فى البدن فهى الصحة والجمال وهى المرتبة الثانية ، وأما التى تطيف بالبدن من خارج فقسمان : (أحدهما) ضرورى وهو المال والجاه والآخر غير ضرورى وهو الأقرباء والأصدقاء

وهذا الذى عددناه فى المرتبة الثالثة إنما يراد كله للبدن بدليل أنه إذا تألم عضو من أعضائه فإنه يجعل المال والجاه فداء له .

وأما السعادة البدنية فالفضلاء من الناس إنما يريدونها للسعادة النفسانية فإنه مالم يكن صحيح البدن لم يتفرغ لاكتساب السعادات النفسانية الباقية . إذا عرفت هذا فنقول : العاقل ينبغى أن يكون سعيه فى تقديم الأهم على المهم ، فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء تفاخر بأخس المراتب من أسباب السعادات ، والاشتغال به يمنع الانسان من تحصيل السعادة النفسانية بالعلم والعمل ، فيكون ذلك ترجيحاً لأخس المراتب فى السعادات على أشرف المراتب فيها . وذلك يكون عكس الواجب ونقيض الحق ، فلهذا السبب ذمهم الله تعالى فقال (ألهاكم التكاثر) ويدخل فيه التكاثر بالعدد وبالمال والجاه والأقرباء والأنصار والجيش ، وبالجملة فيدخل فيه التكاثر بكل ما يكون من الدنيا ولذاتها وشهواتها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ألهاكم) يحتمل أن يكون إخباراً عنهم ، ويحتمل أن يكون استفهاما بمعنى التوبيخ والتقريع أى أألهاكم ، كما قرىء أنذرتهم وأأنذرتهم ، وإذا كنا عظاماً وأئذا كنا عظاماً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الآية دلت على أن التكاثر والتفاخر مذموم والعقل دل على أن التكاثر والتفاخر فى السعادات الحقيقية غير مذموم ، ومن ذلك ماروى من تفاخر العباس بأن السقاية بيده ، وتفاخر شيبة بأن المفتاح بيده إلى أن قال على عليه السلام : وأنا قطعت خرطوم الكفر بسيفى فصار الكفر مثلة فأسلمتم ، فشق ذلك عليهم فنزل قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج) الآية وذكرنا فى تفسير قوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) أنه يجوز للانسان أن يفتخر بطاعاته ومحاسن أخلاقه إذا كان يظن أن غيره يقتدى به ، فثبت أن مطلق التكاثر ليس بمذموم ، بل التكاثر فى العلم والطاعة والأخلاق الحميدة ، هو المحمود ، وهو أصل الخيرات . فالألف واللام فى التكاثر ليسا للاستغراق ، بل للمعهود السابق ، وهو التكاثر فى الدنيا ولذاتها وعلائقها ، فإنه هو الذى يمنع عن طاعة الله تعالى وعبوديته ، ولما كان ذلك مقرراً فى العقول ومتفقاً عليه فى الأديان ، لا جرم حسن إدخال حرف التعريف عليه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى تفسير الآية وجوه (أحدها) (ألهاكم التكاثر) بالعدد روى أنها نزلت فى بنى سهم وبنى عبد مناف تفاخروا أيهم أكثر فكان بنو عبد مناف أكثر فقال بنو سهم عدوا مجموع أحيائنا وأمواتنا مع مجموع أحيائكم وأمواتكم ، ففعلوا فزاد بنو سهم ، فنزلت الآية وهذه الرواية مطابقة لظاهر القرآن ، لأن قوله (حتى زرتم المقابر) يدل على أنه أمر مضى . فكأنه تعالى يعجبهم من أنفسهم ، ويقول هب أنكم أكثر منهم عدداً فماذا ينفع ، والزيارة إتيان الموضع . وذلك يكون لأغراض كثيرة ، وأهمها وأولاها بالرعاية ترقيق القلب وإزالة حب الدنيا

فإن مشاهدة القبور تورث ذلك على ماقال عليه السلام « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإن فى زيارتها تذكرة » ثم إنكم زرتم القبور ، بسبب قساوة القلب والاستغراق فى حب الدنيا فلما انعكست هذه القضية ، لاجرم ذكر الله تعالى ذلك فى معرض التعجيب .

﴿ والقول الثانى ﴾ أن المراد هو التكاثر بالمال واستدلوا عليه بما روى مطرف بن عبدالله ابن الشخير عن أبيه ، أنه عليه السلام كان يقرأ (ألهاكم) وقال ابن آدم . يقول مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، والمراد من قوله (حتى زرتم المقابر) أى حتى متم وزيارة القبر عبارة عن الموت . يقال لمن مات زار قبره وزار رمسه ، قال جرير للأخطل :

زار القبور أبو مالك ‏ ‏ ‏ ‏ فأصبح ألأم زوارها

أى مات فيكون معنى الآية : ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت ، وأنتم على ذلك ، يقال حمله على هذا الوجه مشكل من وجهين (الأول) أن الزائر هو الذى يزور ساعة ثم ينصرف ، والميت يبقى فى قبره ، فكيف يقال إنه زار القبر ؟ (والثانى) أن قوله (حتى زرتم المقابر) إخبار عن الماضى ، فكيف يحمل على المستقبل ؟ (والجواب) عن السؤال الأول أنه قد يمكث الزائر ، لكن لابد له من الرحيل ، وكذا أهل القبور يرحلون عنها إلى مكان الحساب (والجواب) عن السؤال الثانى من وجوه (أحدها) يحتمل أن يكون المراد من كان مشرفاً على الموت بسبب الكبر ، ولذلك يقال فيه إنه على شفير القبر (وثانيها) أن الخبر عمن تقدمهم وعظاً لهم ، فهو كالخبر عنهم ، لأنهم كانوا على طريقتهم ، ومنه قوله تعالى (ويقتلون النبيين) (وثالثها) قال أبو مسلم : إن الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييراً للكفار ، وهم فى ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور .

﴿ القول الثالث ﴾ (ألهاكم) الحرص على المال وطلب تكثيره حتى منعتم الحقوق المالية إلى حين الموت ، ثم تقول فى تلك الحالة : أوصيت لأجل الزكاة بكذا ، ولأجل الحج بكذا .

﴿ القول الرابع ﴾ (ألهاكم التكاثر) فلا تلتفتون إلى الدين ، بل قلوبكم كأنها أحجار لا تنكسر البتة إلا إذا زرتم المقابر ، هكذا ينبغى أن تكون حالكم ، وهو أن يكون حظكم من دينكم ذلك القدر القليل من الانكسار ، ونظيره قوله تعالى (قليلا ما تشكرون) أى لا أقنع منكم بهذا القدر القليل من الشكر .

﴿ المسألة السادسة ﴾ أنه تعالى لم يقل (ألهاكم التكاثر) عن كذا وإنما لم يذكره ، لأن المطلق أبلغ فى الذم لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله الموضع ، أى : ألهاكم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات والمندوبات فى المعرفة والطاعة والتفكر والتدبر ، أو نقول إن نظرنا إلى ما قبل هذه الآية فالمعنى : ألهاكم التكاثر عن التدبر فى أمر القارعة والاستعداد لها قبل الموت ، وإن نظرنا إلى الأسفل فالمعنى ألهاكم التكاثر ، فنسيتم القبر حتى زرتموه .

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ «٣» ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ «٤» كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ «٥» لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ «٦» ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ «٧»

أما قوله تعالى ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾ فهو يتصل بما قبله وبما بعده أما الأول ، فعلى وجه الرد والتكذيب أى ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء من أن السعادة الحقيقية بكثرة العدد والأموال والأولاد ، وأما اتصاله بما بعده ، فعلى معنى القسم أى حقاً سوف تعلمون لكن حين يصير الفاسق تائباً والكافر مسلماً ، والحريص زاهداً ، ومنه قول الحسن لا يغرنك كثرة من ترى حولك فإنك تموت وحدك ، وتبعث وحدك . وتحاسب وحدك ، وتقريره (يوم يفر المرء) ويأتينا فرداً (ولقد جئتمونا فرادى) إلى أن قال (وتركتم ما خولناكم) وهذا يمنعك عن التكاثر ، وذكروا فى التكرير وجوهاً (أحدها) أنه للتأكيد ، وأنه وعيد بعد وعيد كما تقول للمنصوح أقول لك ، ثم أقول لك لا تفعل (وثانيها) أن الأول عند الموت حين يقال له لا بشرى والثانى فى سؤال القبر : من ربك ؟ والثالث عند النشور حين ينادى المنادى ، فلان شقى شقاوة لا سعادة بعدها أبداً وحين يقال (وامتازوا اليوم) (وثالثها) عن الضحاك سوف تعلمون ، أيها الكفار (ثم كلا سوف تعلمون) أيها المؤمنون ، وكان يقرؤها كذلك ، فالأول وعيد والثانى وعد (ورابعها) أن كل أحد يعلم قبح الظلم والكذب وحسن العدل والصدق لكن لا يعرف قدر آثارها ونتائجها . ثم إنه تعالى يقول ، سوف تعلم العلم المفصل لكن التفصيل يحتمل الزائد فهما حصلت زيادة لذة ، ازداد علماً ، وكذا فى جانب العقوبة فقسم ذلك على الأحوال . فعند المعاينة يزداد ، ثم عند البعث ، ثم عند الحساب ، ثم عند دخول الجنة والنار ، فلذلك وقع التكرير (وخامسها) أن إحدى الحالتين عذاب القبر والأخرى عذاب القيامة ، كما روى عن ذر أنه قال كنت أشك فى عذاب القبر ، حتى سمعت على بن أبى طالب عليه السلام يقول ، إن هذه الآية تدل على عذاب القبر . وإنما قال (ثم) لأن بين العالمين والحياتين موتاً .

ثم قال تعالى ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم . ثم لترونها عن اليقين﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اتفقوا على أن جواب لو محذوف ، وأنه ليس قوله (لترون الجحيم) جواب لو ويدل عليه وجهان (أحدهما) أن ما كان جواب لو فنفيه إثبات ، وإثباته نفى ، فلو كان قوله (لترون الجحيم) جواباً للو لوجب أن لا تحصل هذه الرؤية ، وذلك باطل ، فإن هذه الرؤية واقعة قطعاً ، فإن قيل المراد من هذه الرؤية رؤيتها بالقلب فى الدنيا ، ثم إن هذه الرؤية غير واقعة قلنا ترك الظاهر خلاف الأصل (والثانى) أن قوله (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) إخبار عن أمر سيقع قطعاً ، فعطفه على ما لا يوجد ولا يقع قبيح فى النظم ، واعلم أن ترك الجواب

فى مثل هذا المكان أحسن ، يقول الرجل للرجل لو فعلت هذا أى لكان كذا ، قال الله تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) ولم يجىء له جواب وقال (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) إذا عرفت هذا فنقول : ذكروا فى جواب لو وجوهاً (أحدها) قال الأخفش (لو تعلمون علم اليقين) ما ألهاكم التكاثر (وثانيها) قال أبو مسلم لو علمتم ماذا يجب عليكم لتمسكتم به أو لو علمتم لأى أمر خلقتم لاشتغلتم به (وثالثها) أنه حذف الجواب ليذهب الوهم كل مذهب فيكون التهويل أعظم . وكأنه قال (لو علمتم علم اليقين) لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه ، ولكنكم ضلال وجهلة ، وأما قوله (لترون الجحيم) فاللام يدل على أنه جواب قسم محذوف ، والقسم لتوكيد الوعيد ، وأن ما أوعدوا به مما لا مدخل فيه للريب وكرره معطوفاً بثم تغليظاً للتهديد وزيادة فى التهويل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى أعاد لفظ كلا وهو للزجر ، وإنما حسنت الإعادة لأنه عقبه فى كل موضع بغير ما عقب به الموضع الآخر ، كأنه تعالى قال لا تفعلوا هذا فإنكم تستحقون به من العذاب كذا لا تفعلوا هذا فإنكم تستوجبون به ضرراً آخر ، وهذا التكرير ليس بالمكروه بل هو مرضى عندهم ، وكان الحسن رحمه الله يجعل معنى (كلا) فى هذا الموضع بمعنى حقاً كأنه قيل حقاً (لو تعلمون علم اليقين) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (علم اليقين) وجهان (أحدهما) أن معناه علماً يقيناً فأضيف الموصوف إلى الصفة ، كقوله تعالى (ولدار الآخرة) وكما يقال مسجد الجامع وعام الأول (والثانى) أن اليقين ههنا هو الموت والبعث والقيامة ، وقد سمى الموت يقيناً فى قوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ولأنهما إذا وقعا جاء اليقين ، وزال الشك فالمعنى لو تعلمون علم الموت وما يلقى الإنسان معه وبعده فى القبر وفى الآخرة لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله ، وقد يقول الإنسان ، أنا أعلم علم كذا أى أتحققه ، وفلان يعلم علم الطب وعلم الحساب ، لأن العلوم أنواع فيصلح لذلك أن يقال علمت علم كذا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ العلم من أشد البواعث على العمل ، فإذا كان وقت العمل أمامه كان وعداً وعظة ، وإن كان بعد فوات وقت العمل فحينئذ يكون حسرة وندامة ، كما ذكر أن ذا القرنين لما دخل الظلمات [وجد خرزاً] ، فالذين كانوا معه أخذوا من تلك الخرز فلما خرجوا من الظلمات وجدوها جواهر ، ثم الآخذون كانوا فى الغم أى لما لم يأخذوا أكثر مما أخذوا ، والذين لم يأخذوا كانوا أيضاً فى الغم ، فهكذا يكون أحوال أهل القيامة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى الآية تهديد عظيم للعلماء فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما فى التكاثر والتفاخر من الآفة لتركوا التكاثر والتفاخر ، وهذا يقتضى أن من لم يترك التكاثر والتفاخر لا يكون اليقين حاصلا له فالويل للعالم الذى لا يكون عاملا ثم الويل له .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى تكرار الرؤية وجوه (أحدها) أنه لتأكيد الوعيد أيضاً لعل القوم

ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ «٨»

كانوا يكرهون سماع الوعيد فكرر لذلك ونون التأكيد تقتضى كون تلك الرؤية اضطرارية ، يعنى لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها لكنكم تحملون على رؤيتها شئتم أم أبيتم (وثانيها) أن أولهما الرؤية من البعيد (إذا رأتهم من مكان بعيد ، سمعوا لها تغيظاً) وقوله (وبرزت الجحيم لمن يرى) والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار (وثالثها) أن الرؤية الأولى عند الورود والثانية عند الدخول فيها . وقيل هذا التفسير ليس بحسن لأنه قال (ثم لتسألن) والسؤال يكون قبل الدخول (ورابعها) الرؤية الأولى الموعد والثانية المشاهدة (وخامسها) أن يكون المراد لترون الجحيم غير مرة فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها لأنهم مخلدون فى الجحيم فكأنه قيل لهم ، على جهة الوعيد . لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة متصلة فتزول عنكم الشكوك وهو كقوله (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت - إلى قوله - فارجع البصر كرتين) بمعنى لو أعدت النظر فيها ماشئت لم تجد فطوراً ولم يرد مرتين فقط ، فكذا ههنا ، إن قيل مافائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين ؟ قلنا لأنهم فى المرة الأولى رأوا لهباً لاغير ، وفى المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية ، ولا شك أن هذه الرؤية أجلى ، والحكمة فى النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى التقريع على ترك النظر لأنهم كانوا يقتصرون على الظن ولا يطلبون الزيادة .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قراءة العامة لترون بفتح التاء ، وقرىء بضمها من أريته الشىء ، والمعنى أنهم يحشرون إليها فيرونها ، وهذه القراءة تروى عن ابن عامر والكسائى كأنهما أرادا لترونها فترونها ، ولذلك قرأ الثانية (ثم لترونها) بالفتح . وفى هذه الثانية دليل على أنهم إذا أروها رأوها وفى قراءة العامة الثانية تكرير للتأكيد ولسائر الفوائد التى عددناها . واعلم أن قراءة العامة أولى لوجهين (الأول) قال الفراء قراءة العامة أشبه بكلام العرب لأنه تغليظ ، فلا ينبغى أن يختلف لفظه (الثانى) قال أبو على المعنى فى (لترون الجحيم) لترون عذاب الجحيم ، ألا ترى أن الجحيم يراها المؤمنون أيضاً بدلالة قوله (وإن منكم إلا واردها) وإذا كان كذلك كان الوعيد فى رؤية عذابها لا فى رؤية نفسها يدل على هذا قوله (إذ يرون العذاب) وقوله (وإذا رأى الذين ظلموا العذاب) وهذا يدل على أن لترون أرجح من لترون .

قوله تعالى ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى أن الذى يسأل عن النعيم من هو ؟ فيه قولان :

﴿ أحدهما ﴾ وهو الأظهر أنهم الكفار ، قال الحسن لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار ، ويدل عليه وجهان (الأول) ماروى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية ، قال يارسول الله : أرأيت

أكلة أكلناها معك فى بيت أبى الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب أن تكون من النعيم الذى نسأل عنه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام إنما ذلك للكفار ، ثم قرأ (وهل يجازى إلا الكفور) (والثانى) وهو أن ظاهر الآية يدل على ما ذكرناه ، وذلك لأن الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره ، فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذى ظنوه سبباً لسعادتهم هو كان من أعظم أسباب الشقاء لهم فى الآخرة .

﴿ والقول الثانى ﴾ أنه عام فى حق المؤمن والكافر واحتجوا بأحاديث ، روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة عن النعيم فيقال له . ألم نصحح لك جسمك ونروك من الماء البارد » وقال محمود بن لبيد لما نزلت هذه السورة قالوا يارسول الله عن أى نعيم نسأل ؟ إنما هما الماء والتمر وسيوفنا على عواتقنا والعدوحاضر ، فعن أى نعيم نسأل ؟قال «إن ذلك سيكون» وروى عن عمر أنه قال أى نعيم نسأل عنه يارسول الله وقد أخرجنامن ديارناوأموالنا ؟ فقال ﷺ « ظلال المساكن والأشجار والأخبية التى تقيكم من الحر والبرد والماء البارد فى اليوم الحار» وقريب منه «من أصبح آمناً فى سربه معافى فى بدنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» وروى أن شاباً أسلم فى عهد رسول الله ﷺ فعلمه رسول الله سورة ألهاكم ثم زوجه رسول الله امرأة فلما دخل عليها ورآى الجهاز العظيم والنعيم الكثير خرج وقال لا أريد ذلك ، فسأله النبى عليه الصلاة والسلام عنه فقال ألست علمتنى (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) وأنا لا أطيق الجواب عن ذلك» وعن أنس لما نزلت الآية قام محتاج فقال هل على من النعمة شىء ؟ قال الظل والنعلان والماء البارد . وأشهر الأخبار فى هذا ماروى أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات ليلة إلى المسجد ، فلم يلبث أن جاء أبوبكر فقال ماأخرجك يا أبابكر ؟ قال الجوع ، قال والله ماأخرجنى إلا الذى أخرجك ، ثم دخل عمر فقال مثل ذلك ، فقال قوموا بنا إلى منزل أبى الهيثم ، فدق رسول الله ﷺ الباب وسلم ثلاث مرات فلم يجب أحد فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت امرأته تصيح كنا نسمع صوتك لكن أردنا أن تزيد من سلامك فقال لها خيراً ، ثم قالت بأبى أنت وأمى إن أبا الهيثم خرج يستعذب لنا الماء ، ثم عمدت إلى صاع من شعير فطحنته وخبزته ورجع أبو الهيثم فذبح عناقاً وأتاهم بالرطب فأكلوا وشربوا فقال عليه الصلاة والسلام «هذا من النعيم الذى تسألون عنه» وروى أيضاً « لاتزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن عمره وماله وشبابه وعمله » وعن معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليسأل يوم القيامة حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بأصبعه ، وعن لمس ثوب أخيه » واعلم أن الأولى أن يقال السؤال يعم المؤمن والكافر ، لكن سؤال الكافر سؤال توبيخ لأنه ترك الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكر وأطاع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى النعيم المسئول عنه وجوهاً (أحدها) ماروى أنه خمس : شبع

البطون و بارد الشراب ولذة النوم وإظلال المساكن واعتدال الخلق (وثانيها) قال ابن مسعود إنه الأمن والصحة والفراغ (وثالثها) قال ابن عباس إنه الصحة وسائر ملاذ المأكول والمشروب (ورابعها) قال بعضهم الانتفاع بإدراك السمع والبصر (وخامسها) قال الحسين بن الفضل تخفيف الشرائع وتيسير القرآن (وسادسها) قال ابن عمر إنه الماء البارد (وسابعها) قال الباقر إنه العافية ، ويروى أيضاً عن جابر الجعفى قال : دخلت على الباقر فقال ما تقول أرباب التأويل فى قوله (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) ؟ فقلت يقولون الظل والماء البارد فقال : لو أنك أدخلت بيتك أحداً وأقعدته فى ظل وأسقيته ماء بارداً أتمن عليه ؟ فقلت لا ، قال فالله أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه ، فقلت ماتأويله ؟ قال النعيم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أنعم الله به على هذا العالم فاستنقذهم به من الضلالة ، أما سمعت قوله تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا) الآية (القول الثامن) إنما يسألون عن الزائد مما لابد منه من مطعم وملبس ومسكن . (والتاسع) وهو الأولى أنه يجب حمله على جميع النعم ، ويدل عليه وجوه : (أحدها) أن الألف واللام يفيدان الاستغراق (وثانيها) أنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى الباقى لا سيما وقد دل الدليل على أن المطلوب من منافع هذه الدنيا اشتغال العبد بعبودية الله تعالى (وثالثها) أنه تعالى قال (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) والمراد منه جميع النعم من فلق البحر والإنجاء من فرعون وإنزال المن والسلوى فكذا ههنا (ورابعها) أن النعيم التام كالشىء الواحد الذى له أبعاض وأعضاء فإذا أشير إلى النعيم فقد دخل فيه الكل ، كما أن الترياق اسم المعجون المركب من الأدوية الكثيرة فإذا ذكر الترياق فقد دخل الكل فيه .

واعلم أن النعم أقسام فمنها ظاهرة وباطنة ، ومنها متصلة ومنفصلة ، ومنها دينية ودنيوية ، وقد ذكرنا أقسام السعادات بحسب الجنس فى تفسير أول هذه السورة ، وأما تعديدها بحسب النوع والشخص فغير ممكن على ماقاله تعالى (وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها) واستعن فى معرفة نعم الله عليك فى صحة بدنك بالأطباء ، ثم هم أشد الخلق غفلة ، وفى معرفة نعم الله عليك بخلق السموات والكواكب بالمنجمين . وهم أشد الناس جهلا بالصانع ، وفى معرفة سلطان الله بالملوك ، ثم هم أجهل الخلق ، وأما الذى يروى عن ابن عمر أنه الماء البارد فمعناه هذا من جملته ، ولعله إنما خصه بالذكر لأنه أهون موجود وأعز مفقود ، ومنه قول ابن السماك للرشيد أرأيت لو احتجت إلى شربة ماء فى فلاة أكنت تبذل فيه نصف الملك ؟ وإذا شرقت بها أكنت تبذل نصف الملك ؟ وإن احتبس بولك أكنت تبذل كل الملك ؟ فلا تغتر بملك كانت الشربة الواحدة من الماء قيمته مرتين ! أو لأن أهل النار يطلبون الماء أشد من طلبهم لغيره ، قال تعالى (أن أفيضوا علينا من الماء) أو لأن السورة نزلت فى المترفين ، وهم المختصون بالماء البارد والظل ، والحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر عن جميع النعيم سواء كان مما لابد منه [أو لا] ، وليس كذلك لأن كل ذلك يجب أن يكون

مصروفاً إلى طاعة الله لا إلى معصيته ، فيكون السؤال واقعاً عن الكل ، ويؤكده ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « لاتزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ؛ عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن عمله ماذا عمل به » فكل النعيم من الله تعالى داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى أن هذا السؤال أين يكون ؟

﴿ فالقول الأول ﴾ أن هذا السؤال إنما يكون فى موقف الحساب ، فإن قيل هذا لا يستقيم ، لأنه تعالى أخبر أن هذا السؤال متأخر عن مشاهدة جهنم بقوله (ثم لتسئلن) وموقف السؤال متقدم على مشاهدة جهنم ؟ قلنا المراد من قوله (ثم) أى ثم أخبركم أنكم تسألون يوم القيامة ، وهو كقوله (فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة) إلى قوله (ثم كان من الذين آمنوا) .

﴿ القول الثانى ﴾ أنهم إذا دخلوا النار سئلوا عن النعيم توبيخاً لهم ، كما قال (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها) وقال (ما سلككم فى سقر) ولا شك أن مجىء الرسول نعمة من الله ، فقد سئلوا عنه بعد دخولهم النار ، أو يقال إنهم إذا صاروا فى الجحيم وشاهدوها ، يقال لهم إنما حل بكم هذا العذاب لأنكم فى دار الدنيا اشتغلتم بالنعيم عن العمل الذى ينجيكم من هذه النار ، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة الفائزين بالدرجات ، فيكون ذلك من الملائكة سؤالا عن نعيمهم فى الدنيا ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(سورة العصر)
(ثلاث آيات مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ «١»

﴿ سورة العصر ، ثلاث آيات مكية ﴾
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والعصر ﴾ اعلم أنهم ذكروا فى تفسير العصر أقوالا :

﴿ الأول ﴾ أنه الدهر ، واحتج هذا القائل بوجوه (أحدها) ماروى عن النبى ﷺ أنه أقسم بالدهر ، وكان عليه السلام يقرأ : والعصر ونوائب الدهر إلا أنا نقول : هذا مفسد للصلاة ، فلا نقول إنه قرأه قرآناً بل تفسيراً ، ولعله تعالى لم يذكر الدهر لعلمه بأن الملحد مولع بذكره وتعظيمه ومن ذلك ذكره فى (هل أتى) رداً على فساد قولهم بالطبع والدهر (وثانيها) أن الدهر مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، بل فيه ما هو أعجب من كل عجب ، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدم ، فإنه مجزأ مقسم بالسنة ، والشهر ، واليوم ، والساعة ، ومحكوم عليه بالزيادة والنقصان والمطابقة ، وكونه ماضياً ومستقبلا ، فكيف يكون معدوماً ؟ ولا يمكنه أن يحكم عليه بالوجود لأن الحاضر غير قابل للقسمة ، والماضى والمستقبل معدومان ، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود ؟ (وثالثها) أن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت ألف سنة ، ثم تبت فى اللمحة الأخيرة من العمر بقيت فى الجنة أبد الآباد فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك فى تلك اللمحة ، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم ، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف ، وإليه الإشارة بقوله (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) (ورابعها) وهو أن قوله تعالى فى سورة الأنعام (قل لمن ما فى السموات والأرض ؟ قل لله) إشارة إلى المكان والمكانيات ، ثم قال (وله ماسكن فى الليل والنهار) وهو إشارة إلى الزمان والزمانيات ، وقد بينا هناك أن الزمان أعلى وأشرف من المكان ، فلما كان كذلك كان القسم بالعصر قسما بأشرف النصفين من ملك الله وملكوته (وخامسها) أنهم كانوا يضيفون الخسران إلى نوائب الدهر ، فكأنه تعالى أقسم على أن الدهر والعصر نعمة حاصلة لا عيب فيها ، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان (وسادسها) أنه تعالى ذكر العصر الذى بمضيه ينتقص عمرك ، فإذا لم يكن فى مقابلته

كسب صار ذلك النقصان عن الخسران ، ولذلك قال (لفي خسر) ومنه قول القائل :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

فكأن المعنى : والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه لظنه أنه وجد الربح مع أنه هدم لعمره وإنه لفي خسر (القول الثاني) وهو قول أبي مسلم : المراد بالعصر أحد طرفي النهار ، والسبب فيه وجوه (أحدها) أنه أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعاً من دلائل القدرة فإن كل بكرة كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء ويقام الموازين وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت ، وكل واحدمن هاتين الحالتين شاهد عدل ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين عد خاسراً فكذا الإنسان الغافل عنهما في خسر (وثانيها) قال الحسن رحمه الله إنما أقسم بهذا الوقت تنبيهاً على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها ، فاذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألك كل أحد ماهو حقه فحينئذ تخجل فتكون من الخاسرين ، فكذا نقول والعصر أي وعصر الدنيا قد دنت القيامة و[أنت]بعد لم تستعد وتعلم أنك تسأل غداً عن النعيم الذي كنت فيه في دنياك ، وتسأل في معاملتك مع الخلق وكل أحد من المظلومين يدعي ماعليك فإذا أنت خاسر ، ونظيره (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) ، (وثالثها) أن هذا الوقت معظم ، والدليل عليه قوله عليه السلام « من حلف بعد العصر كاذباً لايكلمه الله ولا ينظر إليه يوم القيامة » فكما أقسم في حق الرابح بالضحى فكذا أقسم في حق الخاسر بالعصر وذلك لأنه أقسم بالضحى في حق الرابح وبشر الرسول أن أمره إلى الإقبال وههنا في حق الخاسر توعده أن أمره إلى الإدبار ، ثم كأنه يقول بعض النهار باق فيحثه على التدارك في البقية بالتوبة ، وعن بعض السلف : تعلمت معنى السورة من بائع الثلج كان يصيح ويقول : ارحموا من يذوب رأس ماله ، ارحموا من يذوب رأس ماله ، فقلت هذا معنى (إن الإنسان لفي خسر) يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فاذا هو خاسر .

(القول الثالث) وهو قول مقاتل أراد صلاة العصر ، وذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أنه تعالى أقسم بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله (والصلاة الوسطى) صلاة العصر في مصحف حفصة وقيل في قوله (تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله) إنها صلاة العصر (وثانيها) قوله عليه السلام « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » (وثالثها) أن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم (ورابعها) روى أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة وتقول : دلوني على النبي ﷺ فرآها رسول الله ﷺ ، فسألها ماذا حدث ؟ قالت يارسول الله إن زوجي غاب عني فزنيت فجاءني ولد من الزنا فألقيت الولد في دن من الخل حتى مات ، ثم بعنا ذلك الخل فهل لي من توبة ؟ فقال عليه السلام أما الزنا فعليك الرجم ، وأما قتل الولد فجزاؤه جهنم ، وأما بيع الخل فقد ارتكبت كبيراً ، لكن ظننت أنك تركت صلاة

إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ «٢»

صلاة العصر » ففى هذا الحديث إشارة إلى تفخيم أمر هذه الصلاة(١) (وخامسها) أن صلاة العصر بها يحصل ختم طاعات النهار ، فهى كالتوبة بهايختم الأعمال ، فكما تجب الوصية بالتوبة كذا بصلاة العصر لأن الأمور بخواتيمها ، فأقسم بهذه الصلاة تفخيما لشأنها ، وزيادة توصية المكلف على أدائها وإشارة منه أنك إن أديتها على وجهها عاد خسرانك ربحاً ، كما قال (إلا الذين آمنوا) (وسادسها) قال النبى صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يكلمهم ولا يزكيهم -[عد]منهم- رجل حلف بعدالعصر كاذباً » (فإن قيل) صلاة العصرفعلنا ، فكيف يجوز أن يقال أقسم الله تعالى به ؟ (والجواب) أنه ليس قسما من حيث إنها فعلنا ، بل من حيث إنها أمر شريف تعبدنا الله تعالى بها .

﴿ القول الرابع ﴾ أنه قسم بزمان الرسول عليه السلام ، واحتجوا عليه بقوله عليه السلام « إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجيراً ، فقال من يعمل من الفجر إلى الظهر بقيراط ، فعملت اليهود ، ثم قال من يعمل من الظهر إلى العصر بقيراط ، فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل من العصر إلى المغرب بقراطين ، فعملتم أنتم ، فغضبت اليهود والنصارى ، وقالوا نحن أكثر عملا وأقل أجراً ! فقال الله : وهل نقصت من أجركم شيئاً ، قالوا لا ، قال فهذا فضلى أوتيه من أشاء ، فكنتم أقل عملا وأكثر أجراً » فهذا الخبر دل على أن العصر هو الزمان المختص به وبأمته ، فلاجرم أقسم الله به ، فقوله (والعصر) أى والعصر الذى أنت فيه فهو تعالى أقسم بزمانه فى هذه الآية وبمكانه فى قوله (وأنت حل بهذا البلد) وبعمره فى قوله (لعمرك) فكأنه قال : وعصرك وبلدك وعمرك ، وذلك كله كالظرف له ، فإذا وجب تعظيم حال الظرف فقس حال المظروف . ثم وجه القسم ، كأنه تعالى يقول : أنت يا محمد حضرتهم ودعوتهم . وهم أعرضوا عنك وما التفتوا إليك ، فما أعظم خسرانهم وما أجل خذلانهم .

قوله تعالى ﴿ إن الإنسان لفى خسر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الألف واللام فى الإنسان ، يحتمل أن تكون للجنس ، وأن تكون للمعهود السابق ، فلهذا ذكر المفسرون فيه قولين (الأول) أن المراد منه الجنس وهو كقولهم : كثر الدرهم فى أيدى الناس ، ويدل على هذا القول استثناء الذين آمنوا من الإنسان (والقول الثانى) المراد منه شخص معين ، قال ابن عباس : يريد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب . وقال مقاتل: نزلت فى أبى لهب ، وفى خبر مرفوع

---

(١) دلالة الحديث على أهمية صلاة العصر واضحة ، أى أن اهتمام المرأة العظيم الذي بدا بالبحث والسؤال عن رسول الله جعل الرسول يظن أنها تسأله عن أعظم الاشياء . وهو صلاة العصر لاهذه الأشياء المعلومة أحكامها من الدين ، ولعل هذه الحادثة كانت بقرب نزول سورة العصر . أو قول الرسول تبكيت للمرأة على سؤالها عن المعاصى لا عن الطاعات .

إنه أبو جهل ، روى أن هؤلاء كانوا يقولون : إن محمداً لفى خسر ، فأقسم تعالى أن الأمر بالضد مما يتوهمون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخسر الخسران ، كما قيل الكفر فى الكفران ، ومعناه النقصان وذهاب رأس المال ، ثم فيه تفسيران ، وذلك لأنا إذا حملنا الإنسان على الجنس كان معنى الخسر هلاك نفسه وعمره ، إلا المؤمن العامل فإنه ماهلك عمره وماله ، لأنه اكتسب بهما سعادة أبدية ، وإن حملنا لفظ الإنسان على الكافر كان المراد كونه فى الضلالة والكفر إلا من آمن من هؤلاء ، فحينئذ يتخلص من ذلك الخسار إلى الربح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال (لفى خسر) ولم يقل لفى الخسر ، لأن التنكير يفيد التهويل تارة والتحقير أخرى . فإن حملناه على الأول كان المعنى إن الإنسان لفى خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ، وتقريره أن الذنب يعظم بعظم من فى حقه الذنب ، أو لأنه وقع فى مقابلة النعم العظيمة ، وكلا الوجهين حاصلان فى ذنب العبد فى حق ربه ، فلا جرم كان ذلك الذنب فى غاية العظم ، وإن حملناه على الثانى كان المعنى أن خسران الإنسان دون خسران الشيطان ، وفيه بشارة أن فى خلق من هو أعصى منك ، والتأويل الصحيح هو الأول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لقائل : أن يقول قوله (لفى خسر) يفيد التوحيد . مع أنه فى أنواع من الخسر (والجواب) أن الخسر الحقيقى هو حرمانه عن خدمة ربه ، وأما البواقى وهو الحرمان عن الجنة ، والوقوع فى النار ، فبالنسبة إلى الأول كالعدم ، وهذا كما أن الإنسان فى وجوده فوائد ، ثم قال (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) أى لما كان هذا المقصود أجل المقاصد كان سائر المقاصد بالنسبة إليه كالعدم .

واعلم أن الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته تعالى فى بيان كون الإنسان فى خسر (أحدها) قوله (لفى خسر) يفيد أنه كالمغمور فى الخسران ، وأنه أحاط به من كل جانب (وثانيها) كلمة إن ، فإنها للتأكيد (وثالثها) حرف اللام فى لفى خسر ، وههنا احتمالان :

﴿ الأول ﴾ فى قوله تعالى (لفى خسر) أى فى طريق الخسر ، وهذا كقوله فى أكل أموال اليتامى : (إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) لما كانت عاقبته النار .

﴿ الاحتمال الثانى ﴾ أن الإنسان لا ينفك عن خسر ، لأن الخسر هو تضييع رأس المال ، ورأس ماله هو عمره ، وهو قلما ينفك عن تضييع عمره ، وذلك لأن كل ساعة تمر بالإنسان ، فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك فى الخسران ، وإن كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضاً حاصل ، لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر ، مع أنه كان متمكناً من أن يعمل فيه عملا يبقى أثره دائماً ، وإن كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها ، أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك ، لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية ، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية ، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر ، فكان تعظيمه

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ

عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل ، وترك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسران ، فثبت أن الإنسان لا ينفك البتة عن نوع خسران .

واعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل فى الإنسان أن يكون فى الخسران والخيبة ، وتقريره أن سعادة الإنسان فى حب الآخرة والإعراض عن الدنيا ، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية ، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة ، وهى الحواس الخمس والشهوة والغضب ، فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين فى طلبها ، فكانوا فى الخسران والبوار ، فإن قيل إنه تعالى قال فى سورة التين (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين) فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال والانتهاء إلى النقصان ، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاء إلى الكمال ، فكيف وجه الجمع ؟ قلنا المذكور فى سورة التين أحوال البدن ، وههنا أحوال النفس فلا تناقض بين القولين .

قوله تعالى ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

اعلم أن الإيمان والأعمال الصالحة قد تقدم تفسيرهما مراراً ، ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج من قال العمل غير داخل فى مسمى الإيمان ، بأن الله تعالى عطف عمل الصالحات على الإيمان ، ولو كان عمل الصالحات داخلا فى مسمى الإيمان لكان ذلك تكريراً ، ولا يمكن أن يقال هذا التكرير واقع فى القرآن ، كقوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) وقوله (وملائكته وجبريل وميكال) لأنا نقول هناك إنما حسن ، لأن إعادته تدل على كونه أشرف أنواع ذلك الكلى ، وعمل الصالحات ليس أشرف أنواع الأمور المسماة بالإيمان ، فبطل هذا التأويل . قال الحليمى : هذا التكرير واقع لا محالة ، لأن الإيمان وإن لم يشتمل على عمل الصالحات ، لكن قوله (وعملوا الصالحات) يشتمل على الإيمان ، فيكون قوله (وعملوا الصالحات) مغنياً عن ذكر قوله (الذين آمنوا) وأيضاً فقوله (وعملوا الصالحات) يشتمل على قوله (وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر) فوجب أن يكون ذلك تكريراً ، أجاب الأولون وقالوا : إنا لا نمنع ورود التكرير لأجل التأكيد ، لكن الأصل عدمه ، وهذا القدر يكفى فى الاستدلال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج القاطعون بوعيد الفساق بهذه الآية ، قالوا : الآية دلت على أن الإنسان فى الخسارة مطلقاً ، ثم استثنى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والمعلق على الشرطين مفقود عند فقد أحدهما ، فعلمنا أن من لم يحصل له الإيمان والأعمال الصالحة ، لا بد وأن يكون فى الخسار فى الدنيا وفى الآخرة ، ولما كان المستجمع لهاتين الخصلتين فى غاية القلة ، وكان الخسار

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ «٣»

لازماً لمن لم يكن مستجمعاً لها كان الناجي أقل من الهالك ، ثم لو كان الناجي أكثر كان الخوف عظيما حتى لا تكون أنت من القليل ، كيف والناجي أقل ؟ أفلا ينبغي أن يكون الخوف أشد ! .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن هذا الاستثناء فيه أمور ثلاثة (أحدها) أنه تسلية للمؤمن من فوت عمره وشبابه ، لأن العمل قد أوصله إلى ماهو خير من عمره وشبابه (وثانيها) أنه تنبيه على أن كل مادعاك إلى طاعة الله فهو الصلاح ، وكل ما شغلك عن الله بغيره فهو الفساد (وثالثها) قالت المعتزلة تسمية الأعمال بالصالحات تنبيه على أن وجه حسنها ليس هو الأمر على مايقوله الأشعرية ، لكن الأمر إنما ورد لكونها فى أنفسها مشتملة على وجوه الصلاح ، وأجابت الأشعرية بأن الله تعالى وصفها بكونها صالحة ، ولم يبين أنها صالحة بسبب وجوه عائدة إليها أو بسبب الأمر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لسائل أن يسأل ، فيقول إنه فى جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب ، وفى جانب الربح ذكر السبب ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، ولم يذكر الحكم فما الفرق ؟ (قلنا) إنه لم يذكر سبب الخسر لأن الخسر كما يحصل بالفعل ، وهو الإقدام على المعصية يحصل بالترك ، وهو عدم الإقدام على الطاعة ، أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل ، فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل ، وفيه وجه آخر ، وهو أنه تعالى فى جانب الخسر أبهم ولم يفصل ، وفى جانب الربح فصل وبين ، وهذا هو اللائق بالكرم .

أما قوله تعالى ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

فاعلم أنه تعالى لما بين فى أهل الاستثناء أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن أن يكونوا فى خسر وصاروا أرباب السعادة من حيث إنهم تمسكوا بما يؤديهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب وصفهم بعد ذلك بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضاً سبباً لطاعات الغير كما ينبغي أن يكون عليه أهل الدين وعلى هذا الوجه قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) فالتواصى بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ، والتواصى بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف فى القيام بما يجب ، وفى اجتنابهم مايحرم إذ الإقدام على المكروه ، والإحجام عن المراد كلاهما شاق شديد ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية فيها وعيد شديد ، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة ، وهى الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور وانه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه فكذلك يلزمه فى غيره أمور ، منها الدعاء إلى الدين والنصيحة والأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ، ثم كرر التواصى ليتضمن الأول الدعاء إلى الله ، والثانى الثبات عليه ، والأول الأمر بالمعروف والثانى النهى عن المنكر ، ومنه قوله (وانه عن المنكر ، واصبر) وقال عمر : رحم الله من أهدى إلى عيوبى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت الآية على أن الحق ثقيل . وأن المحن تلازمه ، فلذلك قرن به التواصى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال (وتواصوا) ولم يقل ويتواصون لئلا يقع أمراً بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم فى الماضى ، وذلك يفيد رغبتهم فى الثبات عليه فى المستقبل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ أبو عمرو (بالصبر) بشم الباء شيئاً من الجر ، لا يشبع قال أبو على ، وهذا مما يجوز فى الوقف ، ولا يكون فى الوصل إلا على إجراء الوصل مجرى الوقف ، وهذا لا يكاد يكون فى القراءة ، وعلى هذا ما يروى عن سلام بن المنذر أنه قرأ ، والعصر بكسر الصاد ولعله وقف لانقطاع نفس أو لعارض منعه من إدراج القراءة ، وعلى هذا يحمل لا على إجراء الوصل مجرى الوقف ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة الهمزة
(تسع آيات مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ «١»

﴿ سورة الهمزة تسع آيات مكية ﴾
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الويل لفظة الذم والسخط ، وهى كلمة كل مكروب يتولول فيدعو بالويل وأصله وى لفلان ثم كثرت فى كلامهم فوصلت باللام ، وروى أنه جبل فى جهنم إن قيل لم قال ههنا (ويل) وفى موضع آخر (ولكم الويل) ؟ قلنا لأن ثمة قالوا (ياويلنا إنا كنا ظالمين) فقال (ولكم الويل) وههنا نكر لأنه لا يعلم كنهه إلا الله ، وقيل فى ويل إنها كلمة تقبيح ، وويس استصغار ، وويح ترحم ، فنبه بهذا على قبح هذا الفعل ، واختلفوا فى الوعيد الذى فى هذه السورة هل يتناول كل من يتمسك بهذه الطريقة فى الأفعال الرديئة أو هو مخصوص بأقوام معينين ، أما المحققون فقالوا إنه عام لكل من يفعل هذا الفعل كائناً من كان وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ وقال آخرون إنه مختص بأناس معينين ، ثم قال عطاء والكلبى نزلت فى الأخنس بن شريق كان يلمز الناس ويغتابهم وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال مقاتل : نزلت فى الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبى صلى الله عليه وسلم من ورائه ويطعن عليه فى وجهه ، وقال محمد بن إسحق مازلنا نسمع أن هذه السورة نزلت فى أمية بن خلف ، قال الفراء وكون اللفظ عاماً لا ينافى أن يكون المراد منه شخصاً معيناً ، كما أن إنساناً لو قال لك لا أزورك أبدا فتقول أنت كل من لم يزرنى لا أزوره وأنت إنما تريده بهذه الجملة العامة(١) وهذا هو المسمى فى أصول الفقه بتخصيص العام بقرينة العرف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الهمز الكسر قال تعالى (هماز مشاء) واللمز الطعن والمراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم والطعن فيهم . قال تعالى (ولا تلمزوا أنفسكم) وبناء فعلة يدل على أن ذلك عادة منه قد ضرى بها ونحوها اللعنة والضحكة ، وقرىء (ويل لكل همزة لمزة) بسكون الميم وهى المسخرة التى تأتى بالأوابد والأضاحيك فيضحك منه ويشتم وللمفسرين ألفاظاً (أحدها) قال ابن عباس: الهمزة المغتاب ، واللمزة العياب (وثانيها) قال أبو زيد : الهمزة باليد واللمزة

---

(١) فى الأصل بهذه العامة وبالجملة هذا إلخ ،ولعل العبارة محرفة عما أصلحناه به .

الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ «٢»

باللسان (وثالثها) قال أبو العالية : الهمزة بالمواجهة واللمزة بظهر الغيب (ورابعها) الهمزة جهراً واللمزة سراً بالحاجب والعين (وخامسها) الهمزة اللمزة الذى يلقب الناس بما يكرهون وكان الوليد بن المغيرة يفعل ذلك ، لكنه لا يليق بمنصب الرياسة إنما ذلك من عادة السقاط ويدخل فيه من يحاكى الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا . وقد حكى الحكم بن العاص مشية النبى صلى الله عليه وسلم فنفاه عن المدينة ولعنه (وسادسها) قال الحسن ، الهمزة الذى يهمز جليسه يكسر عليه عينه واللمزة الذى يذكر أخاه بالسوء ويعيبه (وسابعها) عن أبى الجوزاء قال قلت لابن عباس (ويل لكل همزة لمزة) من هؤلاء الذين يذمهم الله بالويل فقال هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الناعتون للناس بالعيب .

واعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب ، ثم هذا على قسمين فإنه إما أن يكون بالجد كما يكون عند الحسد والحقد ، وإما أن يكون بالهزل كما يكون عند السخرية والإضحاك ، وكل واحد من القسمين ، إما أن يكون فى أمر يتعلق بالدين ، وهو ما يتعلق بالصورة أو المشى ، أو الجلوس وأنواعه كثيرة وهى غير مضبوطة ، ثم إظهار العيب فى هذه الأقسام الأربعة قد يكون لحاضر ، وقد يكون لغائب ، وعلى التقديرين فقد يكون باللفظ ، وقد يكون بإشارة الرأس والعين وغيرهما ، وكل ذلك داخل تحت النهى والزجر ، إنما البحث فى أن اللفظ بحسب اللغة موضوع لماذا ، فما كان اللفظ موضوعاً له كان منهياً بحسب اللفظ ، وما لم يكن اللفظ موضوعاً له كان داخلا تحت النهى بحسب القياس الجلى ، ولما كان الرسول أعظم الناس منصباً فى الدين كان الطعن فيه عظيما عند الله ، فلا جرم قال (ويل لكل همزة لمزة) .

ثم قال تعالى ﴿ الذى جمع مالا وعدده ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (الذى) بدل من كل أو نصب على الذم ، وإنما وصفه الله تعالى بهذا الوصف لأنه يجرى مجرى السبب والعلة فى الهمز واللمز وهو إعجابه بما جمع من المال ، وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستنقص غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ حمزة والكسائى وابن عامر جمع بالتشديد والباقون بالتخفيف والمعنى فى جمع وجمع واحد متقارب ، والفرق أن (جمع) بالتشديد يفيد أنه جمعه من ههنا وههنا ، وأنه لم يجمعه فى يوم واحد ، ولا فى يومين ، ولا فى شهر ولا فى شهرين ، يقال فلان يجمع الأموال أى يجمعها من ههنا وههنا ، وأما جمع بالتخفيف ، فلا يفيد ذلك ، وأما قوله (مالا) فالتنكير فيه يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال المال اسم لكل ما فى الدنيا كما قال (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) فمال الإنسان الواحد بالنسبة إلى مال كل الدنيا حقير . فكيف يليق به أن يفتخر بذلك

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ «٣» كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ «٤»

القليل (والثانى) أن يكون المراد منه التعظيم أى مال بلغ فى الخبث والفساد أقصى النهايات . فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر به ؟ أما قوله (وعدده) ففيه وجوه أحدها أنه مأخوذ من العدة وهى الذخيرة يقال أعددت الشىء لكذا وعددته إذا أمسكته له وجعلته عدة وذخيرة لحوادث الدهر (وثانيها) عدده أى أحصاه وجاء التشديد لكثرة المعدود كما يقال فلان يعدد فضائل فلان ، ولهذا قال السدى وعدده أى أحصاه يقول هذا لى وهذا لى يلهيه ماله بالنهار فاذا جاء الليل كان يخفيه (وثالثها) عدده أى كثره يقال فى بنى فلان عدد أى كثرة ، وهذان القولان الأخيران راجعان إلى معنى العدد ، والقول الثالث إلى معنى العدة ، وقرأ بعضهم وعدده بالتخفيف وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون المعنى جمع المال وضبط عدده وأحصاه (وثانيهما) جمع ماله وعدد قومه الذين ينصرونه من قولك فلان ذو عدد وعدد إذا كان له عدد وافر من الأنصار والرجل متى كان كذلك كان أدخل فى التفاخر .

ثم وصفه تعالى بضرب آخر من الجهل فقال ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ .

واعلم أن أخلده وخلده بمعنى واحد ثم فى التفسير وجوه (أحدها) يحتمل أن يكون المعنى طول المال أمله ، حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله ، يحسب أن ماله تركه خالداً فى الدنيا لايموت وإنما قال (أخلده) ولم يقل يخلده لأن المراد يحسب هذا الإنسان أن المال ضمن له الخلود وأعطاه الأمان من الموت وكأنه حكم قد فرغ منه ، ولذلك ذكره على الماضى . وقال الحسن : مارأيت يقيناً لاشك فيه أشبه بشك لايقين فيه كالموت (وثانيها) يعمل الأعمال المحكمة كتشييد البنيان بالآجر والجص ، عمل من يظن أنه يبقى حياً أولأجل أن يذكر بسببه بعد الموت (وثالثها) أحب المال حباً شديداً حتى اعتقد أنه : إن انتقص مالى أموت . فلذلك يحفظه من النقصان ليبقى حياً . وهذا غير بعيد من اعتقاد البخيل (ورابعها) أن هذا تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذى يخلد صاحبه فى الدنيا بالذكر الجميل وفى الآخرة فى النعيم المقيم .

أما قوله تعالى ﴿ كلا ﴾ ففيه وجهان (أحدهما) أنه ردع له عن حسبانه أى ليس الأمر كما يظن أن المال يخلده بل العلم والصلاح ، ومنه قول على عليه السلام : مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون مابقى الدهر ، والقول الثانى معناه حقاً (لينبذن) واللام فى (لينبذن) جواب القسم المقدر فدل ذلك على حصول معنى القسم فى كلا .

أما قوله تعالى ﴿ لينبذن فى الحطمة . وما أدراك ما الحطمة ﴾ فانما ذكره بلفظ النبذ الدال على الإهانة ، لأن الكافر كان يعتقد أنه من أهل الكرامة ، وقرىء لينبذان أى هو وماله ولينبذن بضم الذال أى هو وأنصاره ، وأما (الحطمة) فقال المبرد إنها النار التى تحطم كل من وقع

وَمَا أَدْرَيكَ مَا الْحُطَمَةُ «٥» نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ «٦» الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ «٧» إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ «٨»

فيها ورجل حطمة أى شديد الأكل يأتى على زاد القوم ، وأصل الحطم فى اللغة الكسر ، ويقال شر الرعاء الحطمة ، يقال راع حطمة وحطم بغير هاء كأنه يحطم الماشية أى يكسرها عند سوقها لعنفه ، قال المفسرون الحطمة اسم من أسماء النار وهى الدركة الثانية من دركات النار ، وقال مقاتل : هى تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب ، وروى على النبى ﷺ أنه قال « إن الملك ليأخذ الكافر فيكسره على صلبه كما توضع الخشبة على الركبة فتكسر ثم يرمى به فى النار » .

واعلم أن الفائدة فى ذكر جهنم بهذا الاسم ههنا وجوه : (أحدها) الاتحاد فى الصورة كأنه تعالى يقول : ان كنت همزة لمزة فوراءك الحطمة (والثانى) أن الهامز بكسر عين ليضع قدره فيلقيه فى الحضيض فيقول تعالى وراءك الحطمة ، وفى الحطم كسر فالحطمة تكسرك وتلقيك فى حضيض جهنم لكن الهمزة ليس إلا الكسر بالحاجب ، أما الحطمة فإنها تكسر كسراً لا تبقى ولا تذر (الثالث) أن الهماز اللماز يأكل لحم الناس والحطمة أيضاً اسم للنار من حيث إنها تأكل الجلد واللحم ، ويمكن أن يقال ذكر وصفين الهمز واللمز ، ثم قابلهما باسم واحد وقال خذ واحداً منى بالإثنين منك فإنه يفى ويكفى ، فكأن السائل يقول كيف يفى الواحد بالاثنين ؟ فقال إنما تقول هذا لأنك لا تعرف هذا الواحد فلذلك قال (وما أدراك ما الحطمة) .

أما قوله تعالى ﴿ نار الله ﴾ فالإضافة للتفخيم أى هى نار لا كسائر النيران ﴿ الموقدة ﴾ التى لا تخمد أبداً أو (الموقدة) بأمره أو بقدرته ومنه قول على عليه السلام : عجباً ممن يعصى الله على وجه الأرض والنار تسعر من تحته ، وفى الحديث « أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ، ثم ألف سنة حتى ابيضت ، ثم ألف سنة حتى اسودت فهى الآن سوداء مظلمة » .

أما قوله تعالى ﴿ التى تطلع على الأفئدة ﴾ . فاعلم أنه يقال طلع الجبل واطلع عليه إذا علاه ، ثم فى تفسير الآية وجهان : (الأول) أن النار تدخل فى أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم ، ولا شىء فى بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألماً منه بأدنى أذى يماسه ، فكيف إذا اطلعت نار جهنم واستولت عليه . ثم إن الفؤاد مع استيلاء النار عليه لا يحترق إذ لو احترق لمات ، وهذا هو المراد من قوله (لا يموت فيها ولا يحيى) ومعنى الاطلاع هو أن النار تنزل من اللحم إلى الفؤاد (والثانى) أن سبب تخصيص الأفئدة بذلك هو أنها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة ، واعلم أنه روى عن النبى ﷺ أن النار تأكل أهلها حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت ، ثم إن الله تعالى يعيد لحمهم وعظمهم مرة أخرى .

أما قوله تعالى ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ فقال الحسن (مؤصدة) أى مطبقة من أصدت الباب

في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ «٩»

وأوصدته لغتان ، ولم يقل مطبقة لأن المؤصدة هى الأبواب المغلقة ، والإطباق لا يفيد معنى الباب .

واعلم أن الآية تفيد المبالغة فى العذاب من وجوه (أحدها) أن قوله (لينبذن) يقتضى أنه موضع له قعر عميق جداً كالبئر (وثانيها) أنه لو شاء يجعل ذلك الموضع بحيث لا يكون له باب لكنه بالباب يذكرهم الخروج ، فيزيد فى حسرتهم (وثالثها) أنه قال (عليهم مؤصدة) ولم يقل مؤصدة عليهم ، لأن قوله (عليهم مؤصدة) يفيد أن المقصود أولا كونهم بهذه الحالة ، وقوله مؤصدة عليهم لا يفيد هذا المعنى بالقصد الأول .

أما قوله تعالى ﴿ فى عمد ممددة ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء فى عمد بضمتين ، وعمد بسكون الميم وعمد بفتحتين ، قال الفراء : عمد وعمد وعمد مثل الأديم والإدم والأدم والإهاب والأهب والأهب ، والعقيم والعقم والعقم وقال المبرد وأبو على : العمد جمع عمود على غير واحد ، أما الجمع على واحد فهو العمد مثل زبور وزبر ورسول ورسل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ العمود كل مستطيل من خشب أو حديد ، وهو أصل للبناء ، يقال عمود البيت للذى يقوم به البيت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى تفسير الآية وجهان (الأول) أنها عمد أغلقت بها تلك الأبواب كنحو ما تغلق به الدروب ، وفى بمعنى الباء أى أنها عليهم مؤصدة بعمد مدت عليها ، ولم يقل بعمد لأنها لكثرتها صارت كأن الباب فيها (والقول الثانى) أن يكون المعنى (إنها عليهم مؤصدة) حال كونهم موثقين (فى عمد ممدة) مثل المقاطر التى تقطر فيها اللصوص ، اللهم أجرنا منها يا أكرم الأكرمين.

سورة الفيل

(خمس آيات مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ ٱلْفِيلِ «١»

﴿ سورة الفيل ، خمس آيات مكية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .

روى أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج من بنى كنانة رجل وتغوط فيها ليلا فأغضبه ذلك . وقيل أججت رفقة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهدمن الكعبة فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود وكان قوياً عظيما . وثمانية أخرى ، وقيل إثنا عشر ، وقيل ألف ، فلما بلغ قريباً من مكة خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشه ، وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه إلى جهة الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول ، ثم إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتى بعير فخرج إليهم فيها فعظم فى عين أبرهة وكان رجلا جسيما وسيما ، وقيل هذا سيد قريش ، وصاحب عير مكة فلما ذكر حاجته ، قال سقطت من عينى جئت لأهدم البيت الذى هو دينك ودين آبائك فألهاك عنه ذود أخذ لك ، فقال أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعك عنه ، ثم رجع وأتى البيت وأخذ بحلقته وهو يقول :

لاهم إن المرء يمـ ـنع حله فامنع حلالك(١)
وانصر على آل الصليـ ـب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك(٢)
إن كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فأمر ما بدالك

ويقول : يارب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع عنهم حماكا

فالتفت وهو يدعو ، فإذا هو بطير من نحو اليمن ، فقال والله إنها لطير غريبة ما هى بنجدية ولا

---

(١) يروى : لا هم إن المرء يمـ نع رحله فامنع رحالك

(٢) الرواية الجيدة : لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك

تهامية ، وكان مع كل طائر حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة . وعن ابن عباس أنه رأى منها عند أم هانىء نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفارى ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه فهلكوا فى كل طريق ومنهل ، ودوى أبرهة فتساقطت أنامله ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه ، حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة . فلما أتمها وقع عليه الحجر وخر ميتاً بين يديه ، وعن عائشة قالت «رأيت قائد الفيل» وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان ، ثم فى الآية سؤالات :

﴿الأول﴾ لم قال (ألم تر) مع أن هذه الواقعة وقعت قبل المبعث بزمان طويل ؟ (الجواب) المراد من الرؤيه العلم والتذكير ، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر فكان العلم الحاصل به ضرورياً مساوياً فى القوة والجلاء للرؤية ، ولهذا السبب قال لغيره على سبيل الذم (أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) لا يقال : فلم قال (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير) لأنا نقول : الفرق أن ما لا يتصور إدراكه لا يستعمل فيه إلا العلم لكونه قادراً ، وأما الذى يتصور إدراكه كفرار الفيل ، فإنه يجوز أن يستعمل فيه الرؤية .

﴿السؤال الثانى﴾ لم قال (ألم تر كيف فعل ربك) ولم يقل ألم تر مافعل ربك ؟ (الجواب) لأن الأشياء لها ذوات ، ولها كيفيات باعتبارها يدل على مداومتها وهذه الكيفية هى التى يسميها المتكلمون وجه الدليل ، واستحقاق المدح إنما يحصل برؤية هذه الكيفيات لا برؤية الذوات . ولهذا قال (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، وكانت دالة على شرف محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيساً لنبوتهم وإرهاصاً لها ، ولذلك قالوا : كانت الغمامة تظله ، وعند المعتزلة ، أن ذلك لا يجوز ، فلا جرم زعموا أنه لابد وأن يقال كان فى ذلك الزمان نبى [أو خطيب] كخالد بن سنان أوقس بن ساعدة ، ثم قالوا ولا يجب أن يشتهر وجودهما ،ويبلغ إلى حد التواتر ، لاحتمال أنه كان مبعوثاً إلى جمع قليلين ، فلا جرم لم يشتهر خبره .

واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جداً ، لأنهم ذكروا فى الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التى عذب الله تعالى بها الأمم أعذاراً ضعيفة ، أما هذه الواقعة فلا تجرى فيها تلك الأعذار ، لأنها ليس فى شىء من الطبائع والحيل أن يقبل طير معها حجارة ، فتقصد قوماً دون قوم فتقتلهم ، ولا يمكن أن يقال إنه كسائر الأحاديث الضعيفة لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة(١) ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقى بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة ، ولو كان النقل ضعيفاً لشافهوه بالتكذيب ، فلما لم يكن كذلك علمنا أنه لا سبب للطعن فيه .

(١) كيف يقول : إلا نيف وأربعون ، والرسول ولد عام الفيل فلا معنى لذكر النيف .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال (فعل) ولم يقل جعل ولا خلق ولا عمل ؟ (الجواب) لأن خلق يستعمل لابتداء الفعل ، وجعل للكيفيات قال تعالى (خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) وعمل بعد الطلب وفعل عام فكان أولى لأنه تعالى خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه ، وسألوه أن يحفظ البيت ، ولعله كان فيهم من يستحق الإجابة ، فلو ذكر الألفاظ الثلاثة لطال الكلام فذكر لفظاً يشمل الكل .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم قال ربك ، ولم يقل الرب ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) كأنه تعالى قال إنهم لما شاهدوا هذا الانتقام ثم لم يتركوا عبادة الأوثان ، وأنت يا محمد ما شاهدته ثم اعترفت بالشكر والطاعة . فكأنك أنت الذى رأيت ذلك الانتقام ، فلاجرم تبرأت عنهم واخترتك من الكل . فأقول ربك ، أى أنا لك ولست لهم بل عليهم (وثانيها) كأنه تعالى قال : إنما فعلت بأصحاب الفيل ذلك تعظيما لك وتشريفاً لمقدمك ، فأنا كنت مربياً لك قبل قومك ، فكيف أترك تربيتك بعد ظهورك ، ففيه بشارة له عليه السلام بأنه سيظفر .

﴿ السؤال الخامس ﴾ قوله (ألم تر كيف فعل ربك) مذكور فى معرض التعجب وهذه الأشياء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى ليست عجيبة ، فما السبب لهذا التعجب ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أن الكعبة تبع لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن العلم يؤدى بدون المسجد أما لا مسجد بدون العالم فالعالم هو الدر والمسجد هو الصدف . ثم الرسول الذى هو الدر همزه الوليد ولمزه حتى ضاق قلبه . فكأنه تعالى يقول إن الملك العظيم لما طعن فى المسجد هزمته وأفنيته ، فمن طعن فيك وأنت المقصود من الكل ألا أفنيه وأعدمه ! إن هذا لعجيب (وثانيها) أن الكعبة قبلة صلاتك وقلبك قبلة معرفتك ، ثم أنا حفظت قبلة عملك عن الأعداء . أفلا نسعى فى حفظ قبلة دينك عن الآثام والمعاصى ! .

﴿ السؤال السادس ﴾ لم قال (أصحاب الفيل) ولم يقل أرباب الفيل أو ملاك الفيل؟ (الجواب) لأن الصاحب يكون من الجنس . فقوله (أصحاب الفيل) يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل فى البهيمية وعدم الفهم والعقل . بل فيه دقيقة ، وهى : أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين ، فيقال للأدون إنه صاحب الأعلى ، ولا يقال للأعلى إنه صاحب الأدون ، ولذلك يقال لمن صحب الرسول عليه السلام إنهم الصحابة . فقوله (أصحاب الفيل) يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حالا وأدون منزلة من الفيل ، وهو المراد من قوله تعالى (بل هم أضل) ومما يؤكد ذلك أنهم كلما وجهوا الفيل إلى جانب الكعبة كان يتحول عنه ويفرعنه . كأنه كان يقول لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق عزمى حميد فلا أتركه(١) وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة الردية ، فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالا منهم .

---

(١) هذا حكاية لسان حال الفيل والعزم بمعنى العزيمة. يقال بين عزمه وعزيمتهم .

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ «٢» وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ «٣»

﴿السؤال السابع﴾ أليس أن كفار قريش كانوا ملأوا الكعبة من الأوثان من قديم الدهر ، ولا شك أن ذلك كان أقبح من تخريب جدران الكعبة ، فلم سلط الله العذاب على من قصد التخريب ، ولم يسلط العذاب على من ملأها من الأوثان ؟ (والجواب) لأن وضع الأوثان فيها تعد على حق الله تعالى ، وتخريبها تعد على حق الخلق . ونظيره قاطع الطريق ، والباغى والقاتل يقتلون مع أنهم مسلمون ، ولا يقتل الشيخ الكبير والأعمى وصاحب الصومعة والمرأة ، وإن كانوا كفار ، لأنه لا يتعدى ضررهم إلى الخلق .

﴿ السؤال الثامن ﴾ كيف القول فى إعراب هذه الآية ؟ (الجواب) قال الزجاج : كيف فى موضع نصب بفعل لا بقوله (ألم تر) لأن كيف من حروف الاستفهام .

واعلم أنه تعالى ذكر ما فعل بهم ، فقال ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية ، إن قيل فلم سماه كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ قلنا نعم ، لكن الذى كان فى قلبه شر مما أظهر ، لأنه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته .

﴿المسألة الثانية﴾ قالت المعتزلة : إضافة الكيد إليهم دليل على أنه تعالى لا يرضى بالقبيح ، إذ لو رضى لأضافه إلى ذاته، كقوله (الصوم لى) (والجواب) أنه ثبت فى علم النحو أنه يكفى فى حسن الإضافة أدنى سبب ، فلم لا يكفى فى حسن هذه الإضافة وقوعه مطابقاً لإرادتهم واختيارهم ؟ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾(فى تضليل) أى فى تضييع وإبطال يقال ضلل كيده إذا جعله ضالا ضائعاً ونظيره قوله تعالى (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) وقيل لامرىء القيس : الملك الضليل ، لأنه ضلل ملك أبيه أى ضيعه . بمعنى أنهم كادوا البيت أولا ببناء القليس وأرادوا أن يفتتحوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه ، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه ، ثم كادوه ثانياً بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم ، ومعنى حرف الظرف كما يقال سعى فلان فى ضلال ، أى سعيهم كان قد ظهر لكل عاقل أنه كان ضلالا وخطأ .

ثم قال تعالى ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ وفيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال (طيراً) على التنكير ؟ (الجواب) إما للتحقير فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو للتفخيم كأنه يقول طيراً وأى طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطىء المقتل .

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ «٤»

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الأبابيل ؟ (الجواب) أما أهل اللغة قال أبو عبيدة أبابيل جماعة فى تفرقة ، يقال جاءت الخيل أبابيل أبابيل من ههنا وههنا ، وهل لهذه اللفظة واحد أم لا ؟ فيه قولان (الأول) وهو قول الأخفش والفراء أنه لا واحد لها وهو مثل الشماطيط والعباديد ، لا واحد لها (والثانى) أنه له واحد ، ثم على هذا القول ذكروا ثلاثة أوجه (أحدها) زعم أبو جعفر الرؤاسى وكان ثقة مأموناً أنه سمع واحدها إبالة ، وفى أمثالهم : ضغث على إبالة ، وهى الحزمة الكبيرة سميت الجماعة من الطير فى نظامها بالإبالة (وثانيها) قال الكسائى كنت أسمع النحويين يقولون إبول وأبابيل كعجول وعجاجيل (وثالثها) قال الفراء ولو قال قائل واحد الأبابيل إيبالة كان صواباً كما قال : دينار ودنانير .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ماصفة تلك الطير ؟ (الجواب) روى ابن سيرين عن ابن عباس قال كانت طيراً لها خراطيم كخراطيم الفيل وأكف كأكف الكلاب ، وروى عطاء عنه قال طير سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا . ولعل السبب أنها أرسلت إلى قوم كان فى صورتهم سواد اللون وفى سرهم سواد الكفر والمعصية ، وعن سعيد بن جبير أنها بيض صغار ولعل السبب أن ظلمة الكفر انهزمت بها ، والبياض ضد السواد ، وقيل كانت خضراً ولها رءوس مثل رءوس السباع ، وأقول إنها لما كانت أفواجا ، فلعل كل فوج منها كان على شكل آخر فكل أحد وصف مارأى ، وقيل كانت بلقاء كالخطاطيف .

ثم قال تعالى ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو حيوة : يرميهم أى الله أو الطير لأنه اسم جمع مذكر ، وإنما يؤنث على المعنى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى كيفية الرمى وجوهاً (أحدها) قال مقاتل : كان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار ، واحد فى منقاره واثنان فى رجليه يقتل كل واحد رجلا ، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ما وقع منها حجر على موضع إلا خرج من الجانب الآخر ، وإن وقع على رأسه خرج من دبره (وثانيها) روى عكرمة عن ابن عباس . قال لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدرى ، وهو قول سعيد بن جبير ، وكانت تلك الأحجار أصغرها مثل العدسة ، وأكبرها مثل الحمصة .

واعلم أن من الناس من أنكر ذلك . وقال لو جوزنا أن يكون فى الحجارة التى تكون مثل العدسة من الثقل مايقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله ، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل وأن يكون فى وزن التبنة ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات ، فإنه متى

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ «٥»

جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ولا نراها ، وأن يحصل الإدراك فى عين الضرير حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة فى الأندلس ، وكل ذلك محال . واعلم أن ذلك جائز على مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا فى السجيل وجوهاً (أحدها) أن السجيل كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجيناً علم لديوان أعمالهم ، كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون ، واشتقاقه من الإسجال ، وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وإنما سمى ذلك الكتاب بهذا الإسم لأنه كتب فيه العذاب ، والعذاب موصوف بالإرسال لقوله تعالى (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) وقوله (فأرسلنا عليهم الطوفان) فقوله (من سجيل) أى مما كتبه الله فى ذلك الكتاب (وثانيها) قال ابن عباس سجيل معناه سنك وكل ، يعنى بعضه حجر وبعضه طين (وثالثها) قال أبو عبيدة السجيل الشديد (ورابعها) السجيل اسم لسماء الدنيا (وخامسها) السجيل حجارة من جهنم ، فإن سجيل اسم من أسماء جهنم فأبدلت النون باللام .

أما قوله تعالى ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى تفسير العصف وجوهاً ذكرناها فى قوله (والحب ذو العصف) وذكروا ههنا وجوهاً : (أحدها) أنه ورق الزرع الذى يبقى فى الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشى (وثانيها) قال أبو مسلم العصف التبن لقوله (ذو العصف والريحان) لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب ، وهو إذا كان مأكولا فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه (وثالثها) قال الفراء هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبل (ورابعها) هو الحب الذى أكل لبه وبقى قشره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى تفسير المأكول وجوهاً (أحدها) أنه الذى أكل ، وعلى هذا الوجه ففيه احتمالان :

﴿ أحدهما ﴾ أن يكون المعنى كزرع وتبن قد أكلته الدواب ، ثم ألقته روثاً ، ثم يجف وتتفرق أجزاؤه ، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ، إلا أن العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن ، كقوله (كانا يأكلان الطعام) وهو قول مقاتل ، وقتادة وعطاء عن ابن عباس .

﴿ والاحتمال الثانى ﴾ على هذا الوجه أن يكون التشبيه واقعاً بورق الزرع إذا وقع فيه الأكال ، وهو أن يأكله الدود (الوجه الثانى) فى تفسير قوله (مأكول) هو أنه جعلهم كزرع قد أكل حبه وبقى تبنه ، وعلى هذا التقدير يكون المعنى : كعصف مأكول الحب . كما يقال فلان حسن أى حسن الوجه ، فأجرى مأكول على العصف من أجل أنه أكل حبه لأن هذا المعنى معلوم ، وهذا

قول الحسن (الوجه الثالث) فى التفسير أن يكون معنى (مأكول) أنه مما يؤكل ، يعنى تأكله الدواب يقال لكل شىء يصلح للأكل هو مأكول والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب وهو قول عكرمة والضحاك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعضهم : إن الحجاج خرب الكعبة ، ولم يحدث شىء من ذلك ، فدل على أن قصة الفيل ما كانت على هذا الوجه وإن كانت هكذا إلا أن السبب لتلك الواقعة أمر آخر سوى تعظيم الكعبة (والجواب) أنا بينا أن ذلك وقع إرهاصاً لأمر محمد ﷺ ، والإرهاص إنما يحتاج إليه قبل قدومه ، أما بعد قدومه وتأكد نبوته بالدلائل القاطعة فلا حاجة إلى شىء من ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(ســورة قريش)

(وهى أربع آيات مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ «١» إِيلَافِهِمْ «٢»

﴿ سورة قريش وهى أربع آيات مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ لإيلاف قريش إيلافهم ﴾ اعلم أن ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اللام فى قوله (لإيلاف) تحتمل وجوهاً ثلاثة ، فإنها إما أن تكون متعلقة بالسورة التى قبلها أو بالآية التى بعدها ، أو لا تكون متعلقة لا بما قبلها ، ولا بما بعدها (أما الوجه الأول) وهو أن تكون متعلقة بما قبلها ، ففيه احتمالات :

﴿ الأول ﴾ وهو قول الزجاج وأبى عبيدة أن التقدير (فجعلهم كعصف مأكول) لإلف قريش أى أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش ، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف ، فإن قيل : هذا ضعيف لأنهم إنما جعلوا (كعصف مأكول) لكفرهم ولم يجعلوا كذلك لتأليف قريش ، قلنا هذا السؤال ضعيف لوجوه (أحدها) أنا لا نسلم أن الله تعالى إنما فعل بهم ذلك لكفرهم ، فإن الجزاء على الكفر مؤخر للقيامة ، قال تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) وقال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة) ولأنه تعالى لو فعل بهم ذلك لكفرهم ، لكان قد فعل ذلك بجميع الكفار ، بل إنما فعل ذلك بهم (لإيلاف قريش) ولتعظيم منصبهم وإظهار قدرهم (وثانيها) هب أن زجرهم عن الكفر مقصود لكن لا ينافى كون شىء آخر مقصوداً حتى يكون الحكم واقعاً بمجموع الأمرين معاً (وثالثها) هب أنهم أهلكوا لكفرهم فقط ، إلا أن ذلك الإهلاك لما أدى إلى إيلاف قريش ، جاز أن يقال أهلكوا لإيلاف قريش ، كقوله تعالى (ليكون لهم عدواً وحزناً) وهم لم يلتقطوه لذلك ، لكن لما آل الأمر إليه حسن أن يمهد عليه الالتقاط .

﴿ الاحتمال الثانى ﴾ أن يكون التقدير (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، لإيلاف قريش) كأنه تعالى قال كل مافعلنا بهم فقدفعلناه ، لإيلاف قريش ، فإنه تعالى جعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، حتى صاروا كعصف مأكول ، فكل ذلك إنما كان لأجل إيلاف قريش .

﴿ الاحتمال الثالث ﴾ أن تكون اللام فى قوله (لايلاف) بمعنى إلى كأنه قال فعلنا كل مافعلنا فى السورة المتقدمة إلى نعمة أخرى عليهم وهى إيلافهم (رحلة الشتاء والصيف) تقول نعمة الله نعمة ونعمة لنعمة سواء فى المعنى ، هذا قول الفراء ، فهذه احتمالات ثلاثة توجهت على تقدير تعليق اللام بالسورة التى قبل هذه ، وبقى من مباحث هذا القول أمران :

﴿ الأول ﴾ أن للناس فى تعليق هذه اللام بالسورة المتقدمة قولين : (أحدهما) أن جعلوا السورتين سورة واحد واحتجوا عليه بوجوه : (أحدها) أن السورتين لابد وأن تكون كل واحدة منهما مستقلة بنفسها ، ومطلع هذه السورة لما كان متعلقاً بالسورة المتقدمة وجب أن لا تكون سورة مستقلة (وثانيها) أن أبى بن كعب جعلهما فى مصحفه سورة واحدة (وثالثها) ماروى أن عمر قرأ فى صلاة المغرب فى الركعة الأولى والتين ، وفى الثانية ألم تر ولإيلاف قريش معاً ، من غير فصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم : (القول الثانى) وهو المشهور المستفيض أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل ، وأما تعلق أول هذه السورة بما قبلها فليس بحجة على ماقالوه ، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضاً ويبين بعضها معنى بعض ، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة ، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو عند من يقول به ، وقوله (إنا أنزلناه) متعلق بما قبله من ذكر القرآن ، وأما قوله إن أبياً لم يفصل بينهما فهو معارض بإطباق الكل على الفصل بينهما ، وأما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين .

﴿ البحث الثانى ﴾ فيما يتعلق بهذا القول بيان أنه لم صار مافعله الله بأصحاب الفيل سبباً لإيلاف قريش ؟ فنقول لاشك أن مكة كانت خالية عن الزرع والضرع على ما قال تعالى (بواد غير ذى زرع) إلى قوله (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات) فكان أشراف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين ، ويأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب ، وهم إنما كانوا يربحون فى أسفارهم ، لأن ملوك النواحى كانوا يعظمون أهل مكة ، ويقولون : هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة حتى أنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله ، فلوتم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة ، لزال عنهم هذا العز ولبطلت تلك المزايا فى التعظيم والاحترام ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحى يتخطفون من كل جانب ويتعرض لهم فى نفوسهم وأموالهم ، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم فى نحرهم ازداد وقع أهل مكة فى القلوب ، وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم فازدادت تلك المنافع والمتاجر ، فلهذا قال الله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) (لإيلاف قريش ... رحلة[1] الشتاء والصيف) .

(والوجه الثانى) فيما يدل على صحة هذا القول أن قوله تعالى فى آخر هذه السورة (فليعبدوا رب

(١) فى الأصل : رحلتى الشتاء . ولعلها قراءة ولكن قراءة المشهورة رحلة بالافراد لا بالتثنية . وهو مفرد مضاف فيعم الواحد والاثنين .

هذا البيت الذى) إشارة إلى أول سورة الفيل ، كأنه قال : فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى قصده أصحاب الفيل ، ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم لأجل إيلافكم ونفعكم لأن الأمر بالعبادة إنما يحسن مرتباً على إيصال المنفعة ، فهذا يدل على تعلق أول هذه السورة بالسورة المتقدمة .

﴿ القول الثانى ﴾ وهو أن اللام فى (لإيلاف) متعلقة بقوله (فليعبدوا) وهو قول الخليل وسيبويه والتقدير : فليعبدوا رب هذا البيت ، لإيلاف قريش . أى ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة واعترافاً بها ، فإن قيل فلم دخلت الفاء فى قوله (فليعبدوا) ؟ قلنا لما فى الكلام من معنى الشرط ، وذلك لأن نعم الله عليهم لا تحصى ، فكأنه قيل إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التى هى نعمة ظاهرة .

﴿ القول الثالث ﴾ أن تكون هذه اللام غير متعلقة ، لا بما قبلها ولا بما بعدها ، قال الزجاج : قال قوم هذه اللام لام التعجب ، كأن المعنى : اعجبوا لإيلاف قريش ، وذلك لأنهم كل يوم يزدادون غياً وجهلا وانغماساً فى عبادة الأوثان ، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم ، وينظم أسباب معايشهم ، وذلك لا شك أنه فى غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه، ونظيره فى اللغة قولك لزيد وما صنعنا به . ولزيد وكرامتنا إياه . وهذا اختيار الكسائى والأخفش والفراء .

﴿المسألة الثانية﴾ ذكروا فى الإيلاف ثلاثة أوجه (أحدها) أن الإيلاف هو الإلف قال علماء اللغة ألفت الشىء وألفته إلفاً وإلافاً وإيلافاً بمعنى واحد . أى لزمته فيكون المعنى لإلف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولا تنقطعا ، وقرأ أبو جعفر : لإلف قريش . وقرأ الآخرون لإلاف قريش ، وقرأ عكرمة ليلاف قريش (وثانيها) أن يكون هذا من قولك لزمت موضع كذا وألزمنيه الله ، كذا تقول ألفت كذا ، وألفنيه الله ويكون المعنى إثبات الألفة بالتدبير الذى فيه لطف ألف بنفسه إلفاً وآلفه غيره إيلافاً ، والمعنى أن هذه الألفة إنما حصلت فى قريش بتدبير الله وهو كقوله (ولكن الله ألف بينهم) وقال (وألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) وقد تكون المسرة سبباً للمؤانسة والاتفاق ، كما وقعت عند انهزام أصحاب الفيل لقريش ، فيكون المصدر ههنا مضافاً إلى المفعول ، ويكون المعنى لأجل أن يجعل الله قريشاً ملازمين لرحلتيهم (وثالثها) أن يكون الإيلاف هو التهيئة والتجهيز وهو قول الفراء وابن الأعرابى . فيكون المصدر على هذا القول مضافاً إلى الفاعل ، والمعنى لتجهيز قريش رحلتيها حتى تتصلا ولا تنقطعا ، وقرأ أبو جعفر ليلاف بغير همز لحذف همزة الإفعال حذفاً كلياً وهو كمذهبه فى يستهزئون وقد مر تقريره .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ التكرير فى قوله (لإيلاف قريش إيلافهم) هو أنه أطلق الإيلاف أولا ثم جعل المقيد بدلا لذلك المطلق تفخيما لأمر الإيلاف وتذكيراً لعظيم المنة فيه ، والأقرب أن يكون قوله (لإيلاف قريش) عاماً يجمع كل مؤانسة وموافقة كان بينهم ، فيدخل فيه مقامهم

رِحْلَةَ ٱلشِّتَاءِ وَٱلصَّيْفِ «٢»

وسيرهم وجميع أحوالهم ، ثم خص إيلاف الرحلتين بالذكر لسبب أنه قوام معاشهم كما فى قوله (وجبريل وميكال) وفائدة ترك واو العطف التنبيه على أنه كل النعمة ، تقول العرب : ألفت كذا أى لزمته ، والإلزام ضربان إلزام بالتكليف والأمر ، وإلزام بالمودة والمؤانسة فإنه إذا أحب المرء شيئاً لزمه ، ومنه (ألزمهم كلمة التقوى) كما أن الإلجاء ضربان (أحدهما) لدفع الضرر كالهرب من السبع (والثانى) لطلب النفع العظيم ، كمن يجد مالا عظيما ولا مانع من أخذه لا عقلا ولا شرعا ولا حساً فإنه يكون كالملجأ إلى الأخذ ، وكذا الدواعى التى تكون دون الإلجاء ، مرة تكون لدفع الضرر وأخرى لجلب النفع ، وهو المراد فى قوله (إيلافهم)

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اتفقوا على أن قريشاً ولد النضر بن كنانة ، قال عليه الصلاة والسلام «إنا بنى النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفى من أبينا» وذكروا فى سبب هذه التسمية وجوها (أحدها) أنه تصغير القرش وهو دابة عظيمة فى البحر تعبث بالسفن ، ولا تنطلق إلا بالنار وعن معاوية أنه سأل ابن عباس : بم سميت قريش ؟ قال بدابة فى البحر تأكل ولا تؤكل ، تعلو ولا تعلى ، وأنشد :

وقريش هى التى تسكن البحــــر بها سميت قريش قريشاً

والتصغير للتعظيم ، ومعلوم أن قريشاً موصوفون بهذه الصفات لأنها تلى أمر الأمة ، فإن الأئمة من قريش (وثانيها) أنه مأخوذ من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كاسبين بتجاراتهم وضربهم فى البلاد (وثالثها) قال الليث كانوا متفرقين فى غير الحرم ، فجمعهم قصى بن كلاب فى الحرم حتى اتخذوه مسكناً ، فسموا قريشاً لأن التقرش هو التجمع ، يقال تقرش القوم إذا اجتمعوا ، ولذلك سمى قصى مجمعاً ، قال الشاعر :

أبوكم قصى كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

(ورابعها) أنهم كانوا يسدون خلة محاويج الحاج ، فسموا بذلك قريشاً ، لأن القرش التفتيش قال ابن حرة :

أيها الشامت المقرش عنا عند عمرو وهل لذاك بقاء

قوله تعالى ﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾ فيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الليث الرحلة اسم الارتحال من القوم للمسير ، وفى المراد من هذه الرحلة قولان (الأول) وهو المشهور ، قال المفسرون كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن لأن اليمن أدفأ وبالصيف إلى الشأم ، وذكر عطاء عن ابن عباس أن السبب فى ذلك هو أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة خرج هو وعياله إلى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ،

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ «٣»

إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف ، وكان سيد قومه ، وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه فشكا إليه الضرر والمجاعة فدخل أسد على أمه يبكى فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً ، ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى وشكا إليه من الجوع فقام هاشم خطيباً فى قريش ، فقال إنكم أجدبتم جدباً تقلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم والناس لكم تبع ، قالوا نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف فجمع كل بنى أب على الرحلتين فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش ، قال الشاعر فيهم :

الخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافى

واعلم أن وجه النعمة والمنة فيه أنه لو تم لأصحاب الفيل ما أرادوا ، لترك أهل الأقطار تعظيمهم وأيضاً لتفرقوا وصار حالهم كحال اليهود المذكور فى قوله (وقطعناهم فى الأرض أمما) واجتماع القبيلة الواحدة فى مكان واحد أدخل فى النعمة من أن يكون الاجتماع من قبائل شتى ، ونبه تعالى أن من شرط السفر المؤانسة والألفة ، ومنه قوله تعالى (ولا جدال فى الحج) والسفر أحوج إلى مكارم الأخلاق من الإقامة (القول الثانى) أن المراد رحلة الناس إلى أهل مكة فرحلة الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذى الحجة لأنه كان أحدهما شتاء والآخر صيفاً وموسم منافع مكة يكون بهما ، ولو كان يتم لأصحاب الفيل ما أرادوا لتعطلت هذه المنفعة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نصب الرحلة بإيلافهم مفعولا به ، وأراد رحلتى الشتاء والصيف ، فأفرد لأمن الإلباس كقوله : كلوا فى بعض بطنكم ، وقيل معناه رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وقرىء رحلة بضم الراء وهى الجهة .

قوله تعالى ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ اعلم أن الإنعام على قسمين (أحدهما) دفع الضرر (والثانى) جلب النفع والأول أهم وأقدم ، ولذلك قالوا دفع الضرر عن النفس واجب ، أما جلب النفع [فانه] غير واجب ، فلهذا السبب بين تعالى نعمة دفع الضرر فى سورة الفيل ونعمة جلب النفع فى هذه السورة ، ولما تقرر أن الإنعام لا بد وأن يقابل بالشكر والعبودية ، لاجرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال (فليعبدوا) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكرنا أن العبادة هى التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون ، ثم قال بعضهم : أراد فليوحدوا رب هذا البيت لأنه هو الذى حفظ البيت دون الأوثان ، ولأن التوحيد مفتاح العبادات ، ومنهم من قال المراد العبادات المتعلقة بأعمال الجوارح

ٱلَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ

ثم ذكر كل قسم من أقسام العبادات ، والأولى حمله على الكل لأن اللفظ متناول للكل إلا ما أخرجه الدليل . وفى الآية وجه آخر ، وهو أن يكون معنى فليعبدوا أى فليتركوا رحلة الشتاء والصيف وليشتغلوا بعبادة رب هذا البيت فإنه يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف . ولعل تخصيص لفظ الرب تقرير لما قالوه لأبرهة إن للبيت رباً سيحفظه ، ولم يعولوا فى ذلك على الأصنام فلزمهم لإقرارهم أن لا يعبدوا سواه ، كأنه يقول لما عولتم فى الحفظ على فاصرفوا العبادة والخدمة إلى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الإشارة إلى البيت فى هذا النظم تفيد التعظيم فإنه سبحانه تارة أضاف العبد إلى نفسه فيقول ياعبادى وتارة يضيف نفسه إلى العبد فيقول وإلهكم كذا فى البيت [تارة] يضيف نفسه إلى البيت وهو قوله (فليعبدوا رب هذا البيت) وتارة يضيف البيت إلى نفسه فيقول (طهرا بيتى) .

ثم قال تعالى ﴿ الذى أطعمهم من جوع ﴾ وفى هذا الإطعام وجوه (أحدها) أنه تعالى لما آمنهم بالحرم حتى لا يتعرض لهم فى رحلتهم كان ذلك سبب إطعامهم بعد ما كانوا فيه من الجوع (وثانيها) قال مقاتل شق عليهم الذهاب إلى اليمن والشام فى الشتاء والصيف لطلب الرزق ، فقذف الله تعالى فى قلوب الحبشة أن يحملوا الطعام فى السفن إلى مكة فحملوه ، وجعل أهل مكة يخرجون إليهم بالإبل والحمر ، ويشترون طعامهم من جدة على مسيرة ليلتين وتتابع ذلك ، فكفاهم الله مؤونة الرحلتين (وثالثها) قال الكلبى هذه الآية معناها أنهم لما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم دعا عليهم ، فقال «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» فاشتد عليهم القحط وأصابهم الجهد فقالوا يا محمد ادع الله فإنا مؤمنون . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخصبت البلاد وأخصب أهل مكة بعد القحط ، فذاك قوله (أطعمهم من جوع) ثم فى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ العبادة إنما وجبت ، لأنه تعالى أعطى أصول النعم ، والإطعام ليس من أصول النعم ، فلماذا علل وجوب العبادة بالإطعام ؟ (والجواب) من وجوه (أحدها) أنه تعالى لما ذكر إنعامه عليهم بحبس الفيل وإرسال الطير وإهلاك الحبشة ، وبين أنه تعالى فعل ذلك لإيلافهم ، ثم أمرهم بالعبادة ، فكأن السائل يقول : لكن نحن محتاجون إلى كسب الطعام والذب عن النفس ، فلو اشتغلنا بالعبادة فمن ذا الذى يطعمنا ، فقال : الذى أطعمهم من جوع ، قبل أن يعبدوه ، ألا يطعمهم إذا عبدوه ! (وثانيها) أنه تعالى بعد أن أعطى العبد أصول النعم أساء العبد إليه ، ثم إنه يطعمهم مع ذلك ، فكأنه تعالى يقول : إذا لم تستح من أصول النعم ألا تستحى من إحسانى إليك بعد إساءتك (وثالثها) إنما ذكر الإنعام ، لأن البهيمة تطيع من يعلفها ، فكأنه تعالى يقول لست دون البهيمة .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أليس أنه جعل الدنيا ملكا لنا بقوله (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً)

وَءَامَنَهُم مِنْ خَوْفٍ «٤»

فكيف تحسن المنة علينا بأن أعطانا ملكنا ؟ (الجواب) انظر فى الأشياء التى لابد منها قبل الأكل حتى يتم الطعام ويتهيأ ، وفى الأشياء التى لابد منها بعد الأكل حتى يتم الانتفاع بالطعام المأكول ، فإنك تعلم أنه لابد من الأفلاك والكواكب ، ولا بد من العناصر الأربعة حتى يتم ذلك الطعام ، ولا بد من جملة الأعضاء على اختلاف أشكالها وصورها حتى يتم الانتفاع بالطعام ، وحينئذ تعلم أن الإطعام يناسب الأمر بالطاعة والعبادة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ المنة بالإطعام لاتليق بمن له شيء من الكرم ، فكيف بأكرم الأكرمين؟ (الجواب) ليس الغرض منه المنة ، بل الإرشاد إلى الأصلح ، لأنه ليس المقصود من الأكل تقوية الشهوة المانعة عن الطاعة ، بل تقوية البنية على أداء الطاعات ، فكأن المقصود من الأمر بالعبادة ذلك .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما الفائدة فى قوله (من جوع) ؟ (الجواب) فيه فوائد (أحدها) التنبيه على أن أمر الجوع شديد ، ومنه قوله تعالى (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) وقوله ﷺ « من أصبح آمناً فى سربه » الحديث (وثانيها) تذكيرهم الحالة الأولى الرديئة المؤلمة وهى الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة (وثالثها) التنبيه على أن خير الطعام ما سد الجوعة ، لأنه لم يقل وأشبعهم لأن الطعام يزيل الجوع ، أما الإشباع فإنه يورث البطنة .

أما قوله تعالى ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ ففى تفسيره وجوه (أحدها) أنهم كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد ، ولا يغير عليهم أحد لا فى سفرهم ولا فى حضرهم ، وكان غيرهم لا يأمنون من الغارة فى السفر والحضر ، وهذا معنى قوله (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً) (وثانيها) أنه آمنهم من زحمة أصحاب الفيل (وثالثها) قال الضحاك والربيع : وآمنهم من خوف الجذام ، فلا يصيبهم ببلدتهم الجذام (ورابعها) آمنهم من خوف أن تكون الخلافة فى غيرهم (١) (وخامسها) آمنهم بالإسلام ، فقد كانوا فى الكفر يتفكرون ، فيعلمون أن الدين الذى هم عليه ليس بشيء ، إلا أنهم ما كانوا يعرفون الدين الذى يجب على العاقل أن يتمسك به (وسادسها) أطعمهم من جوع الجهل بطعام الوحى ، وآمنهم من خوف الضلال ببيان الهدى ، كأنه تعالى يقول : ياأهل مكة كنتم قبل مبعث محمد تسمون جهال العرب وأجلافهم ، ومن كان ينازعكم كانوا يسمون أهل الكتاب ، ثم أنزلت الوحى على نبيكم ، وعلمتكم الكتاب والحكمة حتى صرتم الآن تسمون

---

(١) أقول والأسف يملأ الفؤاد ، ويقض الجوانح ويمزق الأكباد : إن هذا الوجه الرابع لا محل لذكره الآن . فقد أصبحت الخلافة الاسلامية أثراً بعد عين ، وانقرض ظلها ، وزوى فلم نعد للسلمين خليفة من قريش ولا من غيرهم . والأمل معقود فى الجامعة العربية أن توفق إلى رد هذا الحق المسلوب . وإعادة هذا السلطان الضائع الذي قضى عليه الاستعمار والمستعمرون ، ليشيع التفكك والاضطراب ونعم الفوضى بين المسلمين والعياذ بالله ﴿ عبد الله الصاوي ﴾

أهل العلم والقرآن . وأولئك يسمون جهال اليهود والنصارى ، ثم إطعام الطعام الذى يكون غذاء الجسد يوجب الشكر ، فإطعام الطعام الذى هو غذاء الروح ، ألا يكون موجباً للشكر ! وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم لم يقل عن جوع وعن خوف ؟ (قلنا) لأن معنى عن أنه جعل الجوع بعيداً عنهم ، وهذا يقتضى أن يكون ذلك التبعيد مسبوقاً بمقاساة الجوع زماناً ، ثم يصرفه عنه ، ومن لا تقتضى ذلك ، بل معناه أنهم عند ما يجوعون يطعمون ، وحين ما يخافون يؤمنون .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال من جوع ، من خوف على سبيل التنكير ؟ (الجواب) المراد من التنكير التعظيم . أما الجوع فلما روينا : أنه أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة . وأما الخوف ، فهو الخوف الشديد الحاصل من أصحاب الفيل ، ويحتمل أن يكون المراد من التنكير التحقير ، ويكون المعنى أنه تعالى لما لم يجوز لغاية كرمه إبقاءهم فى ذلك الجوع القليل والخوف القليل ، فكيف يجوز فى كرمه لو عبدوه أن يهمل أمرهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه (أطعمهم من جوع) دون جوع (وآمنهم من خوف) دون خوف ، ليكون الجوع الثانى ، والخوف الثانى مذكراً ماكانوا فيه أولا من أنواع الجوع والخوف ، حتى يكونوا شاكرين من وجه ، وصابرين من وجه آخر ، فيستحقوا ثواب الخصلتين .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أنه تعالى إنما أطعمهم وآمنهم إجابة لدعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام أما فى الإطعام فهو قوله (وارزق أهله) وأما الأمان فهو قوله (اجعل هذا البلد آمناً) وإذاكان كذلك كان ذلك منة على إبراهيم عليه السلام ، فكيف جعله منة على أولئك الحاضرين ؟ (والجواب) أن الله تعالى لما قال (إنى جاعلك للناس إماماً) قال إبراهيم (ومن ذريتى) فقال الله تعالى (لا ينال عهدى الظالمين) فنادى إبراهيم بهذا الأدب ،فحين قال (رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات) قيده بقوله (من آمن بالله) فقال الله لا حاجة إلى هذا التقييد ، بل ومن كفر فأمتعه قليلا ، فكأنه تعالى قال : أما نعمة الأمان فهى دينية فلاتحصل إلا لمن كان تقياً ، وأما نعمة الدنيا فهى تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح ، وإذاكان كذلك كان إطعام الكافر من الجوع ، وأمانه من الخوف إنعاماً من الله ابتداء عليه لا بدعوة إبراهيم ، فزال السؤال . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ سورة أرأيت ﴾

﴿ سبع آيات مكية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ «١»

﴿ سورة أرأيت ، سبع آيات مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ بعضهم أريت بحذف الهمزة ، قال الزجاج : وهذا ليس بالاختيار ، لأن الهمزة إنما طرحت من المستقبل نحو يرى وأرى وترى ، فأما رأيت فليس يصح عن العرب فيها ريت ، ولكن حرف الاستفهام لما كان فى أول الكلام سهل إلغاء الهمزة ، ونظيره :

صاح هل ريت أو سمعت براع   رد فى الضرع ما قرى فى العلاب

وقرأ ابن مسعود أرأيتك بزيادة حرف الخطاب كقوله (أرأيتك هذا الذى كرمت على) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أرأيت) معناه هل عرفت الذى يكذب بالجزاء من هو ، فإن لم تعرفه (فهو الذى يدع اليتيم) .

واعلم أن هذا اللفظ وإن كان فى صورة الاستفهام . لكن الغرض بمثله المبالغة فى التعجب كقولك أرأيت فلاناً ماذا ارتكب ولماذا عرض نفسه ؟ ثم قيل إنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل بل خطاب لكل عاقل أى أرأيت ياعاقل هذا الذى يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ووضوح تبيانه أيفعل ذلك لا لغرض ، فكيف يليق بالعاقل جر العقوبة الأبدية إلى نفسه من غير غرض أو لأجل الدنيا ، فكيف يليق بالعاقل أن يبيع الكثير الباقى بالقليل الفانى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى الآية قولان (أحدهما) أنها مختصة بشخص معين ، وعلى هذا القول ذكروا أشخاصاً ، فقال ابن جريج نزلت فى أبى سفيان كان ينحر جزورين فى كل أسبوع ، فأتاه يتيم فسأله لحماً فقرعه بعصاه ، وقال مقاتل نزلت فى العاص بن وائل السهمى . وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة ، والإتيان بالأفعال القبيحة ، وقال السدى نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وحكى الماوردى أنها نزلت فى أبى جهل ، وروى أنه كان وصياً ليتيم ، فجاءه وهو عريان يسأله شيئاً من مال نفسه ، فدفعه ولم يعبأ به فأيس الصبى . فقال له أكابر قريش قل لمحمد يشفع لك ، وكان

فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ «٢» وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ «٣»

غرضهم الاستهزاء ولم يعرف اليتيم ذلك ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم والتمس منه ذلك ، وهو عليه الصلاة والسلام ما كان يرد محتاجاً فذهب معه إلى أبى جهل فرحب به وبذل المال لليتيم فعيره قريش ، فقالوا صبوت ، فقال لا والله ما صبوت ، لكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها فى ، وروى عن ابن عباس أنها نزلت فى منافق جمع بين البخل والمراءاة (والقول الثانى) أنه عام لكل من كان مكذباً بيوم الدين ، وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات وإحجامه عن المحظورات إنما يكون للرغبة فى الثواب والرهبة عن العقاب ، فإذا كان منكراً للقيامة لم يترك شيئاً من المشتهيات واللذات . فثبت أن إنكار القيامة كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى تفسير الدين وجوه (أحدها) أن يكون المراد من يكذب بنفس الدين والإسلام إما لأنه كان منكراً للصانع ، أو لأنه كان منكراً للنبوة ، أو لأنه كان منكراً للمعاد أو لشىء من الشرائع ، فإن قيل كيف يمكن حمله على هذا الوجه ، ولا بد وأن يكون لكل أحد دين (والجواب) من وجوه (أحدها) أن الدين المطلق فى اصطلاح أهل الإسلام ، والقرآن هو الإسلام قال الله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) أما سائر المذاهب فلا تسمى ديناً إلا بضرب من التقييد كدين النصارى واليهود (وثانيها) أن يقال هذه المقالات الباطلة ليست بدين ، لأن الدين هو الخضوع لله وهذه المذاهب إنما هى خضوع للشهوة أو للشبهة (وثالثها) وهو قول أكثر المفسرين . أن المراد أرأيت الذى يكذب بالحساب والجزاء ، قالوا وحمله على هذا الوجه أولى لأن من ينكر الإسلام قد يأتى بالأفعال الحميدة ويحترز عن مقابحها إذا كان مقراً بالقيامة والبعث ، أما المقدم على كل قبيح من غير مبالاة فليس هو إلا المنكر للبعث والقيامة .

ثم قال تعالى ﴿ فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ﴾

واعلم أنه تعالى ذكر فى تعريف من يكذب بالدين وصفين (أحدهما) من باب الأفعال وهو قوله (فذلك الذى يدع اليتيم)(والثانى) من باب التروك وهو قوله (ولا يحض على طعام المسكين) والفاء فى قوله فذلك للسببية أى لما كان كافراً مكذباً كان كفره سبباً لدع اليتيم ، وإنما اقتصر عليهما على معنى أن الصادر عمن يكذب بالدين ليس إلا ذلك ، لأنا نعلم أن المكذب بالدين لا يقتصر على هذين بل على سبيل التمثيل ، كأنه تعالى ذكر فى كل واحد من القسمين مثالا واحداً تنبيهاً بذكره على سائر القبائح ، أو لأجل أن هاتين الخصلتين ، كما أنهما قبيحان منكران بحسب الشرع فهما أيضاً مستنكران بحسب المروءة والإنسانية ، أما قوله (يدع اليتيم) فالمعنى أنه يدفعه بعنف وجفوة كقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) وحاصل الأمر فى دع اليتيم أمور (أحدها) دفعه

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ «٤» ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ «٥»

عن حقه وماله بالظلم (والثانى) ترك المواساة معه ، وإن لم تكن المواساة واجبة . وقد يذم المرء بترك النوافل لاسيما إذا أسند إلى النفاق وعدم الدين (والثالث) يزجره ويضربه ويستخف به ، وقرىء يدع أى يتركه ، ولا يدعوه بدعوة ، أى يدعو جميع الأجانب ويترك اليتيم مع أنه عليه الصلاة والسلام قال « ما من مائدة أعظم من مائدة عليها يتيم » وقرىء يدعو اليتيم أى يدعوه رياء ثم لايطعمه وإنما يدعوه استخداماً أو قهراً أو استطالة .

واعلم أن فى قوله (يدع) بالتشديد فائدة ، وهى أن يدع بالتشديد معناه أنه يعتاد ذلك فلا يتناول الوعيد من وجد منه ذلك وندم عليه . ومثله قوله تعالى (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) سمى ذنب المؤمن لمماً لأنه كالطيف والخيال يطرأ ولا يبقى ، لأن المؤمن كما يفرغ من الذنب يندم . إنما المكذب هو الذى يصر على الذنب .

أما قوله (ولا يحض على طعام المسكين) ففيه وجهان (أحدهما) أنه لايحض نفسه على طعام المسكين وإضافة الطعام إلى المسكين تدل على أن ذلك الطعام حق المسكين ، فكأنه منع المسكين مما هو حقه ، وذلك يدل على نهاية بخله وقساوة قلبه وخساسة طبعه (والثانى) لايحض غيره على إطعام ذلك المسكين بسبب أنه لا يعتقد فى ذلك الفعل ثواباً ، والحاصل أنه تعالى جعل علم التكذيب بالقيامة الإقدام على إيذاء الضعيف ومنع المعروف ، يعنى أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لما صدر عنه ذلك ، فموضع الذنب هو التكذيب بالقيامة ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ أليس قد لايحض المرء فى كثير من الأحوال ولا يكون آثماً ؟ (الجواب) لأن غيره ينوب منابه أو لأنه لا يقبل قوله أو لمفسدة أخرى يتوقعها ، أما ههنا فذكر أنه لا يفعل ذلك [إلا] لما أنه مكذب بالدين .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم لم يقل ولا يطعم المسكين؟ (الجواب) إذا منع اليتيم حقه فكيف يطعم المسكين من مال نفسه ، بل هو بخيل من مال غيره ، وهذا هو النهاية فى الخسة ، فلأن يكون بخيلا بمال نفسه أولى ، وضده فى مدح المؤمنين (وتواصوا بالمرحمة ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر) .

ثم قال تعالى ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه (أحدها) أنه لما كان إيذاء اليتيم والمنع من الإطعام دليلا على النفاق فالصلاة لا مع الخشوع والخضوع أولى أن تدل على النفاق ، لأن الإيذاء والمنع من النفع معاملة مع المخلوق ، أما الصلاة فإنها خدمة للخالق ، (وثانيها) كأنه لما ذكر إيذاء اليتيم وتركه للحض كأن سائلا قال : أليس إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؟ فقال له الصلاة كيف تنهاه عن هذا الفعل المنكر وهى مصنوعة من عين الرياء

والسهو (وثالثها) كأنه يقول إقدامه على إيذاء اليتيم وتركه للحض ، تقصير فيما يرجع إلى الشفقة على خلق الله ، وسهوه فى الصلاة تقصير فيما يرجع إلى التعظيم لأمر الله ، فلما وقع التقصير فى الأمرين فقد كملت شقاوته ، فلهذا قال (فويل) واعلم أن هذا اللفظ إنما يستعمل عند الجريمة الشديدة كقوله (ويل للمطففين . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، ويل لكل همزة لمزة) ويروى أن كل أحد ينوح فى النار بحسب جريمته ، فقائل يقول ويلى من حب الشرف ، وآخر يقول ويلى من الحمية الجاهلية ، وآخر يقول ويلى من صلاتى ، فلهذا يستحب عند سماع مثل الآية ، أن يقول المرء ويلى إن لم يغفر لى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الآية دالة على حصول التهديد العظيم بفعل ثلاثة أمور (أحدها) السهو عن الصلاة (وثانيها) فعل المراءاة (وثالثها) منع الماعون ، وكل ذلك من باب الذنوب ، ولا يصير المرء به منافقاً فلم حكم الله بمثل هذا الوعيد على فاعل هذه الأفعال ؟ ولأجل هذا الإشكال ذكر المفسرون فيه وجوهاً (أحدها) أن قوله (فويل للمصلين) أى فويل للمصلين من المنافقين الذين يأتون بهذه الأفعال . وعلى هذا التقدير تدل الآية على أن الكافر له مزيد عقوبة بسبب إقدامه على محظورات الشرع وتركه لواجبات الشرع ، وهو يدل على صحة قول الشافعى : إن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع ، وهذا الجواب هو المعتمد (وثانيها) ما رواه عطاء عن ابن عباس أنه لو قال الله فى صلاتهم ساهون ، لكان هذا الوعيد فى المؤمنين لكنه قال (عن صلاتهم ساهون) والساهى عن الصلاة هو الذى لا يتذكرها ويكون فارغاً عنها ، وهذا القول ضعيف لأن السهو عن الصلاة لا يجوز أن يكون مفسراً بترك الصلاة ، لأنه تعالى أثبت لهم الصلاة بقوله (فويل للمصلين) وأيضاً فالسهو عن الصلاة بمعنى الترك لا يكون نفاقاً ولا كفراً فيعود الإشكال ، ويمكن أن يجاب عن الاعتراض الأول بأنه تعالى حكم عليهم بكونهم مصلين نظراً إلى الصورة وبأنهم نسوا الصلاة بالكلية نظراً إلى المعنى كما قال (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) ويجاب عن الاعتراض الثانى بأن النسيان عن الصلاة هو أن يبقى ناسياً لذكر الله فى جميع أجزاء الصلاة وهذا لا يصدر إلا عن المنافق الذى يعتقد أنه لا فائدة فى الصلاة ، أما المسلم الذى يعتقد فيها فائدة عينية يمتنع أن لا يتذكر أمر الدين والثواب والعقاب فى شىء من أجزاء الصلاة ، بل قد يحصل له السهو فى الصلاة بمعنى أنه يصير ساهياً فى بعض أجزاء الصلاة ، فثبت أن السهو فى الصلاة من أفعال المؤمن والسهو عن الصلاة من أفعال الكافر (وثالثها) أن يكون معنى (ساهون) أى لا يتعهدون أوقات صلواتهم ولا شرائطها . ومعناه أنه لا يبالى سواء صلى أو لم يصل ، وهو قول سعد بن أبى وقاص ومسروق والحسن ومقاتل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى سهو الرسول عليه الصلاة والسلام فى صلاته . فقال كثير من العلماء إنه عليه الصلاة والسلام ساهيا ، لكن الله تعالى أذن له فى ذلك الفعل حتى يفعل ما يفعله

ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ «٦» وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ «٧»

الساهى فيصير ذلك بياناً لذلك الشرع بالفعل والبيان بالفعل أقوى ، ثم بتقدير وقوع السهو منه فالسهو على أقسام (أحدها) سهو الرسول والصحابة وذلك منجبر تارة بسجود السهو وتارة بالسنن والنوافل (والثانى) ما يكون فى الصلاة من الغفلة وعدم استحضار المعارف والنيات (والثالث) الترك لا إلى قضاء والإخراج عن الوقت ، ومن ذلك صلاة المنافق وهى شر من ترك الصلاة لأنه يستهزىء بالدين بتلك الصلاه .

أما قوله تعالى ﴿ الذين هم يراءون ﴾ فاعلم أن الفرق بين المنافق والمرائى : أن المنافق هو المظهر للايمان المبطن للكفر ، والمرائى المظهر ماليس فى قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه أنه متدين ، أو تقول المنافق لا يصلى سراً والمرائى تكون صلاته عند الناس أحسن .

واعلم أنه يجب إظهار الفرائض من الصلاة والزكاة لأنها شعائر الإسلام وتاركها مستحق للعن فيجب نفى التهمة بالإظهار . إنما الإخفاء فى النوافل ، إلا إذا أظهر النوافل ليقتدى به ، وعن بعضهم أنه رأى فى المسجد رجلا يسجد للشكر وأطالها . فقال ما أحسن هذا لو كان فى بيتك! لكن مع هذا قالوا لا يترك النوافل حياء ولا يأتى بها رياء ، وقلما يتيسر اجتناب الرياء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على المسح الأسود» فإن قيل مامعنى المراءاة ؟ قلنا هى مفاعلة من الإراءة لأن المرائى يرى الناس عمله ، وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به .

واعلم أن قوله (عن صلاتهم ساهون) يفيد أمرين : إخراجها عن الوقت ، وكون الإنسان غافلا فيها ، وقوله (الذين هم يراءون) يفيد المراءاة ، فظهر أن الصلاة يجب أن تكون خالية عن هذه الأحوال الثلاثة .

ثم لما شرح أمر الصلاة أعقبه بذكر الصلات فقال ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ وفيه أقوال (الأول) وهو قول أبى بكر وعلى وابن عباس وابن الحنفية وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك هو الزكاة . وفى حديث أبى «من قرأ سورة (أرأيت) غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً» وذلك يوهم أن (الماعون) هو الزكاة ، ولأن الله تعالى ذكره عقيب الصلاة ، فالظاهر أن يكون ذلك هو الزكاة (والقول الثانى) وهو قول أكثر المفسرين ، أن (الماعون) اسم لما لا يمنع فى العادة ويسأله الفقير والغنى ، وينسب مانعه إلى سوء الخلق ولؤم الطبيعة ، كالفأس والقدر والدلو والمقدحة والغربال والقدوم ، ويدخل فيه الملح والماء والنار . فإنه روى « ثلاثة لا يحل منعها ، الماء والنار والملح» ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز فى تنورك ، أو يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم ، وأصحاب هذا القول قالوا : الماعون فاعول من المعن . وهو الشىء

القليل ومنه ماله سعنة ولا معنة ، أى كثير و [لا] قليل ، وسميت الزكاة ماعوناً ، لأنه يؤخذ من المال ربع العشر ، فهو قليل من كثير ، ويسمى مايستعار فى العرف كالفأس والشفرة ماعوناً ، وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة ، فإن البخل بها يكون فى نهاية الدناءة والركاكة ، والمنافقون كانوا كذلك ، لقوله تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) وقال (مناع للخير معتد أثيم) قال العلماء : ومن الفضائل أن يستكثر الرجل فى منزله مما يحتاج إليه الجيران ، فيعيرهم ذلك ولا يقتصر على الواجب (والقول الثالث) قال الفراء سمعت بعض العرب يقول : الماعون هو الماء ، وأنشدنى فيه :

يمج بعيره الماعون مجاً

ولعله خصه بذلك لأنه أعز مفقود وأرخص موجود ، وأول شىء يسأله أهل النار الماء . كما قال (أن أفيضوا علينا من الماء) وأول لذة يجدها أهل الجنة هو الماء ، كما قال (وسقاهم ربهم) (القول الرابع) (الماعون) حسن الانقياد ، يقال رض بعيرك حتى يعطيك الماعون ، أى حتى يعطيك الطاعة .

واعلم أن الأولى أن يحمل على كل طاعة يخف فعلها لأنه أكثر فائدة ، ثم قال المحققون فى فى الملاءمة بين قوله (يراءون) وبين قوله (ويمنعون الماعون) كأنه تعالى يقول الصلاة لى والماعون للخلق ، فما يجب جعله لى يعرضونه على الخلق ، وماهو حق الخلق يسترونه عنهم فكأنه لا يعامل الخلق والرب إلا على العكس (فإن قيل) لم لم يذكر الله اسم الكافر بعينه ؟ فإن قلت للستر عليه ، قلت لم لم يستر على آدم بل قال (وعصى آدم ربه) ؟ (والجواب) أنه تعالى ذكر زلة آدم لكن بعد موته مقروناً بالتوبة ليكون لطفاً لأولاده ، أنه أخرج من الجنة بسبب الصغيرة فكيف يطمعون فى الدخول مع الكبيرة ، وأيضاً فان وصف تلك الزلة رفعة له فانه رجل لم يصدر عنه إلا تلك الزلة الواحدة ثم تاب عنها مثل هذه التوبة .

ولنختم تفسير هذه السورة بالدعاء : إلهنا ، هذه السورة فى ذكر المنافقين والسورة التى بعدها فى صفة محمد ﷺ فنحن وإن لم نصل فى الطاعة إلى محمد عليه الصلاة والسلام وإلى أصحابه ، لم نصل فى الأفعال القبيحة إلى هؤلاء المنافقين ، فاعف عنا بفضلك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ سورة الكوثر ﴾

﴿ ثلاث آيات مكية ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ «١»

(سورة الكوثر ثلاث آيات مكية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إنا أعطينا الكوثر ﴾ .

اعلم أن هذه السورة على اختصارها فيها لطائف : (إحداها) أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة ، وذلك لأن فى السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمور أربعة : (أولها) البخل وهو المراد من قوله (يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين) (الثانى) ترك الصلاة وهو المراد من قوله (الذين هم عن صلاتهم ساهون) (والثالث) المراءاة فى الصلاة هو المراد من قوله (الذين هم يراءون (والرابع) المنع من الزكاة وهو المراد من قوله (ويمنعون الماعون) فذكر فى هذه السورة فى مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة ، فذكر فى مقابلة البخل قوله (إنا أعطيناك الكوثر) أى إنا أعطيناك الكثير ، فأعط أنت الكثير ولا تبخل ، وذكر فى مقابلة (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قوله (فصل) أى دم على الصلاة . وذكر فى مقابلة (الذين هم يراءون) قوله (لربك) أى ائت بالصلاة لرضا ربك ، لا لمراءاة الناس ، وذكر فى مقابلة (ويمنعون الماعون) قوله (وانحر) وأراد به التصدق بلحم الأضاحى ، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ، ثم ختم السورة بقوله (إن شانئك هو الأبتر) أى المنافق الذى يأتى بتلك الأفعال القبيحة المذكورة فى تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خبر . وأما أنت فيبقى لك فى الدنيا الذكر الجميل ، وفى الآخرة الثواب الجزيل .

﴿ والوجه الثانى ﴾ فى لطائف هذه السورة أن السالكين إلى الله تعالى لهم ثلاث درجات : (أعلاها) أن يكونوا مستغرقين بقلوبهم وأرواحهم فى نور جلال الله (وثانيها) أن يكونوا مشتغلين بالطاعات والعبادات البدنية (وثالثها) أن يكونوا فى مقام منع النفس عن الانصباب إلى اللذات المحسوسة والشهوات العاجلة ، فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) إشارة إلى المقام الأول

وهو كون روحه القدسية متميزة عن سائر الأرواح البشرية بالكم والكيف . أما بالكم فلأنها أكثر مقدمات ، وأما بالكيف فلأنها أسرع انتقالا من تلك المقدمات إلى النتائج من سائر الأرواح ، وأما قوله (فصل لربك) فهو إشارة إلى المرتبة الثانية ، وقوله (وانحر) إشارة إلى المرتبة الثالثة ، فإن منع النفس عن اللذات العاجلة جار مجرى النحر والذبح ، ثم قال (إن شانئك هو الأبتر) ومعناه أن النفس التى تدعوك إلى طلب هذه المحسوسات والشهوات العاجلة ، أنها دائرة فانية ، وإنما الباقيات الصالحات خير عند ربك ، وهى السعادات الروحانية والمعارف الربانية التى هى باقية أبدية . ولنشرع الآن فى التفسير قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) اعلم أن فيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها من السور . أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور ، فلأن الله تعالى جعل سورة (والضحى) فى مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله ، فذكر فى أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته (أولها) قوله (ماودعك ربك وماقلى) ، (وثانيها) قوله (وللآخرة خيرلك من الأولى) (وثالثها) (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهى قوله (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى)

ثم ذكر فى سورة ألم نشرح أنه شرفه بثلاثة أشياء (أولها) (ألم نشرح لك صدرك) (وثانيها) (ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك) ، (وثالثها) (ورفعنالك ذكرك) .

ثم إنه تعالى شرفه فى سورة والتين بثلاثة أنواع من التشريف (أولها) أنه أقسم ببلده وهو قوله (وهذا البلد الأمين) ، (وثانيها) أنه أخبر عن خلاص أمته عن النار وهو قوله (إلا الذين آمنوا) ، (وثالثها) وصولهم إلى الثواب وهو قوله (فلهم أجر غير ممنون)

ثم شرفه فى سورة اقرأ بثلاثة أنواع من التشريفات (أولها) (اقرأ باسم ربك) أى اقرأ القرآن على الخلق مستعيناً باسم ربك (وثانيها) أنه قهر خصمه بقوله (فليدع ناديه سندع الزبانية) ، (ثالثها) أنه خصه بالقربة التامة وهو (واسجد واقترب) .

وشرفه فى سورة القدر بليلة القدر التى لها ثلاثة أنواع من الفضيلة (أولها) كونها (خيراً من ألف شهر) ، (وثانيها) نزول (الملائكة والروح فيها)(وثالثها) كونها (سلاماً حتى مطلع الفجر).

وشرفه فى سورة (لم يكن) بأن شرف أمته بثلاثة تشريفات (أولها) أنهم (خير البرية) ، (وثانيها) أن (جزاؤهم عند ربهم جنات) ، (وثالثها) رضا الله عنهم ،

وشرفه فى سورة إذا زلزلت بثلاث تشريفات : (أولها) قوله (يومئذ تحدث أخبارها) وذلك يقتضى أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمته بالطاعة والعبودية (والثانى) قوله (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) وذلك يدل على أنه تعرض عليهم طاعاتهم فيحصل لهم الفرح والسرور ، (ثالثها) قوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ومعرفة الله لاشك أنها أعظم من كل عظيم فلابد وأن يصلوا إلى ثوابها ثم شرفه فى سورة والعاديات بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته فوصف

تلك الخيل بصفات ثلاث (والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحاً) .

ثم شرف أمته فى سورة القارعة بأمور ثلاثة (أولها) فمن ثقلت موازينه (وثانيها) أنهم فى عيشة راضية (وثالثها) أنهم يرون أعداءهم فى نار حامية ،

ثم شرفه فى سورة الهاكم بأن بين أن المعرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة أوجه (أولها) أنهم يرون الجحيم (وثانيها) أنهم يرونها عين اليقين (وثالثها) أنهم يسألون عن النعيم

ثم شرف أمته فى سورة والعصر بأمور ثلاثة (أولها) الإيمان (إلا الذين آمنوا) ، (وثانيها) وعملوا الصالحات (وثالثها) إرشاد الخلق إلى الأعمال الصالحة ، وهو التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ،

ثم شرفه فى سورة الهمزة بأن ذكر أن من همزه ولمزه ، فله ثلاثة أنواع من العذاب (أولها) أنه لا ينتفع بدنياه البتة ، وهو قوله (يحسب أن ماله أخلده كلا) (وثانيها) أنه ينبذ فى الحطمة ، (وثالثها) أنه يغلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبقى له رجاء فى الخروج ، وهو قوله (إنها عليهم مؤصدة) .

ثم شرفه فى سورة الفيل بأن رد كيد أعدائه فى نحرهم من ثلاثة أوجه (أولها) جعل كيدهم فى تضليل (وثانيها) أرسل عليهم طير أبابيل (وثالثها) جعلهم كعصف مأكول ،

ثم شرفه فى سورة قريش بأنه راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه (أولها) جعلهم مؤتلفين متوافقين لإيلاف قريش (وثانيها) أطعمهم من جوع (وثالثها) أنه آمنهم من خوف ،

وشرفه فى سورة الماعون ، بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات المذمومة (أولها) الدناءة واللؤم ، وهو قوله (يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) (وثانيها) ترك تعظيم الخالق ، وهو قوله (عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون) (وثالثها) ترك انتفاع الخلق ، وهو قوله (ويمنعون الماعون)

ثم إنه سبحانه وتعالى لما شرفه فى هذه السور من هذه الوجوه العظيمة ، قال بعدها (إنا أعطيناك الكوثر) أى إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة فى السورة المتقدمة التى كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب ، وبإرشاد عباده إلى ماهو الأصلح لهم . أما عبادة الرب فإما بالنفس ، وهو قوله (فصل لربك) وإما بالمال ، وهو قوله (وانحر) وأما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم فى دينهم ودنياهم ، فهو قوله (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وأما أنها كالأصل لما بعدها ، فهو أنه تعالى يأمره بعد هذه السورة بأن يكفر جميع أهل الدنيا بقوله (يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) ومعلوم أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد من عسفهم على أرواحهم وأموالهم . وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم فى نصرة أديانهم ، فلا جرم كان الطعن فى مذاهب الناس يثير من العداوة والغضب مالا يثير سائر المطاعن ، فلما أمره بأن يكفر جميع أهل الدنيا ، ويبطل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا فى غاية العداوة له ، وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه ، وانظر إلى موسى عليه السلام كيف

كان يخاف من فرعون وعسكره . وأما ههنا فإن محمداً عليه السلام لما كان مبعوثاً إلى جميع أهل الدنيا . كان كل واحد من الخلق ، كفرعون بالنسبة إليه ، فدبر تعالى فى إزالة هذا الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً ، وهو أنه قدم على تلك السورة ، هذه السورة فإن قوله (إنا أعطيناك الكوثر) يزيل عنه ذلك الخوف من وجوه (أحدها) أن قوله (إنا أعطيناك الكوثر) أى الخير الكثير فى الدنيا والدين ، فيكون ذلك وعداً من الله إياه بالنصرة والحفظ . وهو كقوله (يا أيها النبى حسبك الله) وقوله (والله يعصمك من الناس) وقوله (إلا تنصروه فقد نصره الله) ومن كان الله تعالى ضامناً لحفظه . فإنه لا يخشى أحداً (وثانيها) أنه تعالى لما قال (إنا أعطيناك الكوثر ، وهذا اللفظ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة ، وأن خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة ، والخلف فى كلام الله تعالى محال ، فوجب فى حكمة الله تعالى إبقاؤه فى دار الدنيا إلى حيث يصل إليه تلك الخيرات ، فكان ذلك كالبشارة له والوعد بأنهم لا يقتلونه ، ولا يقهرونه ، ولا يصل إليه مكرهم ، بل يصير أمره كل يوم فى الازدياد والقوة (وثالثها) أنه عليه السلام لما كفروا وزيف أديانهم ودعاهم إلى الإيمان اجتمعوا عنده ، وقالوا إن كنت تفعل هذا طلباً للمال فنعطيك من المال ما تصير به أغنى الناس ، وإن كان مطلوبك الزوجة نزوجك أكرم نسائنا ، وإن كان مطلوبك الرياسة فنحن نجعلك رئيساً على أنفسنا . فقال الله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) أى لما أعطاك خالق السموات والأرض خيرات الدنيا والآخرة ، فلا تغتر بما لهم ومراعاتهم (ورابعها) أن قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) يفيد أن الله تعالى تكلم معه لا بواسطة ، فهذا يقوم مقام قوله (وكلم الله موسى تكليما) بل هذا أشرف لأن المولى إذا شافه عبده بالتزام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافهه فى غير هذا المعنى ، بل يفيد قوة فى القلب ويزيل الجبن عن النفس ، فثبت أن مخاطبة الله إياه بقوله (إنا أعطيناك الكوثر) مما يزيل الخوف عن القلب والجبن عن النفس ، فقدم هذه السورة على سورة (قل يا أيها الكافرون) حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والإقدام على تكفير جميع العالم ، وإظهار البراءة عن معبودهم فلما امتثلت أمرى . فانظر كيف أنجزت لك الوعد ، وأعطيتك كثرة الأتباع والأشياع ، أن أهل الدنيا يدخلون فى دين الله افواجا ، ثم إنه لما تم أمر الدعوة وإظهار الشريعة ، شرع فى بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن . وذلك لأن الطالب إما أن يكون طلبه مقصوراً على الدنيا ، أو يكون طالباً للآخرة . أما طالب الدنيا فليس له إلا الخسار والذل والهوان ، ثم يكون مصيره إلى النار . وهو المراد من سورة تبت ، وأما طالب الآخرة فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التى تنتقش فيها صور الموجودات . وقد ثبت فى العلوم العقلية أن طريق الخلق فى معرفة الصانع على وجهين : منهم من عرف الصانع . ثم توسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق الأشرف الأعلى ، ومنهم من عكس وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه الكريم بتلك الطريقة التى هى أشرف الطريقين ، فبدأ بذكر صفات

الله وشرح جلاله ، وهو سورة (قل هو الله أحد) ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته فى سورة (قل أعوذ برب الفلق) ثم ختم الأمر بذكر مراتب النفس الإنسانية ، وعند ذلك ختم الكتاب ، وهذه الجملة إنما يتضح تفصيلها عند تفسير هذه السورة على التفصيل ، فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة المودعة فى كتابه الكريم .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ فى قوله (إنا أعطيناك الكوثر) هى أن كلمة (إنا) تارة يراد بها الجمع وتارة يراد بها التعظيم .

أما (الأول) فقد دل الدليل على أن الإله واحد ، فلا يمكن حمله على الجمع ، إلا إذا أريد أن هذه العطية مما سعى فى تحصيلها الملائكة وجبريل وميكائيل والأنبياء المتقدمون ، حين سأل إبراهيم إرسالك ، فقال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال موسى : رب اجعلنى من أمة أحمد . وهو المراد من قوله (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) وبشر بك المسيح فى قوله (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

وأما (الثانى) وهو أن يكون ذلك محمولا على التعظيم ، ففيه تنبيه على عظمة العطية لأن الواهب هو جبار السموات والأرض والموهوب منه ، هو المشار إليه بكاف الخطاب فى قوله تعالى (إنا أعطيناك) والهبة هى الشىء المسمى بالكوثر ، وهو ما يفيد المبالغة فى الكثرة . ولما أشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب ، فيالها من نعمة ما أعظمها ، وما أجلها ، ويا له من تشريف ما أعلاه .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أن الهدية وإن كانت قليلة لكنها بسبب كونها واصلة من المهدى العظيم تصير عظيمة ، ولذلك فإن الملك العظيم إذا رمى تفاحة لبعض عبيده على سبيل الإكرام يعد ذلك إكراماً عظيما ، لا لأن لذة الهدية فى نفسها ، بل لأن صدورها من المهدى العظيم يوجب كونها عظيمة ، فههنا الكوثر وإن كان فى نفسه فى غاية الكثرة ، لكنه بسبب صدوره من ملك الخلائق يزداد عظمة وكمالا .

﴿ الفائدة الرابعة ﴾ أنه لما قال (أعطيناك) قرن به قرينة دالة على أنه لا يسترجعها ، وذلك لأن من مذهب أبى حنيفة أنه يجوز للأجنبى أن يسترجع موهوبه ، فإن أخذ عوضاً وإن قل لم يجز له ذلك الرجوع ، لأن من وهب شيئاً يساوى ألف دينار إنساناً ، ثم طلب منه مشطاً يساوى فلساً فأعطاه ، سقط حق الرجوع فههنا لما قال (إنا أعطيناك الكوثر) طلب منه الصلاة والنحر وفائدته إسقاط حق الرجوع .

﴿ الفائدة الخامسة ﴾ أنه بنى الفعل على المبتدأ ، وذلك يفيد التأكيد والدليل عليه أنك لما ذكرت الاسم المحدث عنه عرف العقل أنه يخبر عنه بأمر فيصير مشتاقاً إلى معرفة أنه بماذا يخبر عنه ، فإذا ذكر ذلك الخبر قبله قبول العاشق لمعشوقه ، فيكون ذلك أبلغ فى التحقيق ونفى الشبهة

ومن ههنا تعرف الفخامة فى قوله (فإنها لا تعمى الأبصار) فإنه أكثر فخامة مما لو قال فإن الأبصار لا تعمى ، ومما يحقق قولنا قول الملك العظيم لمن يعده ويضمن له : أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بأمرك . وذلك إذا كان الموعود به أمراً عظيما . قلما تقع المسامحة به فعظمه يورث الشك فى الوفاء به . فإذا أسند إلى المتكفل العظيم ، فحينئذ يزول ذلك الشك ، وهذه الآية من هذا الباب لأن الكوثر شىء عظيم ، قلما تقع المسامحة به . فلما قدم المبتدأ ، وهو قوله (إنا) صار ذلك الإسناد مزيلا لذلك الشك ودافعاً لتلك الشبهة .

﴿ الفائدة السادسة ﴾ أنه تعالى صدر الجملة بحرف التأكيد الجارى مجرى القسم ، وكلام الصادق مصون عن الخلف . فكيف إذا بالغ فى التأكيد .

﴿ الفائدة السابعة ﴾ قال (أعطيناك) ولم يقل سنعطيك لأن قوله (أعطيناك) يدل على أن هذا الإعطاء كان حاصلا فى الماضى ، وهذا فيه أنواع من الفوائد (إحداها) أن من كان فى الزمان الماضى أبداً عزيزاً مرعى الجانب مقضى الحاجة أشرف ممن سيصير كذلك ، ولهذا قال عليه السلام « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » (وثانيها) أنها إشارة إلى أن حكم الله بالإسعاد والإشقاء والإغناء والإفقار ، ليس أمراً يحدث الآن ، بل كان حاصلا فى الأزل (وثالثها) كأنه يقول إنا قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك فى الوجود فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية ! (ورابعها) كأنه تعالى يقول نحن ما اخترناك وما فضلناك ، لأجل طاعتك ، وإلا كان يجب أن لا نعطيك إلا بعد إقدامك على الطاعة ، بل إنما اخترناك بمجرد الفضل والاحسان منا إليك من غير موجب ، وهو إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام « قبل من قبل لا لعلة ، ورد من رد لا لعلة » .

﴿ الفائدة الثامنة ﴾ قال (أعطيناك) ولم يقل أعطينا الرسول أو النبى أو العالم أو المطيع ، لأنه لو قال ذلك لأشعر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف ، فلما قال (أعطيناك) علم أن تلك العطية غير معللة بعلة أصلا بل هى محض الاختيار والمشيئة ، كما قال (نحن قسمنا ، الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) .

﴿ الفائدة التاسعة ﴾ قال أولا (إنا أعطيناك) ثم قال ثانياً (فصل لربك وانحر) وهذا يدل على أن إعطاءه للتوفيق والإرشاد سابق على طاعاتنا ، وكيف لا يكون كذلك وإعطاؤه إيانا صفته وطاعتنا له صفتنا ، وصفة الخلق لا تكون مؤثرة فى صفة الخالق إنما المؤثر هو صفة الخالق فى صفة الخلق ، ولهذا نقل عن الواسطى أنه قال لا أعبد رباً يرضيه طاعتى ويسخطه معصيتى . ومعناه أن رضاه وسخطه قديمان وطاعتى ومعصيتى محدثتان والمحدث لا أثر له فى القديم ، بل رضاه عن العبد هو الذى حمله على طاعته فيما لا يزال ، وكذا القول فى السخط والمعصية .

﴿ الفائدة العاشرة ﴾ قال (أعطيناك الكوثر) ولم يقل آتيناك الكوثر ، والسبب فيه أمران

(الأول) أن الإيتاء يحتمل أن يكون واجباً وأن يكون تفضلا ، وأما الإعطاء فانه بالتفضل أشبه فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) يعنى هذه الخيرات الكثيرة وهى الإسلام والقرآن والنبوة والذكر الجميل فى الدنيا والآخرة ، محض التفضل منا إليك وليس منه شىء على سبيل الاستحقاق والوجوب ، وفيه بشارة من وجهين (أحدهما) أن الكريم إذا شرع فى التربية على سبيل التفضل ، فالظاهر أنه لا يبطلها ، بل كان كل يوم يزيد فيها (الثانى) أن ما يكون سبب الاستحقاق ، فإنه يتقدر بقدر الاستحقاق ، وفعل العبد متناه ، فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهياً ، أما التفضل فإنه نتيجة كرم الله . وكرم الله غير متناه ، فيكون تفضله أيضاً غير متناه ، فلما دل قوله (أعطيناك) على أنه تفضل لا استحقاق أشعر ذلك بالدوام والتزايد أبداً . فإن قيل : أليس قال (آتيناك سبعاً من المثانى) ؟ قلنا الجواب من وجهين (الأول) أن الإعطاء يوجب التمليك ، والملك سبب الاختصاص ، والدليل عليه أنه لما قال سليمان (هب لى ملكاً) فقال (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك) ولهذا السبب من حمل الكوثر على الحوض قال : الأمة تكون أضيافاً له ، أما الإيتاء فإنه لا يفيد الملك ، فلهذا قال فى القرآن (آتيناك) فإنه لا يجوز للنبى أن يكتم شيئاً منه (الثانى) أن الشركة فى القرآن شركة فى العلوم ولا عيب فيها ، أما الشركة فى النهر ، فهى شركة فى الأعيان وهى عيب (الوجه الثانى) فى بيان أن الإعطاء أليق بهذا المقام من الإيتاء ، هو أن الإعطاء يستعمل فى القليل والكثير ، قال الله تعالى (وأعطى قليلا وأكدى) أما الإيتاء ، فلا يستعمل إلا فى الشىء العظيم . قال الله تعالى (وآتاه الله الملك ولقد آتينا داود منا فضلا) والآتى السيل المنصب ، إذا ثبت هذا فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) يفيد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وسلم من وجوه (أحدها) يعنى هذا الحوض كالشىء القليل الحقير بالنسبة إلى ما هو مدخر لك من الدرجات العالية والمراتب الشريفة ، فهو يتضمن البشارة بأشياء هى أعظم من هذا المذكور (وثانيها) أن الكوثر إشارة إلى الماء ، كأنه تعالى يقول الماء فى الدنيا دون الطعام ، فإذا كان نعيم الماء كوثراً ، فكيف سائر النعيم (وثالثها) أن نعيم الماء إعطاء ونعيم الجنة إيتاء (ورابعها) كأنه تعالى يقول هذا الذى أعطيتك ، وإن كان كوثراً لكنه فى حقك إعطاء لا إيتاء لأنه دون حقك ، وفى العادة أن المهدى إذا كان عظيما فالهدية وإن كانت عظيمة ، إلا أنه يقال إنها حقيرة أى هى حقيرة بالنسبة إلى عظمة المهدى له فكذا ههنا (وخامسها) أن نقول إنما قال فيما أعطاه من الكوثر أعطيناك لأنه دنيا ، والقرآن إيتاء لأنه دين (وسادسها) كأنه يقول : جميع ما نلت منى عطية وإن كانت كوثراً إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظفراً وخصمك أبتر ، فإنا أعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر ، أما الذكر الباقى والظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك (فصل لربك وانحر) أى فاعبدلى وسل الظفر بعد العبادة فإنى أوجبت على كرمى أن بعد كل فريضة دعوة مستجابة ، كذا روى فى الحديث المسند ، فحينئذ أستجيب فيصير

خصمك أبتر وهو الإيتاء ، فهذا مايخطر بالبال فى تفسير قوله تعالى (إنا أعطيناك) أما الكوثر فهو فى اللغة فوعل من الكثرة وهو المفرط فى الكثرة ، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر ، بم آب ابنك ؟ قالت آب بكوثر ، أى بالعدد الكثير ، ويقال للرجل الكثير العطاء كوثر ، قال الكميت :

وأنت كثير ياابن مروان طيب وكان أبوك ابن الفضائل كوثرا

ويقال للغبار إذا سطع وكثر كوثر هذا معنى الكوثر فى اللغة ، واختلف المفسرون فيه على وجوه (الأول) وهو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف أنه نهر فى الجنة ، روى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «رأيت نهراً فى الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فضربت بيدى إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر ، فقلت ماهذا ؟ قيل الكوثر الذى أعطاك الله» وفى رواية أنس «أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، فيه طيور خضر لها أعناق كأعناق البخت من أكل من ذلك الطير وشرب من ذلك الماء فاز بالرضوان» ولعله إنما سمى ذلك النهر كوثراً إما لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخيراً أو لأنه انفجر منه أنهار الجنة ، كما روى أنه مافى الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهر جار ، أو لكثرة الذين يشربون منها ، أو لكثرة مافيها من المنافع على ما قال عليه السلام « إنه نهر وعدنيه ربى فيه خير كثير » (القول الثانى) أنه حوض والأخبار فيه مشهورة ووجه التوفيق بين هذا القول . والقول الأول أن يقال لعل النهر ينصب فى الحوض أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع (والقول الثالث) الكوثر أولاده قالوا لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد ، فالمعنى أنه يعطيه نسلا يبقون على مر الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت . ثم العالم ممتلىء منهم ، ولم يبق من بنى أمية فى الدنيا أحد يعبأ به ، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم (القول الرابع) الكوثر علماء أمته وهو لعمرى الخير الكثير لأنهم كأنبياء بنى إسرائيل ، وهم يحيون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشرون آثار دينه وأعلام شرعه ، ووجه التشبيه أن الأنبياء كانوا متفقين على أصول معرفة الله مختلفين فى الشريعة رحمة على الخلق ليصل كل أحد إلى ما هو صلاحه ، كذا علماء أمته متفقون بأسرهم على أصول شرعه . لكنهم مختلفون فى فروع الشريعة رحمة على الخلق ، ثم الفضيلة من وجهين (أحدهما) أنه يروى أنه يجاء يوم القيامة بكل نبى ويتبعه أمته فربما يجىء الرسول ومعه الرجل والرجلان ، ويجاء بكل عالم من علماء أمته ومعه الألوف الكثيرة فيجتمعون عند الرسول فربما يزيد عدد متبعى بعض العلماء على عدد متبعى ألف من الأنبياء (الوجه الثانى) أنهم كانوا مصيبين لاتباعهم النصوص المأخوذة من الوحى ، وعلماء هذه الأمة يكونون مصيبين مع كد الاستنباط والاجتهاد ، أو على قول البعض إن كان بعضهم مخطئاً لكن المخطىء يكون أيضاً مأجوراً (القول الخامس) الكوثر هو النبوة ، ولا شك أنها الخير الكثير لأنها المنزلة التى هى ثانية الربوبية

ولهذا قال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وهو شطر الإيمان بل هى كالغصن فى معرفة الله تعالى ، لأن معرفة النبوة لابد وأن يتقدمها معرفة ذات الله وعلمه وقدرته وحكمته . ثم إذا حصلت معرفة النبوة فحينئذ يستفاد منها معرفة بقية الصفات كالسمع والبصر والصفات الخبرية والوجدانية على قول بعضهم ، ثم لرسولنا الحظ الأوفر من هذه المنقبة ، لأنه المذكور قبل سائر الأنبياء والمبعوث بعدهم ، ثم هو مبعوث إلى الثقلين . وهو الذى يحشر قبل كل الأنبياء ، ولا يجوز ورود الشرع على نسخه وفضائله أكثر من أن تعد وتحصى . ولنذكر ههنا قليلا منها ، فنقول :

إن كتاب آدم عليه السلام كان كلمات على ما قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) وكتاب إبراهيم أيضاً كان كلمات على ما قال (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) وكتاب موسى كان صحفاً ، كما قال (صحف إبراهيم وموسى) أما كتاب محمد عليه السلام ، فإنه هو الكتاب المهيمن على الكل ، قال (ومهيمناً عليه) وأيضاً فإن آدم عليه السلام إنما تحدى بالأسماء المنثورة فقال (أنبئونى بأسماء هؤلاء) ومحمد عليه الصلاة والسلام إنما تحدى بالمنظوم (قل لئن اجتمعت الإنس والجن) وأما نوح عليه السلام ، فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على الماء ، وفعل فى محمد ﷺ ما هو أعظم منه . روى أن النبى عليه الصلاة والسلام « كان على شط ماء ومعه عكرمة بن أبى جهل ، فقال لئن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذى هو فى الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق ، فأشار الرسول إليه ، فانقلع الحجر الذى أشار إليه من مكانه ، وسبح حتى صار بين يدى الرسول عليه السلام وسلم عليه ، وشهد له بالرسالة ، فقال النبى ﷺ يكفيك هذا ؟ قال حتى يرجع إلى مكانه ، فأمره النبى عليه الصلاة والسلام ، فرجع إلى مكانه ، وأكرم إبراهيم فجعل النار عليه برداً وسلاماً ، وفعل فى حق محمد أعظم من ذلك ، عن محمد بن حاطب قال « كنت طفلا فانصب القدر على من النار . فاحترق جلدى كله فحملتنى أمى إلى الرسول ﷺ وقالت هذا ابن حاطب احترق كما ترى فتفل رسول الله ﷺ على جلدى ومسح بيده على المحترق منه ، وقال : أذهب الباس ، رب الناس ، فصرت صحيحاً لا بأس بى » وأكرم موسى ففلق له البحر فى الأرض ، وأكرم محمداً ففلق له القمر فى السماء . ثم انظر إلى فرق ما بين السماء والأرض ، وفجر له الماء من الحجر ، وفجر لمحمد أصابعه عيوناً ، وأكرم موسى بأن ظلل عليه الغمام ، وكذا أكرم محمداً بذلك فكان الغمام يظلله . وأكرم موسى باليد البيضاء ، وأكرم محمداً بأعظم من ذلك وهو القرآن العظيم . الذى وصل نوره إلى الشرق والغرب ، وقلب الله عصا موسى ثعباناً ، ولما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين ، فانصرف مرعوباً ، وسبحت الجبال مع داود وسبحت الأحجار فى يده ويد أصحابه ، وكان داود إذا مسك الحديد لان ، وكان هو لما مسح الشاة الجرباء درت ، وأكرم داود بالطير المحشورة ومحمداً بالبراق ، وأكرم عيسى عليه السلام بإحياء الموتى ، وأكرمه بجنس ذلك حين أضافه اليهود بالشاة المسمومة . فلما وضع اللقمة فى فمه أخبرته ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، روى

أن امرأة معاذ بن عفراء أتته وكانت برصاء . وشكت ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمسح عليها رسول الله بغصن فأذهب الله البرص . وحين سقطت حدقة الرجل يوم أحد فرفعها وجاء بها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فردها إلى مكانها ، وكان عيسى يعرف ما يخفيه الناس فى بيوتهم ، والرسول عرف ما أخفاه عمه مع أم الفضل ، فأخبره فأسلم العباس لذلك ، وأما سليمان فإن الله تعالى رد له الشمس مرة . وفعل ذلك أيضاً للرسول حين نام ورأسه فى حجر على فانتبه وقد غربت الشمس ، فردها حتى صلى، وردها مرة أخرى لعلى فصلى العصر فى وقته ، وعلم سليمان منطق الطير ، وفعل ذلك فى حق محمد ، روى أن طيراً فجع بولده فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه فقال أيكم فجع هذه بولدها ؟ فقال رجل أنا . فقال اردد إليها ولدها ، وكلام الذئب معه مشهور ، وأكرم سليمان بمسيره غدوة شهراً وأكرمه بالمسير إلى بيت المقدس فى ساعة ، وكان حماره يعفور يرسله إلى من يريد فيجىء به ، وقد شكوا إليه من ناقة أنها أغيلت ، وأنهم لا يقدرون عليها فذهب إليها ، فلما رأته خضعت له ، وأرسل معاذا إلى بعض النواحى ، فلما وصل إلى المفازة . فإذا أسد جاثم فهاله ذلك ولم يستجر[ىء] أن يرجع ، فتقدم وقال إنى رسول رسول الله فتبصبص ، وكما انقاد الجن لسليمان ، فكذلك انقادوا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وحين جاء الأعرابى بالضب ، وقال لا أؤمن بك حتى يؤمن بك هذا الضب . فتكلم الضب معترفاً برسالته ، وحين كفل الظبية حين أرسلها الأعرابى رجعت تعدو حتى أخرجته من الكفالة وحنت الحنانة لفراقه . وحين لسعت الحية عقب الصديق فى الغار ، قالت كنت مشتاقة إليه منذ كذا سنين فلم حجبتنى عنه! وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل ومعجزاته أكثر من أن تحصى وتعد . فلهذا قدمه الله على الذين اصطفاهم ، فقال (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) فلما كانت رسالته كذلك جاز أن يسميها الله تعالى كوثراً ، فقال (إنا أعطيناك الكوثر (القول السادس) الكوثر هو القرآن ، وفضائله لا تحصى ، (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام) (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى) (القول السابع) الكوثر الإسلام ، وهو لعمرى الخير الكثير . فإن به يحصل خير الدنيا والآخرة ، وبفواته يفوت خير الدنيا وخير الآخرة ، وكيف لا والاسلام عبارة عن المعرفة . أو مالا بد فيه من المعرفة ، قال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وإذا كان الإسلام خيراً كثيراً فهو الكوثر . فإن قيل لم خصه بالاسلام ، مع أن نعمه عمت الكل؟ قلنا لأن الاسلام وصل منه إلى غيره . فكان عليه السلام كالأصل فيه (القول الثامن) الكوثر كثرة الأتباع والأشياع ، ولا شك أن له من الأتباع مالا يحصيهم إلا الله ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام ، قال «أنا دعوة خليل الله إبراهيم ، وأنا بشرى عيسى ، وأنا مقبول الشفاعة يوم القيامة . فبينا أكون مع الأنبياء ، إذ تظهر لنا أمة من الناس فنبتدرهم بأبصارنا ما منا من نبى إلا وهو يرجو أن تكون أمته ، فإذا هم غر محجلون من آثار الوضوء . فأقول أمتى ورب الكعبة فيدخلون الجنة بغير حساب . ثم يظهر لنا مثلا ماظهر أولا

فنبتدرهم بأبصارنا ما من نبى إلا ويرجو أن تكون أمته فإذا هم غر محجلون من آثار الوضوء فأقول أمتى ورب الكعبة ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يرفع لنا ثلاثة أمثال ما قد رفع فنبتدرهم ، وذكر كما ذكر فى المرة الأولى والثانية ، ثم قال (ليدخلن) ثلاث فرق من أمتى الجنة قبل أن يدخلها أحد من الناس » ولقد قال عليه الصلاة والسلام « تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة ، ولو بالسقط » فإذا كان يباهى بمن لم يبلغ حد التكليف ، فكيف بمثل هذا الجم الغفير ، فلاجرم حسن منه تعالى أن يذكره هذه النعمة الجسيمة فقال (إنا أعطيناك الكوثر) (القول التاسع) (الكوثر) الفضائل الكثيرة التى فيه ، فإنه باتفاق الأمة أفضل من جميع الأنبياء ، قال المفضل بن سلمة يقال رجل كوثر إذا كان سخياً كثير الخير ، وفى صحاح اللغة (الكوثر) السيد الكثير الخير ، فلما رزق الله تعالى محمداً هذه الفضائل العظيمة حسن منه تعالى أن يذكره تلك النعمة الجسيمة فيقول (إنا أعطيناك الكوثر) (القول العاشر) الكوثر رفعة الذكر ، وقد مر تفسيره فى قوله (ورفعنا لك ذكرك) (القول الحادى عشر) أنه العلم قالوا وحمل الكوثر على هذا أولى لوجوه (أحدها) أن العلم هو الخير الكثير قال (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وأمره بطلب العلم ، فقال (وقل رب زدنى علماً) وسمى الحكمة خيراً كثيراً ، فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) (وثانيها) أنا إما أن نحمل الكوثر على نعم الآخرة ، أو على نعم الدنيا ، والأول غير جائز لأنه قال أعطينا ، ونعم الجنة سيعطيها لا أنه أعطاها ، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه فى الدنيا ، وأشرف الأمور الواصلة إليه فى الدنيا هو العلم والنبوة داخلة فى العلم ، فوجب حمل اللفظ على العلم (وثالثها) أنه لما قال (أعطيناك الكوثر) قال عقيبه (فصل لربك وانحر) والشىء الذى يكون متقدماً على العبادة هو المعرفة ، ولذلك قال فى سورة النحل (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وقال فى طه (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى) فقدم فى السورتين المعرفة على العبادة ، ولأن فاء التعقيب فى قوله (فصل) تدل على أن إعطاء الكوثر كالموجب لهذه العبادة ، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم ، (القول الثانى عشر) أن الكوثر هو الخلق الحسن ، قالوا الانتفاع بالخلق بالحسن عام ينتفع به العالم والجاهل والبهيمة والعاقل ، فأما الانتفاع بالعلم . فهو مختص بالعقلاء ، فكان نفع الخلق الحسن أعم ، فوجب حمل الكوثر عليه ، ولقد كان عليه السلام كذلك كان للأجانب كالوالد يحل عقدهم ويكفى مهمهم ، وبلغ حسن خلقه إلى أنهم لما كسروا سنه . قال « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » (القول الثالث عشر) الكوثر هو المقام المحمود الذى هو الشفاعة ، فقال فى الدنيا (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) وقال فى الآخرة « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » وعن أبى هريرة قال عليه السلام « إن لكل نبى دعوة مستجابة وإنى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » (القول الرابع عشر) أن المراد من الكوثر هو هذه السورة ، قال وذلك لأنها مع

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ «٢»

قصرها وافية بجميع منافع الدنيا والآخرة ، وذلك لأنها مشتملة على المعجز من وجوه (أولها) أنا إذا حملنا الكوثر على كثرة الأتباع ، أو على كثرة الأولاد ، وعدم انقطاع النسل كان هذا إخباراً عن الغيب ، وقد وقع مطابقاً له ، فكان معجزاً (وثانيها) أنه قال (فصل لربك وانحر) وهو إشارة إلى زوال الفقر حتى يقدر على النحر ، وقد وقع فيكون هذا أيضاً إخباراً عن الغيب (وثالثها) قوله (إن شانئك هو الأبتر) وكان الأمر على ما أخبر فكان معجزاً (ورابعها) أنهم عجزوا عن معارضتها مع صغرها ، فثبت أن وجه الإعجاز فى كل القرآن ، إنما تقرر بها لأنهم لما عجزوا عن معارضتها مع صغرها فبأن يعجزوا عن معارضة كل القرآن أولى ، ولما ظهر وجه الإعجاز فيها من هذه الوجوه فقد تقررت النبوة وإذا تقررت النبوة فقد تقرر التوحيد ومعرفة الصانع ، وتقرر الدين والاسلام ، وتقرر أن القرآن كلام الله وإذا تقررت هذه الأشياء تقرر جميع خيرات الدنيا والآخرة فهذه السورة جارية مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية باثبات جميع المقاصد فكانت صغيرة فى الصورة كبيرة فى المعنى ، ثم لها خاصية ليست لغيرها وهى أنها ثلاث آيات ، وقد بينا أن كل واحدة منها معجز فهى بكل واحدة من آياتها معجز وبمجموعها معجز وهذه الخاصية لا توجد فى سائر السور فيحتمل أن يكون المراد من الكوثر هو هذه السورة (القول الخامس عشر) أن المراد من الكوثر جميع نعم الله على محمد عليه السلام ، وهو المنقول عن ابن عباس لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة . فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقى فوجب حملها على الكل . وروى أن سعيد بن جبير ، لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم : إن ناساً يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد النهر الذى فى الجنة من الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه ، وقال بعض العلماء ظاهر قوله (إنا أعطيناك الكوثر) يقتضى أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه الله تعالى من النبوة والقرآن والذكر الحكيم والنصرة على الأعداء ، وأما الحوض وسائر ما أعد له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله فهو كالواقع إلا أن الحقيقة ما قدمناه لأن ذلك وإن أعد له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه فى حال نزول هذه السورة بمكة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بضيعة له يصح أن يقال إنه أعطاه تلك الضيعة مع أن الصبى فى تلك الحال لا يكون أهلا للتصرف والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (فصل) وجوه (الأول) أن المراد هو الأمر بالصلاة ، فإن قيل اللائق عند النعمة الشكر ، فلم قال فصل ولم يقل فاشكر ؟ (الجواب) من وجوه (الأول)

أن الشكر عبارة عن التعظيم وله ثلاثة أركان (أحدها) يتعلق بالقلب وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره (والثانى) باللسان وهو أن يمدحه (والثالث) بالعمل وهو أن يخدمه ويتواضع له ، والصلاة مشتملة على هـذه المعانى ، وعلى ما هو أزيد منها فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة فكان الأمر بالصلاة أحسن (وثانيها) أنه لو قال فاشكر لكان ذلك يوهم أنه ما كان شاكراً لكنه كان من أول أمره عارفاً بربه مطيعاً له شاكراً لنعمه ، أما الصلاة فإنه إنما عرفها بالوحى ، قال (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) (الثالث) أنه فى أول ما أمره بالصلاة . قال محمد عليه الصلاة والسلام : كيف أصلى ولست على الوضوء ، فقال الله (إنا أعطيناك الكوثر) ثم ضرب جبريل بجناحه على الأرض فنبع ماء الكوثر فتوضأ فقيل له عند ذلك فصل ، فأما إذا حملنا الكوثر على الرسالة . فكأنه قال أعطيتك الرسالة لتأمر نفسك وسائر الخلق بالطاعات وأشرفها الصلاة فصل لربك (القول الثانى) فصل لربك أى فاشكر لربك ، وهو قول مجاهد وعكرمة ، وعلى هذا القول ذكروا فى فائدة الفاء فى قوله فصل وجوهاً (أحدها) التنبيه على أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخى (وثانيها) أن المراد من فاء التعقيب ههنا الإشارة ، إلى ما قرره بقوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ثم إنه خص محمداً ﷺ فى هذا الباب بمزيد مبالغة ، وهو قوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ولأنه قال له (فإذا فرغت فانصب) أى فعليك بأخرى عقيب الأولى فكيف بعد وصول نعمتى إليك ، ألا يجب عليك أن تشرع فى الشكر عقيب ذلك (القول الثالث) فصل أى فادع الله لأن الصلاة هى الدعاء ، وفائدة الفاء على هذا التقدير كأنه تعالى يقول قبل سؤالك ودعائك ما بخلنا عليك (بالكوثر) فكيف بعد سؤالك لكن «سل تعطه واشفع تشفع» وذلك لأنه كان أبداً فى هم أمته ، واعلم أن القول الأول أولى لأنه أقرب إلى عرف الشرع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (وانحر) قولان :

(الأول) وهو قول عامة المفسرين : أن المراد هو نحر البدن (والقول الثانى) أن المراد بقوله (وانحر) فعل يتعلق بالصلاة ، إما قبلها أو فيها أو بعدها ، ثم ذكروا فيه وجوها : (أحدها) قال الفراء معناها استقبل القبلة (وثانيها) روى الأصبغ بن نباتة عن على عليه السلام قال لما نزلت هذه السورة قال النبى عليه الصلاة والسلام لجبريل « ما هذه النحيرة التى أمرنى بها ربى ؟ قال ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنه صلاتنا ، وصلاة الملائكة الذين فى السموات السبع وإن لكل شىء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة » (وثالثها) روى عن على بن أبى طالب أنه فسر هـذا النحر بوضع اليدين على النحر فى الصلاة ، وقال رفع اليدين قبل الصلاة عادة المستجير العائذ ، ووضعها على النحر عادة الخاضع الخاشع (ورابعها) قال عطاء معناه اقعد بين السجدتين حتى يبدو نحرك (وخامسها) روى عن الضحاك ، وسليمان التيمى أنهما قالا (انحر)

معناه ارفع يديك عقيب الدعاء إلى نحرك ، قال الواحدى ، وأصل هـذه الأقوال كلها من النحر الذى هو الصـدر يقال لمذبح البعير النحر لأن منحره فى صـدره حيث يبدو الحلقوم من أعلى الصدر فمعنى النحر فى هـذا الموضع هو اصابة النحر كما يقال رأسه وبطنه إذا أصاب ذلك منه ، وأما قول الفراء إنه عبارة عن استقبال القبلة فقال ابن الأعرابى النحر انتصاب الرجل فى الصلاة بازاء المحراب وهو أن ينصب نحره بازاء القبلة ، ولا يلتفت يميناً ولا شمالا ، وقال الفراء منازلهم تتناحر أى تتقابل وأنشد :

أبا حكم هل أنت عم مجالد وسيد أهل الأبطح المتناحر

والنكتة المعنوية فيه كأنه تعـالى يقول الكعبة بيتى وهى قبلة صلاتك وقلبك وقبلة رحمتى ونظر عنايتى فلتكن القبلتان متناحرتين قال الأكثرون حمله على نحر البدن أولى لوجوه (أحدها) هو أن الله تعالى كلما ذكر الصلاة فى كتابه ذكر الزكاة بعدها (وثانيها) أن القوم كانوا يصلون وينحرون للأوثان فقيل له فصل وانحر لربك (وثالثها) أن هذه الأشياء آداب الصلاة وأبعاضها فكانت داخلة تحت قوله (فصل لربك) فوجب أن يكون المراد من النحر غيرها لأنه يبعد أن يعطف بعض الشىء على جميعه (ورابعهـا) أن قوله (فصل) إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وقوله (وانحر) إشارة إلى الشفقة على خلق الله وجملة العبودية لا تخرج عن هذين الأصلين (وخامسها) أن اسـتعمال لفظة النحر على نحر البدن أشهر من استعماله فى سائر الوجوه المذكورة ، فيجب حمل كلام الله عليه ، وإذا ثبت هذا فنقول استدلت الحنفية على وجوب الأضحية بأن الله تعـالى أمره بالنحر ، ولا بد وأن يكون قد فعله ، لأن ترك الواجب عليه غير جائز ، وإذا فعله النبي عليه الصلاة والسلام وجب علينا مثله لقوله (واتبعوه) ولقوله (فاتبعونى يحببكم الله) وأصحابنا قالوا الأمر بالمتابعة مخصوص بقوله « ثلاث كتبت على ولم تـكتب عليكم الضحى والأضحى والوتر » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف من فسر قوله (فصل) بالصلاة على وجوه (الأول) أنه أراد بالصلاة جنس الصلاة لأنهم كانوا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله فأمره أن لا يصلى ولا ينحر إلا لله تعالى ، واحتج من جوز تأخير بيان المجمل بهذه الآية ، وذلك لأنه تعالى أمر بالصلاة مع أنه مابين كيفية هذه الصلاة أجاب أبو مسلم ، وقال أراد به الصلاة المفروضة أعنى الخمس وإنما لم يذكر الكيفية ، لأن الكيفية كانت معلومة من قبل (القول الثانى) أراد صلاة العيد والأضحية لأنهم كانوا يقدمون الأضحية على الصلاة فنزلت هذه الآية ، قال المحققون هذا قول ضعيف لأن عطف الشىء على غيره بالواو لا يوجب الترتيب (القول الثالث) عن سعيد بن جبير صل الفجر بالمزدلفة وانحر بمنى . والأقرب القول الأول لأنه لا يجب إذا قرن ذكر النحر بالصلاة أن تحمل الصلاة على ما يقع يوم النحر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اللام فى قوله (لربك) فيها فوائد (الفائدة الأولى) هذه اللام للصلاة كالروح للبدن ، فكما أن البدن من الفرق إلى القدم ، إنما يكون حسناً ممدوحاً إذا كان فيه روح أما إذا كان ميتاً فيكون مرمياً ، كذا الصلاة والركوع والسجود . وإن حسنت فى الصورة وطالت ، لو لم يكن فيها لام لربك كانت ميتة مرمية ، والمراد من قوله تعالى لموسى (وأقم الصلاة لذكرى) وقيل إنه كانت صلاتهم ونحرهم للصنم فقيل له لتكن صلاتك ونحرك لله .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ كأنه تعالى يقول ذكر فى السورة المتقدمة أنهم كانوا يصلون للمراءاة فصل أنت لا للرياء لكن على سبيل الإخلاص .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفاء فى قوله (فصل) تفيد سببية أمرين (أحدهما) سببية العبادة كأنه قيل : تكثير الإنعام عليك يوجب عليك الاشتغال بالعبودية (والثانى) سببية ترك المبالاة كأنهم لما قالوا له إنك أبتر فقيل له كما أنعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة ، فاشتغل أنت بطاعتك ولا تبال بقولهم وهذيانهم .

واعلم أنه لما كانت النعم الكثيرة محبوبة ولازم المحبوب محبوب ، والفاء فى قوله (فصل) اقتضت كون الصلاة من لوازم تلك النعم ، لا جرم صارت الصلاة أحب الأشياء للنبى عليه الصلاة والسلام فقال « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ولقد صلى حتى تورمت قدماه ، فقيل له أوليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال أفلا أكون عبداً شكوراً » فقوله « أفلا أكون عبداً شكوراً » إشارة إلى أنه يجب على الاشتغال بالطاعة بمقتضى الفاء فى قوله (فصل) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كان الأليق فى الظاهر أن يقول : إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لنا وانحر . لكنه ترك ذلك إلى قوله (فصل لربك) لفوائد (إحداها) أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة (وثانيها) أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة ، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم : يأمرك أمير المؤمنين ، وينهاك أمير المؤمنين (وثالثها) أن قوله (إنا أعطيناك) ليس فى صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره ، وأيضاً كلمة إنا تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه ، فلو قال صل لنا ، لبقى ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك ، فلهذا ترك اللفظ ، وقال (فصل لربك) ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحاً بالتوحيد فى الطاعة والعمل لله تعالى .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله (فصل لربك) أبلغ من قوله : فصل لله لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله (إنا أعطيناك الكوثر) ويفيد الوعد الجميل فى المستقبل أنه يربيه ولا يتركه .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ فى الآية سؤالان : ﴿ أحدهما ﴾ أن المذكور عقيب الصلاة هو الزكاة ، فلم كان المذكور ههنا هو النحر ؟ (والثانى) لما لم يقل ضحى حتى يشمل جميع أنواع

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ «٣»

الضحايا؟ (والجواب) عن الأول ، أما على قول من قال : المراد من الصلاة صلاة العيد ، فالأمر ظاهر فيه ، وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة، فلوجوه (أحدها) أن المشركين كانت. صلواتهم وقرابينهم للأوثان ، فقيل له اجعلهما لله (وثانيها) أن من الناس من قال : إنه عليه السلام ما كان يدخل فى ملكه شىء من الدنيا ، بل كان يملك بقدر الحاجة ، فلا جرم لم تجب الزكاة عليه ، أما النحر فقد كان واجباً عليه لقوله «ثلاث كتبت على ولم تكتب على أمتى : الضحى والأضحى والوتر » (وثالثها) أن أعز الأموال عند العرب . هو الإبل فأمره بنحرها وصرفها إلى طاعة الله تعالى تنبيهاً على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها ، روى أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب فنحر هو عليه السلام حتى أعيا ، ثم أمر علياً عليه السلام بذلك ، وكانت النوق يزدحمن على رسول الله ، فلما أخذ على السكين تباعدت منه (والجواب عن الثانى) أن الصلاة أعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا ، وأيضاً فيه إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر ، لا لأن الواو توجب الترتيب ، بل لقوله عليه السلام « ابدؤا بما بدأ الله به » .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ السورة مكية فى أصح الأقوال ، وكان الأمر بالنحر جارياً مجرى البشارة بحصول الدولة . وزوال الفقر والخوف .

قوله تعالى ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى سبب النزول وجوهاً (أحدها) أنه عليه السلام كان يخرج من المسجد ، والعاص بن وائل السهمى يدخل فالتقيا فتحدثا ، وصناديد قريش فى المسجد ، فلما دخل قالوا من الذى كنت تتحدث معه ؟ فقال ذلك الأبتر ، وأقول إن ذلك من إسرار بعضهم مع بعض ، مع أن الله تعالى أظهره ، فحينئذ يكون ذلك معجزاً ، وروى أيضاً أن العاص بن وائل كان يقول : إن محمداً أبتر لا ابن له يقوم مقامه بعده ، فإذا مات انقطع ذكره واسترحتم منه ، وكان قد مات ابنه عبد الله من خديجة ، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبى وعامة أهل التفسير (القول الثانى) روى عن ابن عباس لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتاه جماعة قريش فقالوا نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة ، فنحن خير أم هذا الأبتر من قومه ، يزعم أنه خير منا ؟ فقال بل أنتم خير منه فنزل (إن شانئك هو الأبتر) ونزل أيضاً (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) ، (والقول الثالث) قال عكرمة وشهر بن حوشب لما أوحى الله إلى رسوله ودعا قريشاً إلى الإسلام ، قالوا بتر محمد أى خالفنا وانقطع

عنا ، فأخبر تعالى أنهم هم المبتورون (القول الرابع) نزلت فى أبى جهل فإنه لما مات ابن رسول الله قال أبو جهل إنى أبغضه لأنه أبتر ، وهذا منه حماقة حيث أبغضه بأمر لم يكن باختياره فان موت الإبن لم يكن من مراده (القول الخامس) نزلت فى عمه أبى لهب فانه لما شافهه بقوله تباً لك كان يقول فى غيبته إنه أبتر (والقول السادس) أنها نزلت فى عقبة بن أبى معيط ، وإنه هو الذى كان يقول ذلك ، واعلم أنه لايبعد فى كل أولئك الكفرة أن يقولوا مثل ذلك فانهم كانوا يقولون فيه ما هو أسوأ من ذلك ، ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية نزلت فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الشنآن هو البغض . والشانىء هو المبغض ، وأما البتر فهو فى اللغة استئصال القطع يقال بترته أبتره بتراً وبتر أى صار أبتر وهو مقطوع الذنب ، ويقال الذى لاعقب له أبتر ، ومنه الحمار الأبتر الذى لاذنب له ، وكذلك لمن انقطع عنه الخير .

ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه ، فانك إذا قلت زيد هو العالم يفيد أنه لاعالم غيره ، إذا عرفت هذا فقول الكفار فيه عليه الصلاة والسلام إنه أبتر لاشك أنهم لعنهم الله أرادوا به أنه انقطع الخير عنه .

ثم ذلك إما أن يحمل على خير معين ، أو على جميع الخيرات (أما الأول) فيحتمل وجوهاً (أحدها) قال السدى كانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده بتر ، فلما مات ابنه القاسم وعبد الله بمكة وإبراهيم بالمدينة قالوا بتر فليس له من يقوم مقامه ، ثم إنه تعالى بين أن عدوه هو الموصوف بهذه الصفة ، فانا نرى أن نسل أولئك الكفرة قد انقطع ، ونسله عليه الصلاة والسلام كل يوم يزداد وينمو وهكذا يكون إلى قيام القيامة (وثانيها) قال الحسن عنوا بكونه أبتر أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه ، والله تعالى بين أن خصمه هو الذى يكون كذلك ، فإنهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين ، وصارت رايات الإسلام عالية ، وأهل الشرق والغرب لها متواضعة (وثالثها) زعموا أنه أبتر لأنه ليس له ناصر ومعين ، وقد كذبوا لأن الله تعالى هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين ، وأما الكفرة فلم يبق لهم ناصر ولا حبيب (ورابعها) الأبتر هو الحقير الذليل ، روى أن أبا جهل اتخذ ضيافة لقوم ، ثم إنه وصف رسول الله بهذا الوصف ، ثم قال قوموا حتى نذهب إلى محمد وأصارعه وأجعله ذليلا حقيراً ، فلما وصلوا إلى دار خديجة وتوافقوا على ذلك أخرجت خديجة بساطاً ، فلما تصارعا جعل أبو جهل يجتهد فى أن يصرعه ، وبقى النبى عليه الصلاة والسلام واقفاً كالجبل ، ثم بعد ذلك رماه النبى صلى الله عليه وسلم على أقبح وجه ، فلما رجع أخذه باليد اليسرى ، لأن اليسرى للاستنجاء ، فكان نجساً فصرعه على الأرض مرة أخرى ووضع قدمه على صدره ، فذكر بعض القصاص أن المراد من قوله (إن شانئك هو الأبتر) هذه الواقعة (وخامسها) أن الكفرة لما وصفوه بهذا الوصف ، قيل (إن شانئك هو

الأبتر) أى الذى قالوه فيك كلام فاسد يضمحل ويفنى، وأما المدح الذى ذكرناه فيك ، فإنه باق على وجه الدهر (وسادسها) أن رجلا قام إلى الحسن بن على عليهما السلام ، وقال : سودت وجوه المؤمنين بأن تركت الإمامة لمعاوية ، فقال لا تؤذينى يرحمك الله ، فإن رسول الله رأى بنى أمية فى المنام يصعدون منبره رجلا فرجلا فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) فكان ملك بنى أمية كذلك ، ثم انقطعوا وصاروا مبتورين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الكفار لما شتموه ، فهو تعالى أجاب عنه من غير واسطة ، فقال (إن شانئك هو الأبتر) وهكذا سنة الأحباب ، فإن الحبيب إذا سمع من يشتم حبيبه تولى بنفسه جوابه ، فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم ، وذكر مثل ذلك فى مواضع حين قالوا (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ، افترى على الله كذبا أم به جنة) فقال سبحانه (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) وحين قالوا هو مجنون أقسم ثلاثاً ، ثم قال (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ولما قالوا (لست مرسلا) أجاب فقال (يس ، والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) وحين قالوا (أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) رد عليهم وقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) فصدقه ، ثم ذكر وعيد خصمائه ، وقال (إنكم لذائقوا العذاب الأليم)وحين قال حاكياً (أم يقولون شاعر) قال (وما علمناه الشعر) ولما حكى عنهم قولهم (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) سماهم كاذبين بقوله (فقد جاؤا ظلماً وزوراً) ولما قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) أجابهم فقال (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) فما أجل هذه الكرامة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أنه تعالى لما بشره بالنعم العظيمة ، وعلم تعالى أن النعمة لاتهنأ إلا إذا صار العدو مقهوراً ، لاجرم وعده بقهر العدو ، فقال (إن شانئك هو الأبتر) وفيه لطائف (إحداها) كأنه تعالى يقول : لا أفعله لكى يرى بعض أسباب دولتك ، وبعض أسباب محنة نفسه فيقتله الغيظ (وثانيها) وصفه بكونه شانئاً ، كأنه تعالى يقول : هذا الذى يبغضك لا يقدر على شىء آخر سوى أنه يبغضك . والمبغض إذا عجز عن الإيذاء ، فحينئذ يحترق قلبه غيظاً وحسداً ، فتصير تلك العداوة من أعظم أسباب حصول المحنة لذلك العدو (وثالثها) أن هذا الترتيب يدل على أنه إنما صار أبتر ، لأنه كان شانئاً له ومبغضاً ، والأمر بالحقيقة كذلك ، فإن من عادى محسوداً فقد عادى الله تعالى ، لاسيما من تكفل الله بإعلان شأنه وتعظيم مرتبته (ورابعها) أن العدو وصف محمداً عليه الصلاة والسلام بالقلة والذلة ، ونفسه بالكثرة والدولة ، فقلب الله الأمر عليه ، وقال العزيز من أعزه الله ، والذليل من أذله الله ، فالكثرة والكوثر لمحمد عليه السلام ، والأبترية والدناءة والذلة للعدو ، فحصل بين أول السورة وآخرها نوع من المطابقة لطيف .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اعلم أن من تأمل فى مطالع هذه السورة ومقاطعها عرف أن الفوائد التى

ذكرناها بالنسبة إلى ما استأثر الله بعلمه من فوائد هذه السورة كالقطرة فى البحر . روى عن مسيلمة أنه عارضها فقال : إنا أعطيناك الجماهر . فصل لربك وجاهر . إن مبغضك رجل كافر، ولم يعرف المخذول أنه محروم عن المطلوب لوجوه (أحدها) أن الألفاظ والترتيب مأخوذان من هذه السورة ، وهذا لا يكون معارضة (وثانيها) أنا ذكرنا أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها ، وكالأصل لما بعدها ، فذكر هذه الكلمات وحدها يكون إهمالا لأكثر لطائف هذه السورة (وثالثها) التفاوت العظيم الذى يقربه من له ذوق سليم بين قوله (إن شانئك هو الأبتر) وبين قوله : إن مبغضك رجل كافر ، ومن لطائف هذه السورة أن كل أحد من الكفار وصف رسول الله ﷺ بوصف آخر ، فوصفه بأنه لا ولد له ، وآخر بأنه لا معين له ولا ناصر له ، وآخر بأنه لا يبقى منه ذكر ، فالله سبحانه مدحه مدحاً أدخل فيه كل الفضائل ، وهو قوله (إنا أعطيناك الكوثر) لأنه لما لم يقيد ذلك الكوثر بشىء دون شىء ، لاجرم تناول جميع خيرات الدنيا والآخرة ، ثم أمره حال حياته بمجموع الطاعات ، لأن الطاعات إما أن تكون طاعة البدن أو طاعة القلب ، أما طاعة البدن فأفضله شيئان ، لأن طاعة البدن هى الصلاة ، وطاعة المال هى الزكاة ، وأما طاعة القلب فهو أن لا يأتى بشىء إلا لأجل الله ، واللام فى قوله (لربك) يدل على هذه الحالة ، ثم كأنه نبه على أن طاعة القلب لا تحصل إلا بعد حصول طاعة البدن ، فقدم طاعة البدن فى الذكر ، وهو قوله (فصل) وأخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبيهاً على فساد مذهب أهل الإباحة فى أن العبد قد يستغنى بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه ، فهذه اللام تدل على بطلان مذهب الإباحة ، وعلى أنه لابد من الإخلاص ، ثم نبه بلفظ الرب على علو حاله فى المعاد ، كأنه يقول : كنت ربيتك قبل وجودك ، أفأترك تربيتك بعد مواظبتك على هذه الطاعات ، ثم كما تكفل أولا بإفاضة النعم عليه تكفل فى آخر السورة بالذب عنه وإبطال قول أعدائه ، وفيه إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول بإفاضة النعم ، والآخر بتكميل النعم فى الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(سورة الكافرون)

﴿ ست آيات مكية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ «١»

﴿ سورة الكافرون ست آيات مكية ﴾

اعلم أن هذه السورة تسمى سورة المنابذة وسورة الإخلاص والمقشقشة ، وروى أن من قرأها فكأنما قرأ ربع القرآن ، والوجه فيه أن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهى عن المحرمات ، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح وهذه السورة مشتملة على النهى عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب فتكون ربعاً للقرآن والله أعلم .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ .

اعلم أن قوله تعالى (قل) فيه فوائد : (أحدها) أنه عليه السلام كان مأموراً بالرفق واللين فى جميع الأمور كما قال (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فبما رحمة من الله لنت لهم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ثم كان مأموراً بأن يدعو إلى الله بالوجه الأحسن (وجادلهم بالتى هى أحسن) ولما كان الأمر كذلك ، ثم إنه خاطبهم بيا أيها الكافرون فكانوا يقولون كيف يليق هـذا التغليظ بذلك الرفق فأجاب بأنى مأمور بهذا الكلام لا أنى ذكرته من عند نفسى فكان المراد من قوله قل تقرير هذا المعنى (وثانيها) أنه لما قيل له (وأنذر عشيرتك الأقربين) وهو كان يحب أقرباءه لقوله (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) فكانت القرابة ووحدة النسب كالمانع من إظهار الخشونة فأمر بالتصريح بتلك الخشونة والتغليظ فقيل له (قل) ، (وثالثها) أنه لما قيل له (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) فأمر بتبليغ كل ما أنزل عليه فلما قال الله تعالى له (قل يا أيها الكافرون) نقل هو عليه السلام هـذا الكلام بجملته كأنه قال إنه تعالى أمرنى بتبليغ كل ما أنزل على والذى أنزل على هو مجموع قوله (قل يا أيها الكافرون) فأنا أيضاً أبلغه إلى الخلق هكذا (ورابعها) أن الكفار كانوا مقرين بوجود الصانع ، وأنه هو الذى خلقهم ورزقهم ، على ماقال

تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) والعبد يتحمل من مولاه ما لا يتحمله من غيره . ولو أنه عليه السلام قال ابتداء (يا أيها الكافرون) لجوزوا أن يكون هذا كلام محمد ، فلعلهم ما كانوا يتحملونه منه وكانوا يؤذونه . أما لما سمعوا قوله (قل) علموا أنه ينقل هذا التغليظ عن خالق السموات والأرض ، فكانوا يتحملونه ولا يعظم تأذيهم به (وخامسها) أن قوله (قل) يوجب كونه رسولا من عند الله ، فكلما قيل له (قل) كان ذلك كالمنشور الجديد فى ثبوت رسالته ، وذلك يقتضى المبالغة فى تعظيم الرسول ، فإن الملك إذا فوض مملكته إلى بعض عبيده ، فإذا كان يكتب له كل شهر وسنة منشوراً جديداً دل ذلك على غاية اعتنائه بشأنه . وأنه على عزم أن يزيده كل يوم تعظيما وتشريفاً (وسادسها) أن الكفار لما قالوا نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة ، فكأنه عليه السلام قال : استأمرت إلهى فيه . فقال (قل ياأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (وسابعها) الكفار قالوا فيه السوء ، فهو تعالى زجرهم عن ذلك ، وأجابهم وقال (إن شانئك هو الأبتر) وكأنه تعالى قال : حين ذكروك بسوء ، فأنا كنت المجيب بنفسى ، فحين ذكرونى بالسوء وأثبتوا لى الشركاء ، فكن أنت المجيب (قل ياأيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) (وثامنها) أنهم سموك أبتر ، فإن شئت أن تستوفى منهم القصاص ، فاذكرهم بوصف ذم بحيث تكون صادقاً فيه (قل ياأيها الكافرون) لكن الفرق أنهم عابوك بما ليس من فعلك وأنت تعيبهم بما هو فعلهم (وتاسعها) أن بتقدير أن تقول : يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدونه . والكفار يقولون : هذا كلام ربك أم كلامك ، فإن كان كلام ربك فربك يقول: أنا لا أعبد هذه الأصنام ، ونحن لا نطالب هذه العبادة من ربك إنما نطلبها منك ، وإن كان هذا كلامك فأنت قلت من عند نفسك إنى لا أعبد هذه الأصنام . فلم قلت إن ربك هو الذى أمرك بذلك ، أما لما قال قل ، سقط هذا الاعتراض لأن قوله (قل) يدل على أنه مأمور من عند الله تعالى بأن لا يعبدها ويتبرأ منها (وعاشرها) أنه لو أنزل قوله (يا أيها الكافرون) لكان يقرؤها عليهم لا محالة ، لأنه لا يجوز أن يخون فى الوحى إلا أنه لما قال (قل) كان ذلك كالتأكيد فى إيجاب تبليغ هذا الوحى إليهم ، والتأكيد يدل على أن ذلك الأمر أمر عظيم . فبهذا الطريق تدل هذه الكلمة على أن الذى قالوه وطلبوه من الرسول أمر منكر فى غاية القبح ونهاية الفحش (الحادى عشر) كأنه تعالى يقول كانت التقية جائزة عند الخوف ، أما الآن لما قوينا قلبك بقولنا (إنا أعطيناك الكوثر) وبقولنا (إن شانئك هو الأبتر) فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم و (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) (الثانى عشر) أن خطاب الله تعالى مع العبد من غير واسطة يوجب التعظيم ألا ترى أنه تعالى ذكر من أقسام إهانة الكفار ، أنه تعالى لا يكلمهم ، فلو قال(يا أيها الكافرون) لكان ذلك من حيث إنه خطاب مشافهة يوجب التعظيم ، ومن حيث إنه وصف لهم بالكفر يوجب الإيذاء فينجبر الإيذاء بالإكرام ، أما لما قال (قل يا أيها الكافرون) فحينئذ يرجع تشريف

المخاطبة إلى محمد ﷺ ، وترجع الإهانة الحاصلة لهم بسبب وصفهم بالكفر إلى الكفار ، فيحصل فيه تعظيم الأولياء ، وإهانة الأعداء ، وذلك هو النهاية فى الحسن (الثالث عشر) أن محمداً عليه السلام كان منهم ، وكان فى غاية الشفقة عليهم والرأفة بهم ، وكانوا يعلمون منه أنه شديد الاحتراز عن الكذب ، والأب الذى يكون فى غاية الشفقة بولده ، ويكون فى نهاية الصدق والبعد عن الكذب ثم إنه يصف ولده بعيب عظيم فالولد إن كان عاقلا يعلم أنه ما وصفه بذلك مع غاية شفقته عليه إلا لصدقه فى ذلك ولأنه بلغ مبلغاً لا يقدر على إخفائه ، فقال تعالى (قل) يامحمد لهم (يا أيها الكافرون) ليعلموا أنك لما وصفتهم بذلك مع غاية شفقتك عليهم وغاية احترازك عن الكذب فهم موصوفون بهذه الصفة القبيحة ، فربما يصير ذلك داعياً لهم إلى البراءة من هذه الصفة والاحتراز عنها (الرابع عشر) أن الإيذاء والإيحاش من ذوى القربى أشد وأصعب من الغير فأنت من قبيلتهم ، ونشأت فيما بين أظهرهم فقل لهم (يا أيها الكافرون) فلعله يصعب ذلك الكلام عليهم ، فيصير ذلك داعياً لهم إلى البحث والنظر والبراءة عن الكفر (الخامس عشر) كأنه تعالى يقول ألسنا بينا فى سورة (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وفى سورة الكوثر (إنا أعطيناك الكوثر) وأتيت بالإيمان والأعمال الصالحات ، بمقتضى قولنا (فصل لربك وانحر) بقى عليك التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، وذلك هو أن تمنعهم بلسانك وبرهانك عن عبادة غير الله . فقل (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (السادس عشر) كأنه تعالى يقول يامحمد أنسيت أننى لما أخرت الوحى عليك مدة قليلة ، قال الكافرون إنه ودعه ربه وقلاه ، فشق عليك ذلك غاية المشقة ، حتى أنزلت عليك السورة ، وأقسمت بالضحى (والليل إذا سجى) أنه (ما ودعك ربك وما قلى) فلما لم تستجز أن أتركك شهراً ولم يطب قلبك حتى ناديت فى العالم بأنه (ماودعك ربك وما قلى) أفتستجيز أن تتركنى شهراً وتشتغل بعبادة آلهتهم فلما ناديت بنفى تلك التهمة ، فناد أنت أيضاً فى العالم بنفى هذه التهمة و (قل ياأيها الكافرون ، لا أعبد ماتعبدون) ، (السابع عشر) لما سألوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة ، فهو عليه السلام سكت ولم يقل شيئاً ، لا لأنه جوز فى قلبه أن يكون الذى قالوه حقاً ، فإنه كان قاطعاً بفساد ماقالوه لكنه عليه السلام ، توقف فى أنه بماذا يجيبهم ؟ أبأن يقيم الدلائل العقلية على امتناع ذلك أو بأن يزجرهم بالسيف أو بأن ينزل الله عليهم عذاباً ، فاغتنم الكفار ذلك السكوت وقالوا إن محمداً مال إلى ديننا . فكأنه تعالى قال يامحمد إن توقفك عن الجواب فى نفس الأمر حق ولكنه أوهم باطلا ، فتدارك إزالة ذلك الباطل . وصرح بما هو الحق و (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) ، (الثامن عشر) أنه عليه السلام لما قال له ربه ليلة المعراج أثن على استولى عليه هيبة الحضرة الالهية فقال لاأحصى ثناء عليك ، فوقع ذلك السكوت منه فى غاية الحسن فكأنه

قيل له إن سكت عن الثناء رعاية لهيبة الحضرة وأطلق لسانك فى مذمة الأعداء و (قل يا أيها الكافرون) حتى يكون سكوتك لله وكلامك لله ، وفيه تقرير آخر وهو أن هيبة الحضرة سلبت عنك قدرة القول فقل ههنا حتى إن هيبة قولك تسلب قدرة القول عن هؤلاء الكفار (التاسع عشر) لو قال له لاتعبد مايعبدون لم يلزم منه أن يقول بلسانه (لا أعبد ماتعبدون) أما لما أمره بأن يقول بلسانه (لا أعبد ما تعبدون) يلزمه أن لايعبد مايعبدون إذ لو فعل ذلك لصار كلامه كذبا ، فثبت أنه لما قال له قل (لا أعبد ماتعبدون) فلزمه أن يكون منكراً لذلك بقلبه ولسانه وجوارحه . ولوقال له لا تعبد مايعبدون لزمه تركه ، أما(١) لايلزمه إظهار إنكاره باللسان ، ومن المعلوم أن غاية الإنكار إنما تحصل إذا تركه فى نفسه وأنكره بلسانه فقوله له (قل) يقتضى المبالغة فى الانكار ، فلهذا قال (قل .. لا أعبد ماتعبدون) ، (العشرون) ذكر التوحيد ونفى الأنداد جنة للعارفين ونار المشركين فاجعل لفظك جنة الموحدين وناراً على المشركين و(قل ياأيهاالكافرون لا أعبد ما تعبدن) (الحادى والعشرون) أن الكفار لما قالوا نعبد إلهك سنة ،وتعبد آلهتنا سنة سكت محمد فقال إن شافهتهم بالرد تأذوا ، وحصلت النفرة عن الإسلام فى قلوبهم ، فكأنه تعالى قال له يامحمد لم سكت عن الرد ، أما الطمع فيما يعدونك من قبول دينك ، فلا حاجة بك فى هذا المعنى إليهم (فإنا أعطيناك الكوثر) وأما الخوف منهم فقد أزلنا عنك الخوف بقولنا (إن شانئك هو الأبتر) فلا تلتفت إليهم ، ولا تبال بكلامهم ، (وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الثانى والعشرون) أنسيت يامحمد أنى قدمت حقك على حق نفسى ، فقلت (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) فقدمت أهل الكتاب فى الكفر على المشركين لأن طعن أهل الكتاب فيك وطعن المشركين فى ، فقدمت حقك على حق نفسى وقدمت أهل الكتاب فى الذم على المشركين ، وأنت أيضاً هكذا كنت تفعل فإنهم لما كسروا سنك قلت «اللهم اهد قومى» ولما شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت «اللهم املأ بطونهم ناراً» فههنا أيضاً قدم حق على حق نفسك وسواء كنت خائفاً منهم . أولست خائفاً منهم فأظهر إنكار قولهم (وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الثالث والعشرون) كأنه تعالى يقول قصة امرأة زيد واقعة حقيرة بالنسبة إلى هذه الواقعة ، ثم إنى هناك مارضيت منك أن تضمر فى قلبك شيئاً ولا تظهره بلسانك . بل قلت لك على سبيل العتاب (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) فإذا كنت لم أرض منك فى تلك الواقعة الحقيرة إلا بالإظهار ، وترك المبالاة بأقوال الناس فكيف أرضى منك فى هذه المسألة ، وهى أعظم المسائل خطراً بالسكوت . قل بصريح لسانك (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون)(الرابع والعشرون) يامحمد ألست قلت لك (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً) ثم إنى مع هذه القدرة راعيت جانبك وطيبت قلبك وناديت فى العالمين بأنى لا أجعل الرسالة مشتركة بينه وبين غيره ، بل الرسالة له لالغيره حيث قلت (ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

(١) الكلام يقتضي (إذ) أو (لكن) ولعل (أما) محرفة عن كلمة أخري .

فأنت مع علمك بأنه يستحيل عقلا أن يشاركنى غيرى فى المعبودية أولى أن تنادى فى العالمين بنفى هذه الشركة ، فقل (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الخامس والعشرون) كأنه تعالى يقول القوم جاؤك وأطمعوك فى متابعتهم لك ومتابعتك لدينهم فسكت عن الإنكار والرد ، ألست أنا جعلت البيعة معك بيعة معى حيث قلت (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وجعلت متابعتك متابعة لى حيث قلت (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ثم إنى ناديت فى العالمين وقلت (إن الله برىء من المشركين ورسوله) فصرح أنت أيضاً بذلك ، و(قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) ، (السادس والعشرون) كأنه تعالى يقول ألست أرأف بك من الوالد بولده ، ثم العرى والجوع مع الوالد أحسن من الشبع مع الأجانب ، كيف والجوع لهم لأن أصنامهم جائعة عن الحياة عارية عن الصفات وهم جائعون عن العلم عارون عن التقوى ، فقد جربتنى ، ألم أجدك يتيما وضالا وعائلا ، ألم نشرح لك صدرك ، ألم أعطك بالصديق خزينة وبالفاروق هيبة وبعثمان معونة ، وبعلى علماً ، ألم أكف أصحاب الفيل حين حاولوا تخريب بلدتك ، ألم أكف أسلافك رحلة الشتاء والصيف . ألم أعطك الكوثر ، ألم أضمن أن خصمك أبتر ، ألم يقل جدك فى هذه الأصنام بعد تخريبها (لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) فصرح بالبراءة عنها و (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) (السابع والعشرون) كأنه تعالى يقول يامحمد ألست قد أنزلت عليك (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) ثم إن واحداً لو نسبك إلى والدين لغضبت ولأظهرت الإنكار ولبالغت فيه ، حتى قلت « ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح » فإذا لم تسكت عند التشريك فى الولادة ، فكيف سكت عند التشريك فى العبادة ! بل أظهر الإنكار ، وبالغ فى التصريح به ، و (قل ياأيها الكافرون ، لا أعبد ماتعبدون) ، (الثامن والعشرون) كأنه تعالى يقول يامحمد ألست قد أنزلت عليك (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) فحكمت بأن من سوى بين الإله الخالق وبين الوثن الجماد فى المعبودية لا يكون عاقلا بل يكون مجنوناً ، ثم إنى أقسمت وقلت (ن والقلم وما يسطرون ، ماأنت بنعمة ربك بمجنون) والكفار يقولون إنك مجنون ، فصرح برد مقالتهم فإنها تفيد براءتى عن عيب الشرك ، وبراءتك عن عيب الجنون و(قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ماتعبدون) ، (التاسع والعشرون) أن هؤلاء الكفار سموا الأوثان آلهة ، والمشاركة فى الاسم لا توجب المشاركة فى المعنى ، ألا ترى أن الرجل والمرأة يشتركان فى الإنسانية حقيقة ، ثم القيمية كلها حظ الزوج لأنه أعلم وأقدر ، ثم من كان أعلم وأقدر كان له كل الحق فى القيمية ، فمن لاقدرة له ولا علم البتة كيف يكون له حق فى القيومية ، بل ههنا شىء آخر : وهو أن امرأة لو ادعاها رجلان فاصطلحا عليها لا يجوز ، ولو أقام كل واحد منهما بينة على أنها زوجته لم يقض لواحد منهما ، والجارية بين اثنين لا تحل لواحد منهما ، فإذا لم يجز حصول زوجة لزوجين ، ولا أمة بين موليين فى حل الوطء

فكيف يعقل عابد واحد بين معبودين ! بل من جوز أن يصطلح الزوجان على أن تحل الزوجة لأحدهما شهراً . ثم الثانى شهراً آخر كان كافراً ، فمن جوز الصلح بين الإله والصنم ألا يكون كافراً فكأنه تعالى يقول لرسوله : إن هذه المقالة فى غاية القبح فصرح بالإنكار وقل (يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (الثلاثون) كأنه تعالى يقول أنسيت أنى لما خيرت نساءك حين أنزلت عليك (قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) إلى قوله (أجراً عظيما) ثم خشيت من عائشة أن تختار الدنيا ، فقلت لها لا تقولى شيئاً حتى تستأمرى أبويك ، فقالت أفى هذا أستأمر أبوى بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ! فناقصة العقل ما توقفت فيما يخالف رضاى أتتوقف فيما يخالف رضاى وأمرى مع أنى جبار السموات والأرض (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الحادى والثلاثون) كأنه تعالى يقول : يامحمد ألست أنت الذى قلت : من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يوقفن مواقف التهم ، وحتى أن بعض المشايخ قال لمريده الذى يريد أن يفارقه ، لاتخالف السلطان قال ولم ؟ قال : لأنه يوقع الناس فى أحد الخطأين ، إما أن يعتقدوا أن السلطان متدين ، لأنه يخالطه العالم الزاهد ، أو يعتقدوا أنك فاسق مثله ، وكلاهما خطأ ، فإذا ثبت أنه يجب البراءة عن موقف التهم فسكوتك يامحمد عن هذا الكلام يجر إليك تهمة الرضا بذلك ، لا سيما وقد سبق أن الشيطان ألقى فيما بين قراءتك : تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى ، فأزل عن نفسك هذه التهمة و(قل ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (الثانى والثلاثون) الحقوق فى الشاهد نوعان حق من أنت تحت يده ، وهو مولاك ، وحق من هو تحت يدك وهو الولد ، ثم أجمعنا على أن خدمة المولى مقدمة على تربية الولد ، فإذا كان حق المولى المجازى مقدماً ، فبأن يكون حق المولى الحقيقى مقدماً كان أولى ، ثم روى أن علياً عليه السلام إستأذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى التزوج بابنة أبى جهل فضجر وقال لا آذن لا آذن لا آذن أن فاطمة بضعة منى يؤذينى مايؤذيها ويسرنى ما يسرها والله لا يجمع بين بنت عدو الله ، وبنت حبيب الله ، فكأنه تعالى يقول صرحت هناك بالرد وكررته على سبيل المبالغة رعاية لحق الولد ، فههنا أولى أن تصرح بالرد ، وتكرره رعاية لحق المولى فقل (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) ولا أجمع فى القلب بين طاعة الحبيب وطاعة العدو (الثالث والثلاثون) يا محمد ألست قلت لعمر رأيت قصراً فى الجنة . فقلت لمن ؟ فقيل لفتى من قريش ، فقلت من هو ، فقالوا عمر فخشيت غيرتك فلم أدخلها حتى قال عمر أوأغار عليك يارسول الله ، فكأنه تعالى قال خشيت غيرة عمر فما دخلت قصره أفما تخشى غيرتى فى أن تدخل قلبك طاعة غيرى ، ثم هناك أظهرت الامتناع فههنا أيضاً أظهر الامتناع و (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) ، (الرابع والثلاثون) أترى أن نعمتى عليك دون نعمه الوالدة ، ألم أربك ؟ ألم أخلقك؟ ألم أرزقك ؟ ألم أعطك الحياة والقدرة والعقل والهداية والتوفيق ؟ ثم حين كنت طفلا عديم العقل وعرفت تربية الأم فلو أخذتك امرأة أجمل وأحسن وأكرم من أمك لأظهرت النفرة ولبكيت

ولوأعطتك الثدى لسددت فمك تقول لاأريد غير الأم لأنها أول المنعم على ، فههنا أولى أن تظهر النفرة فتقول لا أعبد سوى ربى لأنه أول منعم على فقل (ياأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الخامس والثلاثون) نعمة الإطعام دون نعمة العقل والنبوة ، ثم قد عرفت أن الشاة والكلب لا ينسيان نعمة الاطعام ولا يميلان إلى غيرمن أطعمهما فكيف يليق بالعاقل أن ينسى نعمة الإيجاد والإحسان فكيف فى حق أفضل الخلق (قل ياأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (السادس والثلاثون) مذهب الشافعى أنه يثبت حق الفرقة بواسطة الإعسار بالنفقة فإذا لم تجد من الأنصار تربية حصلت لك حق الفرقة لو كنت متصلا بها (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) فبتقدير أن كنت متصلا بها ، كان يجب أن تنفصل عنها وتتركها ، فكيف وما كنت متصلا بها أيليق بك أن تقرب الاتصال بها (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (السابع والثلاثون) هؤلاء الكفار لفرط حماقتهم ظنوا أن الكثرة فى الإلهية كالكثرة فى المال يزيد به الغنى وليس الأمر كذلك بل هو كالكثرة فى العيال تزيد به الحاجة فقل يامحمد لى إله واحد أقوم له فى الليل وأصوم له فى النهار ، ثم بعد لم أتفرغ من قضاء حق ذرة من ذرات نعمه . فكيف ألتزم عبادة آلهة كثيرة (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (الثامن والثلاثون) أن مريم عليها السلام لما تمثل لها جبريل عليه السلام (قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) فاستعاذت أن تميل إلى جبريل دون الله أفتستجيز مع كمال رجوليتك أن تميل إلى الأصنام (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (التاسع والثلاثون) مذهب أبى حنيفة أنه لا يثبت حق الفرقة بالعجز عن النفقة ولا بالعنة الطارئة يقول لأنه كان قيما فلا يحسن الإعراض عنه مع أنه تعيب فالحق سبحانه يقول ، كنت قيما ولم أتعيب . فكيف يجوز الاعراض عنى (قل يا أيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون) (الأربعون) هؤلاء الكفار كانوا معترفين بأن الله خالقهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال فى موضع آخر (أرونى ماذا خلقوا من الأرض) فكأنه تعالى يقول هذه الشركة إما أن تكون مزارعة وذلك باطل ، لأن البذر منى والتربية والسقى منى ، والحفظ منى ، فأى شىء للصنم ، أو شركة الوجوه وذلك أيضاً باطل أترى أن الصنم أكثر شهرة وظهوراً منى ، أو شركة الأبدان وذلك أيضاً باطل ، لأن ذلك يستدعى الجنسية ، أو شركة العنان ، وذلك أيضاً باطل ، لأنه لابد فيه من نصاب فما نصاب الأصنام ، أو يقول ليس هذا من باب الشركة لكن الصنم يأخذ بالتغلب نصيباً من الملك ، فكأن الرب يقول : ما أشد جهلكم إن هذا الصنم أكثر عجزاً من الذبابة (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً) فأنا أخلق البذر ثم ألقيه فى الأرض . فالتربية والسقى والحفظ منى . ثم إن من هو أعجز من الذبابة يأخذ بالقهر والتغلب نصيباً منى ، ما هذا بقول يليق بالعقلاء . (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الحادى والأربعون) أنه لاذرة فى عالم المحدثات إلا وهى تدعو العقول إلى معرفة الذات والصفات

وأما الدعاة إلى معرفة أحكام الله فهم الأنبياء عليهم السلام ، ولما كان كل بق وبعوضة داعياً إلى معرفة الذات والصفات قال (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) ، ذلك لأن هذه البعوضة بحسب حدوث ذاتها وصفاتها تدعو إلى قدرة الله بحسب تركيبها العجيب تدعو إلى علم الله وبحسب تخصيص ذاتها وصفاتها بقدر معين تدعو إلى إرادة الله . فكأنه تعالى يقول مثل هذا الشيء كيف يستحيا منه ، روى أن عمر رضى الله عنه كان فى أيام خلافته دخل السوق فاشترى كرشاً وحمله بنفسه فرآه على من بعيد فتنكب على عن الطريق فاستقبله عمر وقال له لم تنكبت عن الطريق ؟ فقال على : حتى لا تستحي ، فقال : وكيف أستحي من حمل ماهو غذائى ! فكأنه تعالى يقول إذا كان عمر لا يستحي من الكرش الذى هو غذاؤه فى الدنيا فكيف أستحى عن ذكر البعوض الذى يعطيك غذاء دينك . ثم كأنه تعالى يقول يامحمد إن نمروذ لما ادعى الربوبية صاح عليه البعوض بالإنكار ، فهؤلاء الكفار لما دعوك إلى الشرك أفلا تصيح عليهم أفلا تصرح بالرد عليهم (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) وإن فرعون لما ادعى الإلهية لجبريل ملأ فاه من الطين فإن كنت ضعيفاً فلست أضعف من بعوضة نمروذ ، وإن كنت قوياً فلست أقوى من جبريل ، فأظهر الإنكار عليهم و (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الثانى والأربعون) كأنه تعالى يقول يا محمد (قل) بلسانك (لا أعبد ما تعبدون) واتركه قرضاً على فإنى أقضيك هذا القرض على أحسن الوجوه ، ألا ترى أن النصرانى إذا قال أشهد أن محمداً رسول الله فأقول أنا لا أكتفى بهذا مالم تصرح بالبراءة عن النصرانية ، فلما أوجبت على كل مكلف أن يتبرأ بصريح لسانه عن كل دين يخالف دينك فأنت أيضاً أوجب على نفسك أن تصرح برد كل معبود غيرى فقل (ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (الثالث والأربعون) أن موسى عليه السلام كان فى طبعه الخشونة فلما أرسل إلى فرعون قيل له (فقولا له قولا ليناً) وأما محمد عليه السلام فلما أرسل إلى الخلق أمر بإظهار الخشونة تنبيهاً على أنه فى غاية الرحمة . فقيل له (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) .

أما قوله تعالى (قل يا أيها الكافرون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يا أيها ، قد تقدم القول فيها فى مواضع ، والذى نزيده ههنا ، أنه روى عن على عليه السلام أنه قال : يا نداء النفس وأى نداء القلب ، وها نداء الروح ، وقيل : يا نداء الغائب وأى للحاضر ، وها للتنبيه ، كأنه يقول أدعوك ثلاثاً ولا تجيبنى مرة ما هذا إلا لجهلك الخفى ، ومنهم من قال إنه تعالى جمع بين يا الذى هو للبعيد ، وأى الذى هو للقريب ، كأنه تعالى يقول معاملتك معى وفرارك عنى يوجب البعد البعيد ، لكن إحسانى إليك ، ووصول نعمتى إليك توجب القرب القريب (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وإنما قدم يا الذى يوجب البعد على أى الذى يوجب القرب ، كأنه يقول التقصير منك والتوفيق منى ، ثم ذكرها بعد ذلك لأن

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ «٢» وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ «٣» وَلَا أَنَا عَابِدٌ

مايوجب البعد الذى هو كالموت وأى يوجب القرب الذى هو كالحياة ، فلما حصلا حصلت حالة متوسطة بين الحياة والموت ، وتلك الحالة هى النوم ، والنائم لابد وأن ينبه وها كلمة تنبيه ، فلهذا السبب ختمت حروف النداء بهذا الحرف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى فى سبب نزول هذه السورة أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، قالوا لرسول الله تعالى حتى نعبد إلهك مدة ، وتعبد آلهتنا مدة ، فيحصل الصلح بيننا وبينك ، وتزول العداوة من بيننا ، فإن كان أمرك رشيداً أخذنا منه حظاً ، وإن كان أمرنا رشيداً أخذت منه حظاً ، فنزلت هذه السورة ونزل أيضاً قوله تعالى (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) فتارة وصفهم بالجهل وتارة بالكفر ، واعلم أن الجهل كالشجرة والكفر كالثمرة ، فلما نزلت السورة وقرأها على رؤوسهم شتموه وأيسوا منه ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم ذكرهم فى هذه السورة بالكافرين ، وفى الأخرى بالجاهلين ؟ (الجواب) لأن هذه السورة بتمامها نازلة فيهم ، فلابد وأن تكون المبالغة ههنا أشد ، وليس فى الدنيا لفظ أشنع ولا أبشع من لفظ الكافر ، وذلك لأنه صفة ذم عند جميع الخلق سواء كان مطلقاً أو مقيداً ، أما لفظ الجهل فإنه عند التقييد قد لا يذم ، كقوله عليه السلام فى علم الأنساب «علم لا ينفع وجهل لا يضر» .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لما قال تعالى فى سورة (لم تحرم) ياأيها الذين كفروا ، ولم يذكر قل . وههنا ذكر قل ، وذكره باسم الفاعل (والجواب) الآية المذكورة فى سورة لم تحرم : إنما تقال لهم يوم القيامة وثمة لا يكون الرسول رسولا إليهم فأزال الواسطة وفى ذلك الوقت يكونون مطيعين لا كافرين . فلذلك ذكره بلفظ الماضى ، وأما ههنا فهم كانوا موصوفين بالكفر ، وكان الرسول رسولا إليهم ، فلا جرم قال (قل ياأيها الكافرون) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قوله ههنا (قل يا أيها الكافرون) خطاب مع الكل أو مع البعض ؟ (الجواب) لا يجوز أن يكون قوله (لا أعبد ما تعبدون) خطاباً مع الكل لأن فى الكفار من يعبد الله كاليهود والنصارى فلا يجوز أن يقول لهم (لا أعبد ما تعبدون) ولا يجوز أيضاً أن يكون قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) خطاباً مع الكل ، لأن فى الكفار من آمن وصار بحيث يعبد الله ، فإذن وجب أن يقال إن قوله (يا أيها الكافرون) خطاب مشافهة مع أقوام مخصوصين وهم الذين قالوا نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة ، والحاصل أنا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التخصيص ، ولو حملناه على أنه خطاب مشافهة لم يلزمنا ذلك ، فكان حمل الآية على هذا المحمل أولى .

أما قوله تعالى ﴿ لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا

مَا عَبَدْتُمْ «٤» وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ «٥»

أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى هذه الآية قولان (أحدهما) أنه لا تكرار فيها (والثانى) أن فيها تكراراً (أما الأول) فتقريره من وجوه (أحدها) أن الأول للمستقبل ، والثانى للحال والدليل على أن الأول للمستقبل أن لا لاتدخل إلا على مضارع فى معنى الاستقبال ، ألا ترى أن لن تأكيد فيما ينفيه لا ، وقال الخليل فى لن أصله لا أن ، إذا ثبت هذا فقوله (لاأعبد ماتعبدون) أى لا أفعل فى المستقبل ماتطلبونه منى من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فى المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهى ، ثم قال (ولا أنا عابد ماعبدتم) أى ولست فى الحال بعابد معبودكم ولا أنتم فى الحال بعابدين لمعبودى (الوجه الثانى) أن تقلب الأمر فتجعل الأول للحال والثانى للاستقبال والدليل على أن قوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) للاستقبال أنه رفع لمفهوم قولنا : أنا عابد ماعبدتم ولاشك أن هذا للاستقبال بدليل أنه لو قال أنا قاتل زيداً فهم منه الاستقبال (الوجه الثالث) قال بعضهم كل واحد منهما يصلح للحال وللاستقبال ، ولكننا نخص أحدهما بالحال ، والثانى بالاستقبال دفعاً للتكرار ، فإن قلنا إنه أخبر عن الحال ، ثم عن الاستقبال ، فهو الترتيب ، وإن قلنا أخبر أولا عن الاستقبال ، فلأنه هو الذى دعوه إليه ، فهو الأهم فبدأ به ، فإن قيل ما فائدة الإخبار عن الحال وكان معلوماً أنه ما كان يعبد الصنم ، وأما الكفار فكانوا يعبدون الله فى بعض الأحوال ؟ قلنا أما الحكاية عن نفسه فلئلا يتوهم الجاهل أنه يعبدها سراً خوفاً منها أو طمعاً إليها وأما نفيه عبادتهم . فلأن فعل الكافر ليس بعبادة أصلا (الوجه الرابع) وهو اختيار أبى مسلم أن المقصود من الأولين المعبود وما بمعنى الذى ، فكأنه قال لا أعبد الأصنام ولا تعبدون الله ، وأما فى الأخيرين فما مع الفعل فى تأويل المصدر أى لا أعبد عبادتكم المبنية على الشرك وترك النظر ، ولا أنتم تعبدون عبادتى المبنية على اليقين ، فإن زعمتم أنكم تعبدون إلهى ، كان ذلك باطلا لأن العبادة فعل مأمور به وما تفعلونه أنتم ، فهو منهى عنه ، وغير مأمور به (الوجه الخامس) أن تحمل الأولى على نفى الاعتبار الذى ذكروه ، والثانية على النفى العام المتناول لجميع الجهات فكأنه أولا قال (لا أعبد ما تعبدون) رجاء أن تعبدوا الله ، ولا أنتم تعبدون الله رجاء أن أعبد أصنامكم ، ثم قال ولا أنا عابد صنمكم لغرض من الأغراض ، ومقصود من المقاصد البتة بوجه من الوجوه (ولا أنتم عابدون ما أعبد) بوجه من الوجوه ، واعتبار من الاعتبارات ، ومثاله من يدعو غيره إلى الظلم لغرض التنعم ، فيقول لا أظلم لغرض التنعم بل لا أظلم أصلا لا لهذا الغرض ولا لسائر الأغراض (القول الثانى) وهو أن نسلم حصول التكرار ، وعلى هذا القول العذر عنه من ثلاثة أوجه (الأول) أن التكرير يفيد التوكيد وكلما كانت الحاجة إلى التأكيد أشد كان التكرير

أحسن ، ولاموضع أحوج إلى التأكيد من هذا الموضع ، لأن أولئك الكفار رجعوا إلى رسول الله ﷺ فى هذا المعنى مراراً ، وسكت رسول الله عن الجواب ، فوقع فى قلوبهم أنه عليه السلام قد مال إلى دينهم بعض الميل . فلاجرم دعت الحاجة إلى التأكيد والتكرير فى هذا النفى والإبطال (الوجه الثانى) أنه كان القرآن ينزل شيئاً بعد شيء ، وآية بعد آية جواباً عما يسألون فالمشركون قالوا استلم بعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك فأنزل الله (ولا أناعابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ماأعبد) ثم قالوا بعد مدة تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إلهك شهراً فأنزل الله (ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد) ولما كان هذا الذى ذكرناه محتملا لم يكن التكرار على هذا الوجه مضراً البتة (الوجه الثالث) أن الكفار ذكروا تلك الكلمة مرتين تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إلهك شهراً وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فأتى الجواب على التكرير على وفق قولهم وهو ضرب من التهكم فإن من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد يجازى بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار استخفافا به واستحقاراً لقوله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الآية سؤال وهو أن كلمة (ما) لا تتناول من يعلم فهب أن معبودهم كان كذلك فصح التعبير عنه بلفظ ما لكن معبود محمد عليه الصلاة والسلام هو أعلم العالمين فكيف قال (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أجابوا عنه من وجوه (أحدها) أن المراد منه الصفة كأنه قال لاأعبد الباطل وأنتم لاتعبدون الحق (وثانيها) أن مصدرية فى الجملتين كأنه قال لاأعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى فى المستقبل ، ثم قال ثانياً لاأعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى فى الحال (وثالثها) أن يكون ما بمعنى الذى وحينئذ يصح الكلام (ورابعها) أنه لما قال أولا (لاأعبد ماتعبدون) حمل الثانى عليه ليتسق الكلام كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أهل الجبر بأنه تعالى أخبر عنهم مرتين بقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) والخبر الصدق عن عدم الشيء يضاد وجود ذلك الشيء فالتكليف بتحصيل العبادة مع وجود الخبر الصدق بعدم العبادة تكليف بالجمع بين الضدين ، واعلم أنه بقى فى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أليس أن ذكر الوجه الذى لأجله تقبح عبادة غير الله كان أولى من هذا التكرير ؟ الجواب بل قد يكون التأكيد والتكرير أولى من ذكر الحجة ، إما لأن المخاطب بليد ينتفع بالمبالغة والتكرير ولا ينتفع بذكر الحجة أو لأجل أن محل النزاع يكون فى غاية الظهور فالمناظرة فى مسألة الجبر والقدر حسنة ، أما القائل بالصنم فهو إما مجنون يجب شده أو عاقل معاند فيجب قتله ، وإن لم يقدر على قتله فيجب شتمه ، والمبالغة فى الإنكار عليه كما فى هذه الآية :

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن أول السورة اشتمل على التشديد ، وهو النداء بالكفر والتكرير وآخرها على اللطف والتساهل ، وهو قوله (لكم دينكم ولى دين) فكيف وجه الجمع بين الأمرين ؟

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ «٦»

(الجواب) كأنه يقول إنى قد بالغت فى تحذيركم عن هذا الأمر القبيح ، وما قصرت فيه ، فإن لم تقبلوا قولى ، فاتركونى سواء بسواء .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لما كان التكرير لأجل التأكيد والمبالغة فكان ينبغى أن يقول : لن أعبد ما تعبدون ، لأن هذا أبلغ . ألا ترى أن أصحاب الكهف لما بالغوا قالوا (لن ندعو من دونه إلهاً) (والجواب) المبالغة إنما يحتاج إليها فى موضع التهمة ، وقد علم كل أحد من محمد عليه السلام أنه ماكان يعبد الصنم قبل الشرع ، فكيف يعبده بعد ظهور الشرع ، بخلاف أصحاب الكهف فإنه وجد منهم ذلك فيما قبل .

أما قوله تعالى ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ ففيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس لكم كفركم بالله ولى التوحيد والإخلاص له ، فإن قيل فهل يقال إنه أذن لهم فى الكفر قلنا ، كلا فإنه عليه السلام ما بعث إلا للمنع من الكفر فكيف يأذن فيه ، ولكن المقصود منه أحد أمور (أحدها) أن المقصود منه التهديد ، كقوله اعملوا ما شئتم (وثانيها) كأنه يقول إنى نبى مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى فاتركونى ولا تدعونى إلى الشرك (وثالثها) (لكم دينكم) فكونوا عليه إن كان الهلاك خيراً لكم (ولى دينى) لأنى لاأرفضه (القول الثانى) فى تفسير الآية أن الدين هو الحساب أى لكم حسابكم ولى حسابى ، ولا يرجع إلى كل واحد منا من عمل صاحبه أثر البتة (القول الثالث) أن يكون على تقدير حذف المضاف أى لكم جزاء دينكم ولى جزاء دينى وحسبهم جزاء دينهم وبالا وعقاباً كما حسبك جزاء دينك تعظيما وثواباً (القول الرابع) الدين العقوبة (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) يعنى الحد ، فلكم العقوبة من ربى ، ولى العقوبة من أصنامكم ، لكن أصنامكم جمادات ، فأنا لا أخشى عقوبة الأصنام . وأما أنتم فيحق لكم عقلا أن تخافوا عقوبة جبار السموات والأرض (القول الخامس) الدين الدعاء ، فادعوا الله مخلصين له الدين ، أى لكم دعاؤكم (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) (وإن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) ثم ليتها تبقى على هذه الحالة فلا يضرونكم ، بل يوم القيامة يجدون لساناً فيكفرون بشرككم ، وأما ربى فيقول (ويستجيب الذين آمنوا) (ادعونى أستجب لكم) (أجيب دعوة الداع إذا دعان) (القول السادس) الدين العادة ، قال الشاعر :

يقول لها وقد دارت وضينى ... أهذا دينها أبدا ودينى

معناه لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشياطين ، ولى عادتى المأخوذة من الملائكة والوحى ، ثم يبقى كل واحد منا على عادته ، حتى تلقوا الشياطين والنار ، وألقى الملائكة والجنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (لكم دينكم) يفيد الحصر ، ومعناه لكم دينكم لا لغيركم ، ولى ديني لا لغيرى ، وهو إشارة إلى قوله (وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى أنا مأمور بالوحى والتبليغ ، وأنتم مأمورون بالامتثال والقبول ، فأنا لما فعلت ما كلفت به خرجت عن عهدة التكليف ، وأما إصراركم على كفركم ، فذلك مما لا يرجع إلى منه ضرر البتة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة ، وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

(ســـورة النصر)

(وهى ثلاث آيات مدنية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

﴿ سورة النصر وهى ثلاث آيات مدنية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ فى الآية لطائف :

﴿ إحداها ﴾ أنه تعالى لما وعد محمداً بالتربية العظيمة بقوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وقوله (إنا أعطيناك الكوثر) لاجرم كان يزداد كل يوم أمره ، كأنه تعالى قال يامحمد لم يضيق قلبك ، ألست حين لم تكن مبعوثاً لم أضيعك بل نصرتك بالطير الأبابيل ، وفى أول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة ألن يكفيكم (أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف) ثم الآن أزيد فأقول إنى أكون ناصراً لك بذاتى (إذا جاء نصر الله) فقال إلهى إنما تتم النعمة إذا فتحت لى دار مولدى ومسكنى فقال (والفتح) فقال إلهى لكن القوم إذا خرجوا . فأى لذة فى ذلك فقال (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً) ثم كأنه قال هل تعلم يامحمد بأى سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة إنما وجدتها لأنك قلت فى السورة المتقدمة (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) وهذا يشتمل على أمور ثلاثة (أولها) نصرتنى بلسانك فكان جزاؤه (إذا جاء نصر الله) (وثانيها) فتحت مكة قلبك بعسكر التوحيد فأعطيناك فتح مكة وهو المراد من قوله ، والفتح (والثالث) أدخلت رعية جوارحك وأعضائك فى طاعتى وعبوديتى فأنا أيضاً أدخلت عبادى فى طاعتك ، وهو المراد من قوله (يدخلون فى دين الله أفواجاً) ثم إنك بعد أن وجدت هذه الخلع الثلاثة فابعث إلى حضرتى بثلاث أنواع من العبودية تهادوا تحابوا ، إن نصرتك فسبح ، وإن فتحت مكة فاحمد وإن أسلموا ، فاستغفر ، وإنما وضع فى مقابلة (نصر الله) تسبيحه ، لأن التسبيح هو تنزيه الله عن مشابهة المحدثات ، يعنى تشاهد أنه نصرك ، فإياك أن تظن أنه إنما نصرك لأنك تستحق منه ذلك النصر ، بل اعتقد كونه منزهاً عن أن يستحق عليه أحد من الخلق شيئاً ، ثم جعل فى مقابلة فتح مكة الحمد لأن النعمة لا يمكن أن تقابل إلا بالحمد ، ثم جعل فى مقابلة دخول الناس فى الدين الاستغفار وهو المراد من قوله (واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات) أى كثرة الأتباع مما يشغل

القلب بلذة الجاه والقبول ، فاستغفر لهذا القدر من ذنبك ، واستغفر لذنبهم فإنهم كلما كانوا أكثر كانت ذنوبهم أكثر فكان احتياجهم إلى استغفارك أكثر (الوجه الثانى) أنه عليه السلام لما تبرأ عن الكفر وواجههم بالسوء فى قوله (يا أيها الكافرون) كأنه خاف بعض القوم فقلل من تلك الخشونة فقال (لكم دينكم ولى دين) فقيل يامحمد لا تخف فإنى لا أذهب بك إلى النصر بل أجيء بالنصر إليك (إذا جاء نصر الله) نظيره « زويت لى الأرض » يعنى لا تذهب إلى الأرض بل تجيء الأرض إليك ، فإن سئمت المقام وأردت الرحلة ، فمثلك لا يرتحل إلا إلى قاب قوسين (سبحان الذى أسرى بعبده) بل أزيد على هذا فأفضل فقراء أمتك على أغنيائهم ثم آمر الأغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا فإذا بقى الفقير من غير مطية أسوق الجنة إليه (وأزلفت الجنة للمتقين) (الوجه الثالث) كأنه سبحانه قال يامحمد إن الدنيا لايصفو كدرها ولا تدوم محنها ولا نعيمها فرحت بالكوثر فتحمل مشقة سفاهة السفهاء حيث قالوا اعبد آلهتنا حتى نعبد إلهك فلما تبرأ عنهم وضاق قلبه من جهتهم قال أبشر فقد جاء نصر الله فلما استبشر قال الرحيل الرحيل أما علمت أنه لابد بعد الكمال من الزوال ، فاستغفره أيها الإنسان لاتحزن من جوع الربيع فعقيبه غنى الخريف ولا تفرح بغنى الخريف فعقيبه وحشة الشتاء ، فكذا من تم إقباله لا يبقى له إلا الغير ومنه :

إذا تم أمر دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

إلهى لم فعلت كذلك قال حتى لا تضع قلبك على الدنيا بل تكون أبداً على جناح الارتحال والسفر (الوجه الرابع) لما قال فى آخر السورة المتقدمة (لكم دينكم ولى دين) فكأنه قال إلهى وما جزائى فقال نصر الله فيقول وما جزاء عمى حين دعانى إلى عبادة الأصنام فقال (تبت يدا أبى لهب) فإن قيل فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد ، قلنا لوجوه (أحدها) لأن رحمته سبقت غضبه (والثانى) ليكون الجنس متصلا بالجنس فإنه قال (ولى دين) وهو النصر كقوله (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم) ، (وثالثها) الوفاء بالوعد أهم فى الكرم من الوفاء بالانتقام ، فتأمل فى هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر مانزل بالمدينة وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره (الوجه الخامس) أن فى السورة المتقدمة لم يذكر شيئاً من أسماء الله ، بل قال ما أعبد بلفظ ما ، كأنه قال لا أذكر اسم الله حتى لا يستخفوا فتزداد عقوبتهم ، وفى هذه السورة ذكر أعظم أساميه لأنها منزلة على الأحباب ليكون ثوابهم بقراءته أعظم فكأنه سبحانه قال لاتذكر اسمى مع الكافرين حتى لا يهينوه واذكره مع الأولياء حتى يكرموه (الوجه السادس) قال النحويون إذا منصوب بسبح ، والتقدير فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله . كأنه سبحانه يقول جعلت الوقت ظرفاً لما تريده وهو النصر والفتح والظفر . وملأت ذلك الظرف من هذه

الأشياء ، وبعثته إليك فلا ترده على فارغاً ، بل املأه من العبودية ليتحقق معنى « تهادوا تحابوا » فكأن محمداً عليه السلام قال : بأى شئ أملأ ظرف هديتك وأنا فقير ، فيقول الله فى المعنى : إن لم تجد شيئاً آخر فلا أقل من تحريك اللسان بالتسبيح والحمد والاستغفار ، فلما فعل محمد عليه الصلاة والسلام ذلك حصل معنى تهادوا . لا جرم حصلت المحبة ، فلهذا كان محمد حبيب الله (الوجه السابع) كأنه تعالى يقول : إذا جاءك النصر والفتح ودخول الناس فى دينك ، فاشتغل أنت أيضاً بالتسبيح والحمد والاستغفار ، فإنى قلت « لئن شكرتم لأزيدنكم » فيصير اشتغالك بهذه الطاعات سبباً لمزيد درجاتك فى الدنيا والآخرة ، ولا تزال تكون فى الترقى حتى يصير الوعد بقولى (إنا أعطيناك الكوثر) (الوجه الثامن) أن الإيمان إنما يتم بأمرين : بالنفى والإثبات ، وبالبراءة والولاية . فالنفى والبراءة قوله (لا أعبد ماتعبدون) والإثبات والولاية قوله (إذا جاء نصر الله) فهذه هى الوجوه الكلية المتعلقة بهذه السورة .

واعلم أن فى الآية أسراراً ، وإنما يمكن بيانها فى معرض السؤال والجواب .

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف الفتح على النصر ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب ، والفتح هو تحصيل المطلوب الذى كان متعلقاً ، وظاهر أن النصر كالسبب للفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه (وثانيها) يحتمل أن يقال النصر كمال الدين ، والفتح الإقبال الدنيوى الذى هو تمام النعمة ، ونظير هذه الآية قوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) (وثالثها) النصر هو الظفر فى الدنيا على المنى ، والفتح بالجنة ، كما قال (وفتحت أبوابها) وأظهر الأقوال فى النصر أنه الغلبة على قريش أو على جميع العرب .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن رسول الله ﷺ كان أبداً منصوراً بالدلائل والمعجزات ، فما المعنى من تخصيص لفظ النصر بفتح مكة ؟ (والجواب) من وجهين (أحدهما) المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع ، وإنما جعل لفظ النصر المطلق دالا على هذا النصر المخصوص ، لأن هذا النصر لعظم موقعه من قلوب أهل الدنيا جعل ماقبله كالمعدوم ، كما أن المثاب عند دخول الجنة يتصور كأنه لم يذق نعمة قط ، والى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) ، (وثانيهما) لعل المراد نصر الله فى أمور الدنيا الذى حكم به لأنبيائه كقوله (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ النصر لا يكون إلا من الله ، قال تعالى (وما النصر إلا من عند الله) فما الفائدة فى هذا التقييد وهو قوله (نصر الله) ؟ والجواب معناه نصر لا يليق إلا بالله ولا يليق أن يفعله إلا الله أو لا يليق إلا بحكمته ويقال هذا صنعة زيد إذا كان زيد مشهوراً بإحكام الصنعة ، والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة ، فكذا ههنا . أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم (متى نصر الله) فيقول هذا الذى سألتموه .

﴿ السؤال الرابع ﴾ وصف النصر بالمجيء مجاز وحقيقته إذا وقع نصرالله فما الفائدة فى ترك الحقيقة وذكر المجاز ؟ الجواب فيه إشارات : (إحداها) أن الأمور مربوطة بأوقاتها وأنه سبحانه قدر لحدوث كل حادث أسباباً معينة وأوقاتاً مقدرة يستحيل فيها التقدم والتأخر والتغير والتبدل فإذا حضرذلك الوقت وجاء ذلك الزمان حضرمعه ذلك الأثر وإليه الإشارة بقوله (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم) ، (وثانيها) أن اللفظ دل على أن النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن ذلك النصر كان مستحقاً له بحكم الوعد فالمقتضى كان موجوداً إلا أن تخلف الأثر كان لفقدان الشرط فكان كالثقيل المعلق فان ثقله يوجب الهوى إلا أن العلاقة مانعة فالثقيل يكون كالمشتاق إلى الهوى ، فكذا ههنا النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) أن عالم العدم عالم لا نهاية له وهوعالم الظلمات إلا أن فى قعرها ينبوع الجود والرحمة وهو ينبوع جود الله وإيجاده ، ثم انشعبت بحار الجود والأنوار وأخذت فى السيلان ، وسيلانها يقتضى فى كل حين وصولها إلى موضع ومكان معين فبحاررحمة الله ونصرته كانت آخذة فى السيلان من الأزل فكأنه قيل يامحمد قرب وصولها إليك ومجيئها إليك فاذا جاءتك أمواج هذا البحر فاشتغل بالتسبيح والتحميد والاستغفار فهذه الثلاثة هى السفينة التى لا يمكن الخلاص من بحار الربوبية إلا بها ، ولهذا السبب لما ركب أبوك نوح بحر القهروالكبرياء استعان بقوله (بسم الله مجراها ومرساها) .

﴿ السؤال الخامس ﴾ لا شك أن الذين أعانوا رسول الله ﷺ على فتح مكة هم الصحابة من المهاجرين والأنصار ، ثم إنه سمى نصرتهم لرسول الله (نصر الله) فما السبب فى أن صار الفعل الصادر عنهم مضافاً إلى الله ؟ (الجواب) هذا بحر يتفجر منه بحر سر القضاء والقدر ، وذلك لأن فعلهم فعل الله ، وتقريره أن أفعالهم مسندة إلى ما فى قلوبهم من الدواعى والصوارف ، وتلك الدواعى والصوارف أمور حادثة فلا بد لها من محدث وليس هو العبد ، وإلا لزم التسلسل ، فلا بد وأن يكون هو الله تعالى ، فيكون المبدأ الأول والمؤثر الأبعد هو الله تعالى ، ويكون المبدأ الأقرب هو العبد . فمن هذا الاعتبار صارت النصرة المضافة إلى الصحابة بعينها مضافة إلى الله تعالى ، فإن قيل فعلى هذا التقدير الذى ذكرتم يكون فعل العبد مفرعاً على فعل الله تعالى ، وهذا يخالف النص ، لأنه قال (إن تنصروا الله ينصركم) فجعل نصرنا له مقدماً على نصره لنا (والجواب) أنه لا امتناع فى أن يصدر عن الحق فعل ، فيصير ذلك سبباً لصدور فعل عنا ، ثم الفعل عنا ينساق إلى فعل آخر يصدر عن الرب ، فإن أسباب الحوادث ومسبباتها متسلسلة على ترتيب عجيب يعجز عن إدراك كيفيته أكثر العقول البشرية .

﴿ السؤال السادس ﴾ كلمة (إذا) للمستقبل ، فههنا لما ذكر وعداً مستقبلا بالنصر ، قال (إذا جاء نصر الله) فذكر ذاته باسم الله ، ولما ذكر النصر الماضى حين قال (ولئن جاء نصر من ربك

وَالْفَتْحُ «١»

ليقولن) فذكره بلفظ الرب ، فما السبب فى ذلك ؟ (الجواب) لأنه تعالى بعد وجود الفعل صار رباً ، وقبله ما كان رباً لكن كان إلهاً .

﴿ السؤال السابع ﴾ أنه تعالى قال (إن تنصروا الله ينصركم) وإن محمداً عليه السلام نصر الله حين قال (يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) فكان واجباً بحكم هذا الوعد أن ينصره الله ، فلا جرم قال (إذا جاء نصر الله) فهل نقول بأن هذا النصر كان واجباً عليه ؟ (الجواب) أن ماليس بواجب قد يصير واجباً بالوعد ، ولهذا قيل : وعد الكريم ألزم من دين الغريم ، كيف ويجب على الوالد نصرة ولده ، وعلى المولى نصرة عبده ، بل يجب النصر على الأجنبى إذا تعين بأن كان واحداً اتفاقاً ، وإن كان مشغولا بصلاة نفسه . ثم اجتمعت هذه الأسباب فى حقه تعالى فوعده مع الكرم وهو أرأف بعبده من الوالد بولده والمولى بعبده وهو ولى بحسب الملك ومولى بحسب السلطنة ، وقيوم للتدبير وواحد فرد لا ثانى له فوجب عليه وجوب الكرم نصرة عبده ، فلهذا قال (إذا جاء نصر لله) .

أما قوله تعالى ﴿ والفتح ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ نقل عن ابن عباس أن الفتح هو فتح مكة وهو الفتح الذى يقال له فتح الفتوح روى أنه لما كان صلح الحديبية وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أغار بعض من كان فى عهد قريش على خزاعة وكانوا فى عهد رسول الله ﷺ فجاء سفير ذلك القوم وأخبر رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليه ، ثم قال أما إن هذا العارض ليخبرنى أن الظفر يجىء من الله . ثم قال لأصحابه انظروا فان أبا سفيان يجىء ويلتمس أن يجدد العهد فلم تمض ساعة أن جاء الرجل ملتمساً لذلك فلم يجبه الرسول ولا أكابر الصحابة فالتجأ إلى فاطمة فلم ينفعه ذلك ورجع إلى مكة آيساً وتجهز رسول الله ﷺ إلى المسير لمكة ، ثم يروى أن سارة مولاة بعض بنى هاشم أتت المدينة فقال عليه السلام لها جئت مسلمة ؟ قالت لا لكن كنتم الموالى وبى حاجة ، فحث عليها رسول الله بنى عبد المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فأتاها حاطب بعشرة دنانير واستحملها كتاباً إلى مكة نسخته : اعلموا أن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وعماراً فى جماعة وأمرهم أن يأخذوا الكتاب وإلا فاضربوا عنقها ، فلما أدركوها جحدت وحلفت فسل على عليه السلام سيفه ، وقال والله ما كذبنا فأخرجته من عقيصة شعرها ، واستحضر النبى حاطباً وقال ما حملك عليه ؟ فقال والله ما كفرت منذ أسلمت ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، لكن كنت غريباً فى قريش وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم فخشيت على أهلى فأردت أن أتخذ عندهم يداً ، فقال عمر دعنى أضرب عنق هذا المنافق

فقال ومايدريك ياعمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر ، ثم خرج رسول الله إلى أن نزل بمر الظهران ، وقدم العباس وأبو سفيان إليه فاستأذنا فأذن لعمه خاصة فقال أبو سفيان ، إما أن تأذن لى وإلا أذهب بولدى إلى المفازة فيموت جوعاً وعطشاً فرق قلبه ، فأذن له وقال له : ألم يأن أن تسلم وتوحد ؟ فقال أظن أنه واحد ، ولو كان ههنا غير الله لنصرنا ، فقال : ألم يأن أن تعرف أنى رسوله ؟ فقال إن لى شكا فى ذلك ، فقال العباس : أسلم قبل أن يقتلك عمر . فقال : وماذا أصنع بالعزى ، فقال عمر لولا أنك بين يدى رسول الله لضربت عنقك ، فقال : يا محمد أليس الأولى أن تترك هؤلاء الأوباش وتصالح قومك وعشيرتك ، فسكان مكة عشيرتك وأقاربك ، و[لا] تعرضهم للشن والغارة ، فقال عليه السلام : هؤلاء نصرونى وأعانونى وذبوا عن حريمى ، وأهل مكة أخرجونى وظلمونى ، فإن هم أسروا فبسوء صنيعهم ، وأمر العباس بأن يذهب به ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر ، فكانت الكتيبة تمر عليه ، فيقول من هذا ؟ فيقول العباس هو فلان من أمراء الجند إلى أن جاءت الكتيبة الخضراء التى لايرى منها إلا الحدق ، فسأل عنهم ، فقال العباس : هذا رسول الله ، فقال : لقد أوتى ابن أخيك ملكا عظيما ، فقال العباس : هو النبوة ، فقال هيهات النبوة ، ثم تقدم ودخل مكة ، وقال إن محمداً جاء بعسكر لا يطيقه أحد ، فصاحت هند وقالت : اقتلوا هذا المبشر ، وأخذت بلحيته فصاح الرجل ودفعها عن نفسه ، ولما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر ، وكانوا عشرة آلاف فزع لذلك فزعا شديداً وسأل العباس ، فأخبره بأمر الصلاة ، ودخل رسول الله مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه كالساجد تواضعاً وشكراً ، ثم التمس أبو سفيان الأمان ، فقال من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقال : ومن تسع دارى ، فقال : ومن دخل المسجد فهو آمن فقال : ومن يسع المسجد ، فقال : من ألقى سلاحه فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن ، ثم وقف رسول الله ﷺ على باب المسجد ، وقال : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : يا أهل مكة ما ترون إنى فاعل بكم ، فقالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء فاعتقهم ، ولذلك سمى أهل مكة الطلقاء ، ومن ذلك كان على عليه السلام يقول لمعاوية أنى يستوى المولى والمعتق يعنى اعتقنا كم حين مكننا الله من رقابكم ولم يقل اذهبوا فانتم معتقون ، بل قال : الطلقاء ، لأن المعتق لايجوز أن يرد إلى الرق ، والمطلقة يجوز أن تعاد إلى رق النكاح وكانوا بعد على الكفر ، فكان يجوز أن يخونوا فيستباح رقهم مرة أخرى ولأن الطلاق يخص النسوان ، وقد ألقوا السلاح وأخذوا المساكن كالنسوان ، ولأن المعتق يخلى سبيله يذهب حيث شاء ، والمطلقة تجلس فى البيت للعدة ، وهم أمروا بالجلوس بمكة كالنسوان ، ثم إن القوم بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ، فصاروا يدخلون فى دين الله أفواجا ، روى أنه عليه السلام صلى ثمان ركعات : أربعة صلاة الضحى ، وأربعة أخرى شكر الله نافلة ، فهذا هو

وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا «٢»

قصة فتح مكة ، والمشهور عند المفسرين أن المراد من الفتح فى هذه السورة هو فتح مكة ، ومما يدل على أن المراد بالفتح فتح مكة أنه تعالى ذكره مقروناً بالنصر . وقد كان يجد النصر دون الفتح كبدر ، والفتح دون النصر كاجلاء بنى النضير ، فإنه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم ، أما يوم فتح مكة اجتمع له الأمران النصر والفتح ، وصار الخلق له كالأرقاء حتى أعتقهم (القول الثانى) أن المراد فتح خيبر ، وكان ذلك على يد على عليه السلام ، والقصة مشهورة ، روى أنه استصحب خالد بن الوليد ، وكان يساميه فى الشجاعة ، فلما نصب السلم قال لخالد : أتتقدم ؟ قال لا ، فلما تقدم على عليه السلام سأله كم صعدت ؟ فقال لا أدرى لشدة الخوف ، وروى أنه قال لعلى عليه السلام ألا تصارعنى ، فقال ألست صرعتك ؟ فقال نعم لكن ذاك قبل إسلامى ، ولعل علياً عليه السلام إنما امتنع عن مصارعته ليقع صيته فى الإسلام أنه رجل يمتنع عنه على ، أوكان على يقول صرعتك حين كنت كافراً ، أما الآن وأنت مسلم فلا يحسن أن أصرعك (القول الثالث) أنه فتح الطائف وقصته طويلة (والقول الرابع) المراد النصر على الكفار ، وفتح بلاد الشرك على الإطلاق ، وهو قول أبى مسلم (والقول الخامس) أراد بالفتح ما فتح الله عليه من العلوم ، ومنه قوله (وقل رب زدنى علماً) لكن حصول العلم لا بد وأن يكون مسبوقاً بانشراح الصدر وصفاء القلب ، وذلك هو المراد من قوله (إذا جاء نصر الله) ويمكن أن يكون المراد بنصر الله اعانته على الطاعات والخيرات ، والفتح هو انفتاح عالم المعقولات والروحانيات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فللناس فى وقت نزول هذه السورة قولان (أحدهما) أن فتح مكة كان سنة ثمان ، ونزلت هذه السورة سنة عشر ، وروى أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً ، ولذلك سميت سورة التوديع (والقول الثانى) أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه ، ونظيره قوله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وقوله (إذا جاء نصر الله والفتح) يقتضى الاستقبال ، إذ لا يقال فيما وقع : إذا جاء وإذا وقع ، وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات من حيث إنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقاً له ، والإخبار عن الغيب معجز (فإن قيل) لم ذكر النصر مضافاً إلى الله تعالى . وذكر الفتح بالألف واللام ؟ (الجواب) الألف واللام للمعهود السابق ، فينصرف إلى فتح مكة .

قوله تعالى ﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ رأيت يحتمل أن يكون معناه أبصرت ، وأن يكون معناه علمت ، فإن كان معناه أبصرت كان يدخلون فى محل النصب على الحال ، والتقدير: ورأيت الناس حال دخولهم

فى دين الله أفواجاً ، وإن كان معناه علمت كان يدخلون فى دين الله مفعولا ثانياً لعلمت ، والتقدير : علمت الناس داخلين فى دين الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر لفظ الناس للعموم ، فيقتضى أن يكون كل الناس كانوا قد دخلوا فى الوجود مع أن الأمر ما كان كذلك (الجواب) من وجهين (الأول) أن المقصود من الإنسانية والعقل ، إنما هو الدين والطاعة . على ما قال (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فمن أعرض عن الدين الحق وبقى على الكفر ، فكأنه ليس بإنسان ، وهذا المعنى هو المراد من قوله (أولئك كالأنعام بل هم أضل) وقال (آمنوا كما آمن الناس) وسئل الحسن بن على عليه السلام : من الناس ؟ فقال نحن الناس ، وأشياعنا أشباه الناس ، وأعداؤنا النسناس ، فقبله على عليه السلام بين عينيه ، وقال الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإن قيل إنهم إنما دخلوا فى الإسلام بعد مدة طويلة وتقصير كثير ، فكيف استحقوا هذا المدح العظيم ؟ قلنا هذا فيه إشارة إلى سعة رحمة الله ، فإن العبد بعد أن أتى بالكفر والمعصية طول عمره ، فإذا أتى بالإيمان فى آخر عمره يقبل إيمانه . ويمدحه هذا المدح العظيم ، ويروى أن الملائكة يقولون لمثل هذا الإنسان : أتيت وإن كنت قد أبيت . ويروى أنه عليه السلام قال « لله أفرح بتوبة أحدكم من الضال الواجد ، والظمآن الوارد » والمعنى كان الرب تعالى يقول ربيته سبعين سنة ، فإن مات على كفره فلابد وأن أبعثه إلى النار ، فحينئذ يضيع احسانى إليه فى سبعين سنة ، فكلما كانت مدة الكفر والعصيان أكثر كانت التوبة عنها أشد قبولا (الوجه الثانى) فى الجواب ، روى أن المراد بالناس أهل اليمن ، قال أبو هريرة : لما نزلت هذه السورة ، قال رسول ﷺ «الله أكبر جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية ، وقال أجد نفس ربكم من قبل اليمن » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين إن إيمان المقلد صحيح ، واحتجوا بهذه الآية . قالوا إنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج وجعله من أعظم المنن على محمد عليه السلام ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً لما ذكره فى هذا المعرض ، ثم انا نعلم قطعاً أنهم ما كانوا يعرفون حدوث الأجساد بالدليل ولا إثبات كونه تعالى منزهاً عن الجسمية والمكان والحيز ولا إثبات كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات التى لا نهاية لها ولا إثبات قيام المعجز التام على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا إثبات أن قيام المعجز كيف يدل على الصدق والعلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضرورى ، فعلمنا أن إيمان المقلد صحيح ، ولا يقال إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة ، بل إنما كانوا جاهلين بالتفاصيل إلا أنه ليس من شرط كون الإنسان مستدلا كونه عالماً بهذه التفاصيل ، لأنا نقول إن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان ، فإن الدليل إذا كان مثلا مركباً من عشر مقدمات ، فمن علم تسعة

منها ، وكان فى المقدمة العاشرة مقلداً كان فى النتيجة مقلداً لا محالة لأن فرع التقليد أولى أن يكون تقليداً وإن كان عالماً بمجموع تلك المقدمات العشرة استحال كون غيره أعرف منه بذلك الدليل ، لأن تلك الزيادة إن كانت جزأ معتبراً فى دلالة هذا الدليل لم تكن المقدمات العشرة الأولى تمام الدليل ، فإنه لابد معها من هذه المقدمة الزائدة ، وقد كنا فرضنا تلك العشرة كافية ، وإن لم تكن الزيادة معتبرة فى دلالة ذلك الدليل كان ذلك أمراً منفصلا عن ذلك الدليل غير معتبر فى كونه دليلا على ذلك المدلول ، فثبت أن العلم بكون الدليل دليلا لا يقبل الزيادة والنقصان ، فأما أن يقال إن أولئك الأعراب كانوا عالمين بجميع مقدمات دلائل هذه المسائل بحيث ما شذ عنهم من تلك المقدمات واحدة ، وذلك مكابرة أو ماكانوا كذلك . فحينئذ ثبت أنهم كانوا مقلدين ، ومما يؤكد ماذكرنا ماروى عن الحسن أنه قال لما فتح رسول الله مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا إذا ظفر بأهل الحرم وجب أن يكون على الحق ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، وكل من أرادهم بسوء ثم أخذوا يدخلون فى الإسلام أفواجاً من غير قتال ، هذا ما رواه الحسن ، ومعلوم أن الاستدلال بأنه لما ظفر بأهل مكة وجب أن يكون على الحق ليس بجيد ، فعلمنا أنهم ماكانوا مستدلين بل مقلدين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ دين الله هو الإسلام لقوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) ولقوله (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) وللدين أسماء أخرى ، منها الإيمان قال الله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) ومنها الصراط قال تعالى (صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) ومنها كلمة الله ، ومنها النور (ليطفئوا نور الله) ومنها الهدى لقوله (يهدى به من يشاء) ومنها العروة (فقد استمسك بالعروة الوثقى) ومنها الحبل (واعتصموا بحبل الله) ومنها صبغة الله ، وفطرة الله ، وإنما قال (فى دين الله) ولم يقل فى دين الرب ، ولا سائر الأسماء لوجهين (الأول) أن هذا الاسم أعظم الأسماء لدلالته على الذات والصفات ، فكأنه يقول هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول (والثانى) لو قال دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليك قبوله لأنه رباك ،وأحسن إليك وحينئذ تكون طاعتك له معللة بطلب النفع ، فلا يكون الإخلاص حاصلا ، فكأنه يقول أخلص الخدمة بمجرد أنى إله لا لنفع يعود إليك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفوج الجماعة الكثيرة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ماكانوا يدخلون فيه واحداً واحداً وإثنين إثنين ، وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له مايبكيك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول «دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً» نعوذ بالله من السلب بعد العطاء .

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً «٣»

قوله تعالى ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى أمره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار ، ولهذا الترتيب فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ اعلم أن تأخير النصر سنين مع أن محمداً كان على الحق مما يثقل على القلب ويقع فى القلب أنى إذا كنت على الحق فلم لا تنصرنى ولم سلطت هؤلاء الكفرة على فلأجل الاعتذار عن هذا الخاطر أمر بالتسبيح ، أما على قولنا فالمراد من هذا التنزيه أنك منزه عن أن يستحق أحد عليك شيئاً بل كل ما تفعله فإنما تفعله بحكم المشيئة الإلهية فلك أن تفعل ماتشاء كما تشاء فقائدة التسبيح تنزيه الله عن أن يستحق عليه أحد شيئاً ، وأما على قول المعتزلة ففائدة التنزيه هو أن يعلم العبد أن ذلك التأخير كان بسبب الحكمة والمصلحة لا بسبب البخل وترجيح الباطل على الحق ، ثم إذا فرغ العبد عن تنزيه الله عما لا ينبغى فحينئذ يشتغل بحمده على ما أعطى من الإحسان والبر ، ثم حينئذ يشتغل بالاستغفار لذنوب نفسه (الوجه الثانى) أن للسائرين طريقين فمنهم من قال مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده ، ومنهم من قال ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ، ولا شك أن هذا الطريق أكمل . أما بحسب المعالم الحكمية ، فلأن النزول من المؤثر إلى الأثر أجل مرتبة من الصعود من الأثر إلى المؤثر ، وأما بحسب أفكار أرباب الرياضات فلأن ينبوع النور هو واجب الوجود وينبوع الظلمة ممكن الوجود ، فالاستغراق فى الأول يكون أشرف لا محالة ، ولأن الاستدلال بالأصل على التبع يكون أقوى من الاستدلال بالتبع على الأصل ، وإذا ثبت هذا فنقول : الآية دالة على هذه الطريقة التى هى أشرف الطريقين وذلك لأنه قدم الاشتغال بالخالق على الاشتغال بالنفس فذكر أولا من الخالق أمرين (أحدهما) التسبيح (والثانى) التحميد ، ثم ذكروا فى المرتبة الثالثة الاستغفار وهو حالة ممزوجة من الالتفات إلى الخالق وإلى الخلق .

واعلم أن صفات الحق محصورة فى السلب والإيجاب والنفى والإثبات والسلوب مقدمة على الإيجابات فالتسبيح إشارة إلى التعرض للصفات السلبية التى لواجب الوجود وهى صفات الجلال ، والتحميد إشارة إلى الصفات الثبوتية له ، وهى صفات الإكرام . ولذلك فإن القرآن يدل على تقدم الجلال على الإكرام ، ولما أشار إلى هذين النوعين من الاستغفار بمعرفة واجب الوجود نزل منه إلى الاستغفار لأن الاستغفار فيه رؤية قصور النفس ، وفيه رؤية جود الحق ، وفيه طلب لما هو الأصلح والأكمل للنفس . ومن المعلوم أن بقدر اشتغال العبد بمطالعة غير الله يبقى محروماً عن مطالعة حضرة جلال الله ، فلهذه الدقيقة أخر ذكر الاستغفار عن التسبيح والتحميد (الوجه الثالث) أنه إرشاد للبشر إلى التشبه بالملكية . وذلك لأن أعلى كل نوع أسفل

متصل بأسفل النوع الأعلى ولهذا قيل آخر مراتب الإنسانية أول مراتب الملكية ثم الملائكة ذكروا فى أنفسهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقوله ههنا (فسبح بحمد ربك) إشارة إلى التشبه بالملائكة فى قولهم (ونحن نسبح بحمدك) وقوله ههنا (واستغفره) إشارة إلى قوله تعالى (ونقدس لك) لأنهم فسروا قوله (ونقدس لك) أى نجعل أنفسنا مقدسة لأجل رضاك والاستغفار يرجع معناه أيضاً إلى تقديس النفس ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم ادعوا لأنفسهم أنهم سبحوا بحمدى ورأوا ذلك من أنفسهم . وأما أنت فسبح بحمدى واستغفر من أن ترى تلك الطاعة من نفسك بل يجب أن تراها من توفيقى وإحسانى ، ويحتمل أن يقال الملائكة كما قالوا فى حق أنفسهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) قال الله فى حقهم (ويستغفرون للذين آمنوا) فانت يامحمد استغفر للذين جاؤا أفواجاً كالملائكة يستغفرون للذين آمنوا ويقولون (ربنا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) (الوجه الرابع) التسبيح هو التطهير . فيحتمل أن يكون المراد طهر الكعبة من الأصنام وكسرها ثم قال (بحمد ربك) أى ينبغى أن يكون إقدامك على ذلك التطهير بواسطة الاستغفار بحمد ربك ، وإعانته وتقويته ، ثم إذا فعلت ذلك فلا ينبغى أن ترى نفسك آتياً بالطاعة اللائقة به ، بل يجب أن ترى نفسك فى هذه الحالة مقصرة ، فاطلب الاستغفار عن تقصيرك فى طاعته (والوجه الخامس) كأنه تعالى يقول يامحمد إما أن تكون معصوماً أو لم تكن معصوماً فإن كنت معصوما فاشتغل بالتسبيح والتحميد ، وإن لم تكن معصوماً فاشتغل بالاستغفار فتكون الآية كالتنبيه على أنه لافراغ عن التكليف فى العبودية كما قال (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى المراد من التسبيح وجهان (الأول) أنه ذكر الله بالتنزيه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال تنزيه الله عن كل سوء وأصله من سبح فإن السابح يسبح فى الماء كالطير فى الهواء ويضبط نفسه من أن يرسب فيه فيهلك أو يتلوث من مقر الماء ومجراه والتشديد للتبعيد لأنك تسبحه أى تبعده عما لايجوز عليه ، وإنما حسن استعماله فى تنزيه الله عما لايجوز عليه من صفات الذات والفعل نفياً وإثباتاً لأن السمكة كما أنها لاتقبل النجاسة فكذا الحق سبحانه لايقبل ما لا ينبغى البتة فاللفظ يفيد التنزيه فى الذات والصفات والأفعال (والقول الثانى) أن المراد بالتسبيح الصلاة لأن هذا اللفظ وارد فى القرآن بمعنى الصلاة قال تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقال (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) والذى يؤكده أن هذه السورة من آخر مانزل . وكان عليه السلام فى آخر مرضه يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » جعل يلجلجها فى صدره وما يقبض بها لسانه ، ثم قال بعضهم : عنى به صلاة الشكر صلاها يوم الفتح ثمان ركعات » وقال آخرون هى صلاة الضحى . وقال آخرون : صلى ثمان ركعات أربعة للشكر وأربعة للضحى وتسمية الصلاة بالتسبيح لما أنها لاتنفك عنه (وفيه تنبيه) على أنه يجب تنزيه صلاتك عن أنواع النقائص فى الأقوال والأفعال ، واحتج

أصحاب القول الأول بالأخبار الكثيرة الواردة فى ذلك ، روت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك . وقالت أيضاً كان الرسول يقول كثيراً فى ركوعه سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفرلى وعنها أيضاً كان نبى الله فى آخر أمره لايقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجىء إلا قال سبحان الله وبحمده فقلت يارسول الله إنك تكثر من قول سبحان الله وبحمده قال إنى أمرت بها . وقرأ (إذا جاء نصر الله) وعن ابن مسعود « لما نزلت هذه السورة كان عليه السلام يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الغفور » وروى أنه قال « إنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد حيث جعل كافياً فى أداء ماوجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح ، ولم لا يكون كذلك وقوله « الصوم لى » من أعظم الفضائل للصوم فانه أضافه إلى ذاته ، ثم إنه جعل صدف الصلاة مساوياً للصوم فى هذا التشريف (وأن المساجد لله) فهذا يدل على أن الصلاة أفضل من الصوم بكثير ، ثم إن الصلاة صدف للأذكار ولذلك قال (ولذكر الله أكبر) وكيف لايكون كذلك ،والثناء عليه بما مدحه معلوم عقلاوشرعاً . أما كيفية الصلاة فلاسبيل إليها إلا بالشرع ولذلك جعلت الصلاة كالمرصعة من التسبيح والتكبير . فإن قيل عدم وجوب التسبيحات يقتضى أنها أقل درجة من سائر أعمال الصلاة . قلنا الجواب عنه من وجوه : (أحدها) أن سائر أفعال الصلاة مما لايميل القلب إليه فاحتيج فيها إلى الإيجاب أما التسبيح والتهليل فالعقل داع إليه والروح عاشق عليه فاكتفى بالحب الطبيعى ولذلك قال (والذين آمنوا أشد حباً لله) ، (وثانيها) أن قوله (فسبح) أمر والأمر المطلق للوجوب عند الفقهاء ، ومن قال الأمر المطلق للندب قال إنه ههنا للوجوب بقرينة أنه عطف عليه الاستغفار والاستغفار واجب ومن حق العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه (وثالثها) أنها لو وجبت لكان العقاب الحاصل بتركها أعظم إظهاراً لمزيد تعظيمها فترك الإيجاب خوفاً من هذا المحذور .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أما الحمد فقد تقدم تفسيره . وأما تفسير قوله (فسبح بحمد ربك) فذكروا فيه وجوهاً : (أحدها) قال صاحب الكشاف أى قل (سبحان الله والحمد لله) متعجباً مما أراك من عجيب انعامه أى اجمع بينهما تقول شربت الماء باللبن إذا جمعت بينهما خلطاً وشرباً (وثانيها) أنك إذا حمدت الله فقد سبحته لأن التسبيح داخل فى الحمد لأن الثناء عليه والشكر له لابد وأن يتضمن تنزيهه عن النقائص لأنه لايكون مستحقاً للثناء إلا إذا كان منزهاً عن النقص ولذلك جعل مفتاح القرآن بالحمد لله وعند فتح مكة قال الحمد لله الذى نصرعبده ، ولم يفتتح كلامه بالتسبيح فقوله (فسبح بحمد ربك) معناه سبحه بواسطة أن تحمده أى سبحه بهذا الطريق (وثالثها)

أن يكون حالا ، ومعناه سبح حامداً كقولك اخرج بسلاحك أى متسلحاً (ورابعها) يجوز أن يكون معناه سبح مقدرا أن تحمد بعد التسبيح كأنه يقول لا يتأتى لك الجمع لفظاً فاجمعهما نية كما أنك يوم النحر تنوى الصلاة مقدراً أن تنحر بعدها ، فيجتمع لك الثوابان فى تلك الساعة كذا ههنا (وخامسها) أن تكون هذه الباء هى التى فى قولك : فعلت هذا بفضل الله ، أى سبحه بحمد الله وإرشاده وإنعامه ، لا بحمد غيره . ونظيره فى حديث الإفك قول عائشة « بحمد الله لا بحمدك » والمعنى : فسبحه بحمده ، فإنه الذى هداك دون غيره ، ولذلك روى أنه عليه السلام كان يقول « الحمد لله على الحمد لله » (وسادسها) روى السدى بحمد ربك ، أى بأمر ربك (وسابعها) أن تكون الباء صلة زائدة ، ويكون التقدير : سبح حمد ربك ، ثم فيه احتمالات (أحدها) اختر له أطهر المحامد وأزكاها (والثانى) طهر محامد ربك عن الرياء والسمعة ، والتوسل بذكرها إلى الأغراض الدنيوية الفاسدة (والثالث) طهر محامد ربك عن أن تقول جئت بها كما يليق به . وإليه الإشارة بقوله (وما قدروا الله حق قدره) (وثامنها) أى ائت بالتسبيح بدلا عن الحمد الواجب عليك ، وذلك لأن الحمد إنما يجب فى مقابلة النعم . ونعم الله علينا غير متناهية ، فحمدها لا يكون فى وسع البشر ، ولذلك قال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فكأنه تعالى يقول : أنت عاجز عن الحمد ، فأت بالتسبيح والتنزيه بدلا عن الحمد (وتاسعها) فيه إشارة إلى أن التسبيح والحمد أمران لا يجوز تأخير أحدهما عن الثانى ، ولا يتصور أيضاً أن يؤتى بهما معاً ، فنظيره من ثبت له حق الشفعة وحق الرد بالعيب ، وجب أن يقول : اخترت الشفعة بردى ذلك المبيع ، كذا قال (فسبح بحمد ربك) ليقعا معاً ، فيصير حامداً مسبحاً فى وقت واحد معاً (وعاشرها) أن يكون المراد سبح قلبك ، أى طهر قلبك بواسطة مطالعة حمد ربك ، فإنك إذا رأيت أن الكل من الله ، فقد طهرت قلبك عن الالتفات إلى نفسك وسعيك وجهدك ، فقوله (فسبح) إشارة إلى نفى ما سوى الله تعالى ، وقوله (بحمد ربك) إشارة إلى رؤية كل الأشياء من الله تعالى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى قوله (واستغفره) وجوه (أحدها) لعله عليه السلام كان يتمنى أن ينتقم ممن آذاه ، ويسأل الله أن ينصره ، فلما سمع (إذا جاء نصر الله) استبشر ، لكن لو قرن بهذه البشارة شرط أن لا ينتقم لتنغصت عليه تلك البشارة ، فذكر لفظ الناس وأنهم يدخلون فى دين الله وأمره بأن يستغفر للداخلين لكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبى ﷺ بهذا الطريق أنه تعالى ندبه إلى العفو وترك الانتقام ، لأنه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم ؟ ثم ختم بلفظ التواب كأنه يقول إن قبول التوبة حرفته فكل من طلب منه التوبة أعطاه كما أن البياع حرفته بيع الأمتعة التى عنده فكل من طلب منه شيئاً من تلك الأمتعة باعه منه ، سواء كان المشترى عدواً أو ولياً ، فكذا الرب سبحانه يقبل التوبة سواء كان التائب مكياً أو مدنياً ، ثم إنه عليه السلام امتثل أمر الرب تعالى فحين قالوا له أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم

(لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) أى أمرنى أن أستغفر لكم فلا يجوز أن يردنى (وثانيها) أن قوله (واستغفره) إما أن يكون المراد واستغفر الله لنفسك أو لأمتك ، فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع على أنه هل صدرت عنه معصية أم لا فمن قال صدرت المعصية عنه ذكر فى فائدة الاستغفار وجوهاً : (أحدها) أنه لا يمتنع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر فى جعل ذنبه صغيرة (وثانيها) لزمه الاستغفار لينجو عن ذنب الإصرار (وثالثها) لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابراً للذنب الصغير فلا ينتقض من ثوابه شىء أصلا ، وأما من قال ما صدرت المعصية عنه فذكر فى هذا الاستغفار وجوهاً : (أحدها) أن استغفار النبى جار مجرى التسبيح وذلك لأنه وصف الله بأنه غفار (وثانيها) تعبده الله بذلك ليقتدى به غيره إذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه فى عبادته ، وفيه تنبيه على أنه مع شدة اجتهاده وعصمته ماكان يستغنى عن الاستغفار فكيف من دونه (وثالثها) أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل (ورابعها) أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتى بها العبد وإذا قابلها بإحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة ، فليستغفر الله لأجل ذلك (وخامسها) الاستغفار بسبب التقصير الواقع فى السلوك لأن السائر إلى الله إذا وصل إلى مقام فى العبودية ، ثم تجاوز عنه فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصراً فيستغفر الله عنه ، ولما كانت مراتب السير إلى الله غير متناهية لا جرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية ، أما الاحتمال (الثانى) وهو أن يكون المراد واستغفر لذنب أمتك فهو أيضاً ظاهر، لأنه تعالى أمره بالاستغفار لذنب أمته فى قوله (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فههنا لما كثرت الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب وأهم ، وهكذا إذا قلنا المراد ههنا أن يستغفر لنفسه ولأمته .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى الآية إشكال ، وهو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات ، ثم الحمد مقدم على التسبيح ، لأن الحمد يكون بسبب الإنعام ، والإنعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره ، فكان ينبغى أن يقع الابتداء بالاستغفار ، ثم بعده يذكر الحمد ، ثم بعده يذكر التسبيح ، فما السبب فى أن صار مذكوراً على العكس من هذا الترتيب ؟ (وجوابه) من وجوه (أولها) لعله ابتدأ بالأشرف ، فالأشرف نازلا إلى الأخس فالأخس ، تنبيهاً على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق (وثانيها) فيه تنبيه على أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلا بجلال الله وعزته صار عين الذنب ، فوجب الاستغفار منه (وثالثها) التسبيح والحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق [الله] ، والأول كالصلاة ، والثانى كالزكاة ، وكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة ، فكذا ههنا .

﴿ المسألة السابعة ﴾ الآية تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح والاستغفار ، وذلك من وجوه (أحدها) أنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بإبلاغ السورة

إلى كل الأمة حتى يبقى نقل القرآن متواتراً ، وحتى نعلم أنه أحسن القيام بتبليغ الوحي ، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح والاستغفار على وجه الإظهار ليحصل هذا الغرض (وثانيها) أنه من جملة المقاصد أن يصير الرسول قدوة للأمة حتى يفعلوا عند النعمة والمحنة ، ما فعله الرسول من تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة (وثالثها) أن الأغلب فى الشاهد أن يأتى بالحمد فى ابتداء الأمر ، فأمر الله رسوله بالحمد والاستغفار دائماً ، وفى كل حين وأوان ليقع الفرق بينه وبين غيره ، ثم قال واستغفره حين نعيت نفسه إليه ليفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ فى الآية سؤالات (أحدها) وهو أنه قال (إنه كان تواباً) على الماضى وحاجتنا إلى قبوله فى المستقبل (وثانيها) هلا قال غفاراً كما قاله فى سورة نوح (وثالثها) أنه قال (نصر الله) وقال (فى دين الله) فلم لم يقل بحمد الله بل قال (بحمد ربك) (والجواب) عن الأول من وجوه (أحدها) أن هذا أبلغ كأنه يقول ألست أثنيت عليكم بأنكم (خير أمة أخرجت للناس) ثم من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة ، وفلق البحر ونتق الجبل ، ونزول المن والسلوى عصوا ربهم . وأتوا بالقبائح ، فلما تابوا قبلت توبتهم فإذا كنت قابلا للتوبة ممن دونكم أفلا أقبلها منكم (وثانيها) منذ كثير كنت شرعت فى قبول توبة العصاة والشروع ملزم على قبول النعمان فكيف فى كرم الرحمن (وثالثها) كنت تواباً قبل أن آمركم بالاستغفار أفلا أقبل وقد أمرتكم بالاستغفار (ورابعها) كأنه إشارة إلى تخفيف جنايتهم أى لستم بأول من جنى وتاب بل هو حرفتى ، والجناية مصيبة للجانى والمصيبة إذا عمت خفت (وخامسها) كأنه نظير ما يقال :

لقد أحسن الله فيما مضى   كذلك يحسن فيما بقى

(والجواب) عن السؤال الثانى من وجوه (أحدها) لعله خص هذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال فى صفات العبد غفار ، ويقال تواب إذا كان آتياً بالتوبة ، فيقول تعالى كنت لى سمياً من أول الأمر أنت مؤمن ، وأنا مؤمن ، وإن كان المعنى مختلفاً فتب حتى تصير سمياً لى فى آخر الأمر . فأنت تواب ، وأنا تواب ، ثم إن التواب فى حق الله ، هو أنه تعالى يقبل التوبة كثيراً فنبه على أنه يجب على العبد أن يكون إتيانه بالتوبة كثيراً (وثانيها) إنما قيل تواباً لأن القائل قد يقول أستغفر الله وليس بتائب ، ومنه قوله «المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستهزىء بربه» إن قيل فقد يقول أتوب ، وليس بتائب ، قلنا فإذاً يكون كاذباً ، لأن التوبة اسم للرجوع والندم ، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذباً فيه . فصار تقدير الكلام ، واستغفره بالتوبة ، وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار ، وكذا خواتيم الأعمار ، وروى أنه لم يجلس مجلساً إلا ختمه بالاستغفار (والجواب) عن السؤال الثالث أنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين (أحدهما) الرب (والثانى) التواب ، ولما كانت التربية تحصل أولا والتوابية آخراً ، لاجرم ذكر اسم الرب أولا واسم التواب آخراً .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ الصحابة اتفقوا على أن هذه السورة دلت على أنه نعى لرسول الله ﷺ روى أن العباس عرف ذلك وبكى فقال النبى صلى الله عليه وسلم مايبكيك فقال نعيت إليك نفسك فقال الأمر كما تقول ، وقيل إن ابن عباس هو الذى قال ذلك فقال عليه الصلاة والسلام «لقد أوتى هذا الغلام علماً كثيراً» روى أن عمر كان يعظم ابن عباس ويقربه ويأذن له مع أهل بدر ، فقال عبدالرحمن أتأذن لهذا الفتى معنا ، وفى أبنائنا من هو مثله ؟ فقال لأنه ممن قد علمتم قال ابن عباس فأذن لهم ذات يوم وأذن لى معهم فسألهم عن قول الله (إذا جاء نصر الله) وكأنه ماسألهم إلا من أجلى فقال بعضهم أمر الله نبيه إذا فتح أن يستغفره ويتوب إليه ، فقلت ليس كذلك ولكن نعيت إليه نفسه فقال عمر ما أعلم منها إلا مثل ماتعلم ، ثم قال كيف تلوموني عليه بعد ماترون . وروى أنه لما نزلت هذه السورة خطب وقال «إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لقائه والآخرة فاختار لقاء الله» فقال السائل وكيف دلت هذه السورة على هذا المعنى ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) قال بعضهم إنما عرفوا ذلك لما روينا أن الرسول خطب عقيب السورة وذكر التخيير (وثانيها) أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس فى الدين أفواجاً دل ذلك على حصول الكمال والتمام ، وذلك يعقبه الزوال كما قيل :

إذا تم شيء دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

(وثالثها) أنه أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل ، وذلك يوجب الموت لأنه لو بقى بعد ذلك لكان كالمعزول عن الرسالة وأنه غير جائز (ورابعها) قوله (واستغفره) تنبيه على قرب الأجل كأنه يقول قرب الوقت ودنا الرحيل فتأهب للأمر . ونبهه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة (وخامسها) كأنه قيل له كان منتهى مطلوبك فى الدنيا هذا الذى وجدته ، وهو النصر والفتح والاستيلاء ، والله تعالى وعدك بقوله « وللآخرة خير لك من الأولى » فلما وجدت أقصى مرادك فى الدنيا فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ ذكرنا أن الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة . وأما الذين قالوا إنها نزلت بعد فتح مكة ، فذكر الماوردى أنه عليه السلام لم يلبث بعد نزول هذه السورة إلا ستين يوماً مستديماً للتسبيح والاستغفار ، وقال مقاتل عاش بعدها حولا ونزل (اليوم أكملت لكم دينكم) فعاش بعده ثمانين يوماً ثم نزل آية الكلالة ، فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزل (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً ثم نزل (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) فعاش بعدها أحد عشر يوماً وفى رواية أخرى عاش بعدها سبعة أيام ، والله أعلم كيف كان ذلك .

سورة أبي لهب

﴿ خمس آيات مكية بالاتفاق ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أنه تعالى قال (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ثم بين فى سورة (قل يا أيها الـكافرون) أن محمداً عليه الصلاة والسلام أطاع ربه وصرح بنفى عبادة الشركاء والأضداد وأن الـكافر عصى ربه واشتغل بعبادة الأضداد والأنداد ، فكأنه قيل : إلهنا ما ثواب المطيع ، وما عقاب العاصى ؟ فقال ثواب المطيع حصول النصر والفتح والاستعلاء فى الدنيا والثواب الجزيل فى العقبى ، كما دل عليه سورة (إذا جاء نصر الله) وأما عقاب العاصى فهو الخسار فى الدنيا والعقاب العظيم فى العقبى كما دلت عليه سورة (تبت) ونظيره قوله تعالى فى آخر سورة الأنعام (وهو الذى جعلـكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فكأنه قيل إلهنا أنت الجواد المنزه عن البخل والقادر المنزه عن العجز ، فما السبب فى هذا التفاوت ؟ فقال (ليبلوكم فيما آتاكم) فكأنه قيل إلهنا فإذا كان العبد مذنباً عاصياً فكيف حاله ؟ فقال فى الجواب (إن ربك سريع العقاب) وإن كان مطيعاً منقاداً كان جزاؤه أن الرب تعالى يكون غفوراً لسيئاته فى الدنيا رحيما كريما فى الآخرة ، وذكروا فى سبب نزول هذه السورة وجوهاً (أحدها) قال ابن عباس كان رسول الله يكتم أمره فى أول المبعث ويصلى فى شعاب مكة ثلاث سنين إلى أن نزل قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) فصعد الصفا ونادى يا آل غالب فخرجت إليه غالب من المسجد فقال أبو لهب هذه غالب قد أتتك فما عندك ؟ ثم نادى يا آل لؤى فرجع من لم يكن من لؤى فقال أبو لهب هذه لؤى قد أتتك فما عندك ؟ ثم قال يا آل مرة فرجع من لم يكن من مرة ، فقال أبو لهب هذه مرة قد أتتك فما عندك ؟ ثم قال يا آل كلاب ، ثم قال بعده يا آل قصى . فقال أبو لهب هذه قصى قد أتتك فما عندك ؟ فقال إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وأنتم الأقربون ، اعلموا أنى لا أملك لكم من الدنيا حظاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فأشهد بها لكم عند ربكم فقال أبو لهب عند ذلك تباً لك ألهذا دعوتنا ، فنزلت السورة (وثانيها) روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الصفا ذات يوم وقال ياصباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالك؟ قال أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا بلى قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال عند ذلك أبو لهب ماقال فنزلت السورة (وثالثها) أنه جمع أعمامه وقدم إليهم طعاماً فى صحفة فاستحقروه وقالوا إن أحدنا يأكل كل الشاة ، فقال كلوا فأكلوا حتى شبعوا ولم ينقص من الطعام إلا اليسير ، ثم قالوا فما عندك ؟ فدعاهم إلى الإسلام فقال أبو لهب ماقال ، وروى أنه قال أبو لهب فمالى إن أسلمت فقال ماللمسلمين , فقال أفلا أفضل عليهم ؟ فقال

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

النبى عليه الصلاة والسلام بماذا تفضل ! فقال تباً لهذا الدين يستوى فيه أنا وغيرى (ورابعها) كان إذا وفد على النبى وفد سألوا عمه عنه وقالوا أنت أعلم به فيقول لهم إنه ساحر فيرجعون عنه ولا يلقونه ، فأتاه وفد فقال لهم مثل ذلك فقالوا لا ننصرف حتى نراه فقال إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتباً له وتعساً ، وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فحزن ونزلت السورة .

قوله تعالى ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ اعلم أن قوله (تبت) فيه أقاويل (أحدها) التباب الهلاك ، ومنه قولهم شابة أم تابة أى هالكة من الهرم ، ونظيره قوله تعالى (وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى فى هلاك ، والذى يقرر ذلك أن الأعرابى لما واقع أهله فى نهار رمضان قال : هلكت وأهلكت ، ثم إن النبى عليه الصلاة والسلام ما أنكر ذلك ، فدل على أنه كان صادقاً فى ذلك ، ولا شك أن العمل إما أن يكون داخلا فى الإيمان ، أو إن كان داخلا لكنه أضعف أجزائه ، فإذا كان بترك العمل حصل الهلاك ، ففى حق أبى لهب حصل ترك الاعتقاد والقول والعمل ، وحصل وجود الاعتقاد الباطل ، والقول الباطل ، والعمل الباطل ، فكيف يعقل أن لا يحصل معنى الهلاك ، فلهذا قال (تبت) (وثانيها) تبت خسرت ، والتباب هو الخسران المفضى إلى الهلاك ، ومنه قوله تعالى (وما زادوهم غير تتبيب) أى تخسير بدليل أنه قال فى موضع آخر غير تخسير (وثالثها) تبت خابت ، قال ابن عباس لأنه كان يدفع القوم عنه بقوله إنه ساحر ، فينصرفون عنه قبل لقائه لأنه كان شيخ القبيلة وكان له كالأب فكان لا يتهم ، فلما نزلت السورة وسمع بها غضب وأظهر العداوة الشديدة فصار متهماً فلم يقبل قوله فى الرسول بعد ذلك ، فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه ، ولعله إنما ذكر اليد لأنه كان يضرب بيده على كتف الوافد عليه ، فيقول انصرف راشداً فانه مجنون ، فإن المعتاد أن من يصرف إنساناً عن موضع وضع يده على كتفه ودفعه عن ذلك الموضع (ورابعها) عن عطاء تبت أى غلبت لأنه كان يعتقد أن يده هى العليا وأنه يخرجه من مكة ويذله ويغلب عليه (وخامسها) عن ابن وثاب : صفرت يداه عن كل خير ، إن قيل مافائدة ذكر اليد ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) ما يروى أنه أخذ حجراً ليرمى به رسول الله ، روى عن طارق المحاربى أنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السوق يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقبيه ،

وَتَبَّ «١»

لا تطيعوه فإنه كذاب ، فتمات من هذا ، فقالوا : محمد وعمه أبولهب (وثانيها) المراد من اليدين الجملة كقوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك) ومنه قولهم : يداك أوكتا ، وقوله تعالى (مما عملت أيدينا) وهذا التأويل متأكد بقوله (وتب) (وثالثها) تبت يداه أى دينه ودنياه أولاه وعقباه ، أو لأن بإحدى اليدين تجر المنفعة ، وبالأخرى تدفع المضرة ، أو لأن اليمنى سلاح والأخرى جنة (ورابعها) روى أنه عليه السلام لما دعاه نهاراً فأبى . فلما جن الليل ذهب إلى داره مستناً بسنة نوح ليدعوه ليلا كما دعاه نهاراً ، فلما دخل عليه قال له جئتنى معتذراً فجلس النبي عليه السلام أمامه كالمحتاج ، وجعل يدعوه إلى الإسلام وقال : إن كان يمنعك العار فأجبنى فى هذا الوقت واسكت ، فقال لا أومن بك حتى يؤمن بك هذا الجدى ، فقال عليه الصلاة والسلام للجدى : من أنا ؟ فقال رسول الله . وأطلق لسانه يثنى عليه ، فاستولى الحسد على أبى لهب ، فأخذ يدى الجدى ومزقه وقال : تباً لك أثر فيك السحر ، فقال : الجدى . بل تباً لك ، فنزلت السورة على وفق ذلك (تبت يدا أبى لهب) لتمزيقه يدى الجدى (وخامسها) قال محمد بن إسحق : يروى أن أبالهب كان يقول : يعدنى محمد أشياء ، لا أرى أنها كائنة يزعم أنها بعد الموت ، فلم يضع فى يدى من ذلك شيئاً ، ثم ينفخ فى يديه ويقول : تباً لكما ما أرى فيكما شيئاً ، فنزلت السورة .

أما قوله تعالى ﴿ وتب ﴾ ففيه وجوه (أحدها) أنه أخرج الأول مخرج الدعاء عليه كقوله (قتل الإنسان ما أكفره) والثانى مخرج الخبر أى كان ذلك وحصل ، ويؤيده قراءة ابن مسعود وقد تب (وثانيها) كل واحد منهما إخبار ولكن أراد بالأول هلاك عمله ، وبالثانى هلاك نفسه ووجهه أن المرء إنما يسعى لمصلحة نفسه وعمله ، فأخبر الله تعالى أنه محروم من الأمرين (وثالثها) (تبت يدا أبى لهب) يعنى ماله ومنه يقال ذات اليد (وتب) هو بنفسه كما يقال (خسروا أنفسهم وأهليهم) وهو قول أبى مسلم (ورابعها) (تبت يدا أبى لهب) يعنى نفسه (وتب) يعنى ولده عتبة على ما روى أن عتبة بن أبى لهب خرج إلى الشأم مع أناس من قريش فلما هموا أن يرجعوا قال لهم عتبة بلغوا محمداً عنى أنى قد كفرت بالنجم إذا هوى . وروى أنه قال ذلك فى وجه رسول الله وتفل فى وجهه ، وكان مبالغاً فى عداوته . فقال اللهم سلط عليه كلباً من كلابك فوقع الرعب فى قلب عتبة وكان يحترز فسار ليلة من الليالى فلما كان قريباً من الصبح ، فقال له أصحابه هلكت الركاب فما زالوا به حتى نزل وهو مرعوب وأناخ الإبل حوله كالسرادق فسلط الله عليه الأسد وألقى السكينة على الإبل فجعل الأسد يتخلل حتى افترسه ومزقه ، فإن قيل نزول هذه السورة كان قبل هذه الواقعة ، وقوله (وتب) إخبار عن الماضى ، فكيف يحمل عليه ؟ قلنا لأنه كان فى معلومه تعالى أنه يحصل ذلك

(وخامسها) (تبت يدا أبى لهب) حيث لم يعرف حق ربه (وتب) حيث لم يعرف حق رسوله وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لماذا كناه مع أنه كالكذب إذ لم يكن له ولد اسمه لهب ، وأيضاً فالتكنية من باب التعظيم ؟ (والجواب) عن الأول أن التكنية قد تكون اسماً ، ويؤيده قراءة من قرأ تبت يدا أبو لهب كما يقال على بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان ، فإن هؤلاء أسماؤهم كناهم ، وأما معنى التعظيم فأجيب عنه من وجوه (أحدها) أنه لما كان اسما خرج عن إفادة التعظيم (والثانى) أنه كان اسمه عبد العزى فعدل عنه إلى كنيته (والثالث) أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته ، فكان جديراً بأن يذكر بها ، ويقال أبو لهب كما يقال أبو الشر للشرير وأبو الخير للخير (الرابع) كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، فيجوز أن يذكر بذلك تهكما به واحتقاراً له .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان نبى الرحمة والخلق العظيم ، فكيف يليق به أن يشافه عمه بهذا التغليظ الشديد ، وكان نوح مع أنه فى نهاية التغليظ على الكفار قال فى ابنه الكافر إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق ، وكان ابراهيم عليه السلام يخاطب أباه بالشفقة فى قوله يا أبت يا أبت وأبوه كان يخاطبه بالتغليظ الشديد ، ولما قال له (لأرجمنك واهجرنى مليا) قال (سلام عليك سأستغفر لك ربى) وأما موسى عليه السلام فلما بعثه إلى فرعون قال له ولهرون (فقولا له قولا ليناً) مع أن جرم فرعون كان أغلظ من جرم أبى لهب ، كيف ومن شرع محمد عليه الصلاة والسلام أن الأب لا يقتل بابنه قصاصاً ولا يقيم الرجم عليه وإن خاصمه أبوه وهو كافر فى الحرب فلا يقتله بل يدفعه عن نفسه حتى يقتله غيره (والجواب) من وجوه (أحدها) أنه كان يصرف الناس عن محمد عليه الصلاة والسلام بقوله : إنه مجنون والناس ماكانوا يتهمونه ، لأنه كان كالأب له ، فصار ذلك كالمانع من أداء الرساله إلى الخلق فشافهه الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة ، فصار بسبب تلك العداوة متهماً فى القدح فى محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك (وثانيها) أن الحكمة فى ذلك ، أن محمداً لو كان يداهن أحداً فى الدين ويسامحه فيه ، لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمه الذى هو قائم مقام أبيه ، فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الأطماع وعلم كل أحد أنه لا يسامح أحداً فى شيء يتعلق بالدين أصلا (وثالثها) أن الوجه الذى ذكرتم كالمتعارض ، فإن كونه عماً يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه . فلما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة ، لا جرم استحق التغليظ العظيم .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما السبب فى أنه لم يقل قل (تبت يدا أبى لهب وتب) وقال فى سورة الكافرون (قل يا أيها الكافرون) ؟ (الجواب) من وجوه (الأول) لأن قرابة العمومة تقتضى

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ «٢»

رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له قل ذلك لئلا يكون مشافهاً لعمه بالشتم بخلاف السورة الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعماماً له (الثانى) أن الكفار فى تلك السورة طعنوا فى الله فقال الله تعالى يا محمد أجب عنهم (قل يا أيها الكافرون) وفى هذه السورة طعنوا فى محمد ، فقال الله تعالى أسكت أنت فإنى أشتمهم (تبت يدا أبى لهب) (الثالث) لما شتموك ، فاسكت حتى تندرج تحت هذه الآية (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وإذا سكت أنت أكون أنا المجيب عنك ، يروى أن أبا بكر كان يؤذيه واحد فبقى ساكتا ، فجعل الرسول يدفع ذلك الشاتم ويزجره ، فلما شرع أبو بكر فى الجواب سكت الرسول ، فقال أبو بكر : ما السبب فى ذلك ؟ قال : لأنك حين كنت ساكتاً كان الملك يجيب عنك ، فلما شرعت فى الجواب انصرف الملك وجاء الشيطان .

واعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى على أن من لا يشافه السفيه كان الله ذاباً عنه وناصراً له ومعيناً .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما الوجه فى قراءة عبدالله بن كثير المكى حيث كان يقرأ (أبى لهب) ساكنة الهاء ؟ (الجواب) قال أبو على يشبه أن يكون لهب ولهب لغتين كالشمع والشمع والنهر والنهر ، وأجمعوا فى قوله (سيصلى ناراً ذات لهب) على فتح الهاء ، وكذا قوله (ولا يغنى من اللهب) وذلك يدل على أن الفتح أوجه من الإسكان . وقال غيره إنما اتفقوا على الفتح فى الثانية مراعاة لوفاق الفواصل .

قوله تعالى ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما فى قوله (ما اغنى) يحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار ، ويحتمل أن يكون نفياً ، وعلى التقدير الأول يكون المعنى أى تأثير كان لماله وكسبه فى دفع البلاء عنه ، فإنه لا أحد أكثر مالا من قارون فهل دفع الموت عنه(١) ، ولا أعظم ملكا من سليمان فهل دفع الموت عنه ، وعلى التقدير الثانى يكون ذلك إخباراً بأن المال والكسب لا ينفع فى ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما كسب مرفوع وما موصولة أو مصدرية يعنى مكسوبه أو كسبه . يروى أنه كان يقول إن كان ما يقول ابن أخى حقاً فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وأولادى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ثم ذكروا فى المعنى وجوهاً : (أحدها) لم ينفعه ماله وما كسب بماله يعنى رأس المال والأرباح (وثانيها) أن المال هو الماشية وما كسب من نسلها ، ونتاجها ، فإنه كان صاحب النعم والنتاج (وثالثها) (ماله) الذى ورثه من أبيه والذى كسبه بنفسه (ورابعها) قال ابن عباس (ما كسب) ولده ، والدليل عليه قوله عليه السلام « إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » وقال عليه السلام « أنت ومالك لأبيك » وروى أن بنى أبى لهب احتكموا إليه فاقتتلوا فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع ، فغضب فقال أخرجوا عنى الكسب

(١) المناسب هنا أن يقول فهل دفع الخسف عنه . للذى تنص عليه الآية الكريمة (فخسفنا به وبداره الأرض) .

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ «٣»

الخبيث (وخامسها) قال الضحاك ما ينفعه ماله وعمله الخبيث يعنى كيده فى عداوة رسول الله (وسادسها) قال قتادة (وما كسب) أى عمله الذى ظن أنه منه على شىء. كقوله (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال ههنا (ما أغنى عنه ماله وما كسب) وقال فى سورة (والليل إذا يغشى) . (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) فما الفرق ؟ (الجواب) التعبير بلفظ الماضى يكون آكد كقوله (ما أغنى عنى ماليه) وقوله (أتى أمر الله) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما أغنى عنه ماله وكسبه فماذا ؟ (الجواب) قال بعضهم فى عداوة الرسول فلم يغلب عليه ، وقال بعضهم بل لم يغنيا عنه فى دفع النار ولذلك قال (سيصلى) .

قوله تعالى ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما أخبر تعالى عن حال أبى لهب فى الماضى بالتباب وبأنه ما أغنى عنه ماله وكسبه ، أخبر عن حاله فى المستقبل بأنه (سيصلى ناراً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (سيصلى) قرىء بفتح الياء وبضمها مخففاً ومشدداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآيات تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه (أحدها) الإخبار عنه بالتباب والخسار ، وقد كان كذلك (وثانيها) الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده . وقد كان كذلك . روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ قال : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام دخل بيتنا . فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا . وكان العباس يهاب القوم ويكتم إسلامه ، وكان أبو لهب تخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاص بن هشام ، ولم يتخلف رجل منهم إلا بعث مكانه رجلا آخر ، فلما جاء الخبر عن واقعة أهل بدر وجدنا فى أنفسنا قوة ، وكنت رجلا ضعيفاً وكنت أعمل القداح ألحيها فى حجرة زمزم ، فكنت جالساً هناك وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه ، فجلس على طنب الحجرة وكان ظهرى إلى ظهره ، فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحرث ابن عبد المطلب . فقال له أبو لهب : كيف الخبر يا ابن أخى ؟ فقال لقينا القوم ومنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف أرادوا ، وايم الله مع ذلك تأملت الناس ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة ، ثم قلت أولئك والله الملائكة ، فأخذنى وضربنى على الأرض ، ثم برك على فضربنى وكنت رجلا ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى عمود فضربته على رأسه وشجته ، وقالت تستضعفه أن غاب سيده ، والله نحن مؤمنون منذ أيام كثيرة ، وقد صدق فيما قال ، فانصرف ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته ،

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ «٤»

ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفنانه حتى أنتن فى بيته ، وكانت قريش تتقى العدسة وعدواها كما يتقى الناس الطاعون ، وقالوا نخشى هذه القرحة ، ثم دفنوه وتركوه . فهذا معنى قوله (ماأغنى عنه ماله وما كسب) (وثالثها) الإخبار بأنه من أهل النار ، وقد كان كذلك لأنه مات على الكفر .

﴿المسألة الرابعة﴾ احتج أهل السنة على وقوع تكليف مالا يطاق بأن الله تعالى كلف أبا لهب بالإيمان ، ومن جملة الإيمان تصديق الله فى كل ما أخبر عنه ، ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار ، فقد صار مكلفاً بأنه يؤمن بأنه لايؤمن ، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال . وأجاب الكعبى وأبو الحسين البصرى بأنه لو آمن أبو لهب لكان لهذا الخبر خبراً بأنه آمن ، لا بأنه ما آمن ، وأجاب القاضى عنه فقال متى قيل لو فعل الله ماأخبر أنه لا يفعله فكيف يكون ؟ فجوابنا أنه لايصح الجواب عن ذلك بلا أو نعم .

واعلم أن هذين الجوابين فى غاية السقوط ، أما (الأول) فلأن هذه الآية دالة على أن خبر الله عن عدم إيمانه واقع ، والخبر الصدق عن عدم إيمانه ينافيه وجود الإيمان منافاة ذاتية ممتنعة الزوال وإذا كان كلفه أن يأتى بالإيمان مع وجود هذا الخبر فقد كلفه بالجمع بين المتنافيين .

وأما الجواب (الثانى) فأرك من الأول لأنا لسنا فى طلب أن يذكروا بلسانهم لا أو نعم ، بل صريح العقل شاهد بأن بين كون الخبر عن عدم الإيمان صدقاً ، وبين وجود الإيمان منافاة ذاتية ، فكان التكليف بتحصيل أحد المتضادين حال حصول الآخر تكليفاً بالجمع بين الضدين ، وهذا الإشكال قائم سواء ذكر الخصم بلسانه شيئاً أو بقى ساكتاً .

أما قوله تعالى ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء ومريئته بالتصغير وقرىء حمالة الحطب بالنصب على الشتم . قال صاحب الكشاف وأنا أستحب هذه القراءه وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل من أحب شتم أم جميل وقرىء بالنصب والتنوين والرفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان بن حرب عمة معاوية ، وكانت فى غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكروا فى تفسير كونها حمالة الحطب وجوهاً : (أحدها) أنها كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل فى طريق رسول الله ، فإن قيل إنها كانت من بيت العز فكيف يقال إنها حمالة الحطب ؟ قلنا لعلها كانت مع كثرة مالها خسيسة أو كانت لشدة عداوتها تحمل بنفسها الشوك والحطب ، لأجل أن تلقيه فى طريق رسول الله (وثانيها) أنها كانت تمشى بالنميمة يقال للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أى يوقد بينهم النائرة ، ويقال للمكثار : هو حاطب

ليل (وثالثها) قول قتادة أنها كانت تعير رسول الله بالفقر ، فعيرت بأنها كانت تحتطب (والرابع) قول أبي مسلم وسعيد بن جبير أن المراد ماحملت من الآثام فى عداوة الرسول ، لأنه كالحطب فى تصييرها إلى النار ، ونظيره أنه تعالى شبه فاعل الإثم بمن يمشى وعلى ظهره حمل ، قال تعالى (فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) وقال تعالى (يحملون أوزارهم على ظهورهم) وقال تعالى (وحملها الإنسان) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ امرأته إن رفعته ، ففيه وجهان (أحدهما) العطف على الضمير فى سيصلى ، أى سيصلى هو وامرأته . وفى جيدها فى موضع الحال (والثانى) الرفع على الابتداء ، وفى جيدها الخبر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ عن أسماء لما نزلت (تبت) جاءت أم جميل ولها ولولة وبيدها حجر ، فدخلت المسجد ، ورسول الله جالس ومعه أبو بكر ، وهى تقول :

مذمماً قلينا ودينه أبينا وحكمه عصينا

فقال أبو بكر : يا رسول الله قد أقبلت إليك فأنا أخاف أن تراك . فقال عليه السلام « إنها لا ترانى » وقرأ (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً) وقالت لأبى بكر : قد ذكر لى أن صاحبك هجانى ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، فولت وهى تقول : قد علمت قريش أنى بنت سيدها

وفى هذه الحكاية أبحاث :

﴿ الأول ﴾ كيف جاز فى أم جميل أن لا ترى الرسول ، وترى أبا بكر والمكان واحد ؟ (الجواب) أما على قول أصحابنا فالسؤال زائل ، لأن عند حصول الشرائط يكون الإدراك جائزاً لا واجباً . فإن خلق الله الإدراك رأى وإلا فلا . وأما المعتزلة فذكروا فيه وجوها (أحدها) لعله عليه السلام أعرض وجهه عنها وولاها ظهره ، ثم إنها كانت لغاية غضبها لم تفتش ، أو لأن الله ألقى فى قلبها خوفاً ، فصار ذلك صارفاً لها عن النظر (وثانيها) لعل الله تعالى ألقى شبه إنسان آخر على الرسول ، كما فعل ذلك بعيسى (وثالثها) لعل الله تعالى حول شعاع بصرها عن ذلك السمت حتى أنها ما رأته .

واعلم أن الإشكال على الوجوه الثلاثه لازم ، لأن بهذه الوجوه عرفنا أنه يمكن أن يكون الشىء حاضراً ولا نراه ، وإذا جوزنا ذلك فلم لا يجوز أن يكون عندنا فيلات وبوقات ، ولا نراها ولا نسمعها[1] .

﴿ البحث الثانى ﴾ أن أبا بكر حلف أنه ما هجاك ، وهذا من باب المعاريض ، لأن القرآن لا يسمى هجواً ، ولأنه كلام الله لا كلام الرسول ، فدلت هذه الحكاية على جواز المعاريض .

---

(١) إنما يرد الاشكال عند من لا يقولون بالمعجزات وخوارق العادات وهى أمور لا يستطاع مع العقل جحدها ولا إنكارها ، أما من يقولون بها ، فلا إشكال .

فى جيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ «٥»

بقى من مباحث هذه الآية سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم لم يكتف بقوله (وامرأته) بل وصفها بأنها حمالة الحطب ؟ (الجواب) قيل كان له امرأتان سواها فأراد الله تعالى أن لا يظن ظان أنه أراد كل من كانت امرأة له ، بل ليس المراد إلا هذه الواحدة .

﴿السؤال الثانى﴾ أن ذكر النساء لا يليق بأهل الكرم والمروءة ، فكيف يليق ذكرها بكلام الله ، ولا سيما امرأة العم ؟(الجواب) لما لم يستبعد ذلك فى امرأة نوح وامرأة لوط بسبب كفر تينك المرأتين ، فلأن لا يستبعد فى امرأة كافرة زوجها رجل كافر أولى .

قوله تعالى ﴿ فى جيدها حبل من مسد ﴾ قال الواحدى : المسد فى كلام العرب الفتل ، يقال مسد الحبل يمسده مسداً إذا أجاد فتله ، ورجل ممسود إذا كان مجدول الخلق ، والمسد ما مسد أى فتل من أى شىء كان ، فيقال لما فتل من جلود الإبل ، ومن الليف والخوص مسد . ولما فتل من الحديد أيضاً مسد ، إذا عرفت هذا فنقول ذكر المفسرون وجوهاً (أحدها) فى جيدها حبل مما مسد من الحبال لأنها كانت تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها فى جيدها كما يفعل الحطابون ، والمقصود بيان خساستها تشبيهاً لها بالحطابات إيذاء لها ولزوجها (وثانيها) أن يكون المعنى أن حالها يكون فى نار جهنم على الصورة التى كانت عليها حين كانت تحمل الحزمة من الشوك ، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم وفى جيدها حبل من سلاسل النار .

فإن قيل الحبل المتخذ من المسد كيف يبقى أبداً فى النار ؟ قلنا كما يبقى الجلد واللحم والعظم أبداً فى النار ، ومنهم من قال ذلك المسد يكون من الحديد ، وظن من ظن أن المسد لا يكون من الحديد خطأ ، لأن المسد هو المفتول سواء كان من الحديد أو من غيره ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ سورة الاخلاص ﴾
﴿ أربع آيات مكية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ «١»

﴿ سورة الإخلاص أربع آيات مكية ﴾
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قل هو الله أحد ﴾ قبل الخوض فى التفسير لابد من تقديم فصول :

﴿ الفصل الأول ﴾ روى أبى ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة قل هو الله أحد ، فكأنما قرأ ثلث القرآن وأعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله وآمن بالله » وقال عليه الصلاة والسلام « من قرأ قل هو الله أحد مرة واحدة أعطى من الأجر كمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وأعطى من الأجر مثل مائة شهيد » ، وروى «أنه كان جبريل عليه السلام مع الرسول عليه الصلاة والسلام إذ أقبل أبو ذر الغفارى . فقال جبريل هذا أبو ذر قد أقبل ، فقال عليه الصلاة والسلام أو تعرفونه ؟ قال هو أشهر عندنا منه عندكم ، فقال عليه الصلاة والسلام بما ذا نال هذه الفضيلة ؟ قال لصغره فى نفسه وكثرة قراءته قل هو الله أحد» وروى أنس قال « كنا فى تبوك فطلعت الشمس مالها شعاع وضياء وما رأيناها على تلك الحالة قط قبل ذلك فعجب كلنا ، فنزل جبريل وقال إن الله أمر أن ينزل من الملائكة سبعون ألف ملك فيصلوا على معاوية بن معاوية ، فهل لك أن تصلى عليه ثم ضرب بجناحه الأرض فأزال الجبال وصار الرسول عليه الصلاة والسلام كأنه مشرف عليه فصلى هو وأصحابه عليه ، ثم قال : بم بلغ ما بلغ ؟ فقال جبريل كان يحب سورة الإخلاص» وروى «أنه دخل المسجد فسمع رجلا يدعو ويقول أسألك ياألله ياأحد ياصمد يامن لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال غفر لك غفر لك غفر لك ثلاث مرات» وعن سهل بن سعد «جاء رجل إلى النبى ﷺ وشكا إليه الفقر فقال إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك . واقرأ قل هو الله أحد مرة واحدة ففعل الرجل فأدر الله عليه رزقاً حتى أفاض على جيرانه» وعن أنس «أن رجلا كان يقرأ فى جميع صلاته (قل هو الله أحد) فسأله الرسول عن ذلك فقال يارسول الله إنى أحبها . فقال حبك إياها

يدخلك الجنة » وقيل من قرأها فى المنام : أعطى التوحيد وقلة العيال وكثرة الذكر لله ، وكان مستجاب الدعوة .

﴿ الفصل الثانى ﴾ فى سبب نزولها وفيه وجوه (الأول) أنها نزلت بسبب سؤال المشركين ، قال الضحاك إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا شققت عصانا وسببت آلهتنا ، وخالفت دين آبائك ، وإن كنت فقيراً أغنيناك ، وإن كنت مجنوناً داويناك ، وإن هويت امرأة زوجنا كها ، فقال عليه الصلاة والسلام لست بفقير ، ولا مجنون ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، فأرسلوه ثانية وقالوا قل له بين لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أو فضة ، فأنزل الله هذه السورة ، فقالوا له ثلثمائة وستون صنما لا تقوم بحوائجنا ، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق؟ فنزلت (والصافات) إلى قوله (إن إلهكم لواحد) فأرسلوه أخرى ، وقالوا بين لنا أفعاله فنزل (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض) (الثانى) أنها نزلت بسبب سؤال اليهود ، روى عكرمة عن ابن عباس ، أن اليهود جاؤا إلى رسول الله ومعهم كعب بن الأشرف ، فقالوا يامحمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فغضب نبى الله عليه السلام ، فنزل جبريل فسكنه ، وقال اخفض جناحك يامحمد . فنزل (قل هو الله أحد) فلما تلاه عليهم قالوا صف لنا ربك كيف عضده ، وكيف ذراعه ؟ فغضب أشد من غضبه الأول ، فأتاه جبريل بقوله (وما قدروا الله حق قدره) (الثالث) أنها نزلت بسبب سؤال النصارى ، روى عطاء عن ابن عباس ، قال قدم وفد نجران ، فقالوا صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت ، أو ذهب ، أو فضة ؟ فقال إن ربى ليس من شىء لأنه خالق الأشياء فنزلت (قل هو الله أحد) قالوا هو واحد ، وأنت واحد ، فقال ليس كمثله شىء ، قالوا زدنا من الصفة ، فقال (الله الصمد) فقالوا وما الصمد ؟ فقال الذى يصمد إليه الخلق فى الحوائج ، فقالوا زدنا فنزل (لم يلد) كما ولدت مريم (ولم يولد) كما ولد عيسى (ولم يكن له كفواً أحد) يريد نظيراً من خلقه .

﴿ الفصل الثالث ﴾ فى أساميها ، اعلم أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة ، والعرف يشهد لما ذكرناه (فأحدها) سورة التفريد (وثانيها) سورة التجريد (وثالثها) سورة التوحيد (ورابعها) سورة الإخلاص لأنه لم يذكر فى هذه السورة سوى صفاته السلبية التى هى صفات الجلال ، ولأن من اعتقده كان مخلصا فى دين الله ، ولأن من مات عليه كان خلاصه من النار ، ولأن ماقبله خاص فى ذم أبى لهب فكان جزاء من قرأه أن لايجمع بينه وبين أبى لهب (وخامسها) سورة النجاة لأنها تنجيك عن التشبيه والكفر فى الدنيا ، وعن النار فى الآخرة (وسادسها) سورة الولاية لأن من قرأها صار من أولياء الله ولأن من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه فبعد محنة رحمة كما بعد منحة نعمة (وسابعها) سورة النسبة لما روينا أنه ورد جواباً لسؤال من قال انسب لنا ربك ، ولأنه عليه السلام قال لرجل من بنى سليم «يا أخا بنى سليم استوص

بنسبة الله خيراً » وهو من لطيف المبانى ، لأنهم لما قالوا انسب لنا ربك ، فقال نسبة الله هذا والمحافظة على الأنساب من شأن العرب ، وكانوا يتشددون على من يزيد فى بعض الأنساب أو ينقص ، فنسبة الله فى هذه السورة أولى بالمحافظة عليها (وثامنها) سورة المعرفة لأن معرفة الله لاتتم إلا بمعرفة هذه السورة ، روى جابر أن رجلا صلى فقرأ قل هو الله أحد فقال النبى عليه الصلاة والسلام إن هذا عبد عرف ربه فسميت سورة المعرفة لذلك (وتاسعها) سورة الجمال قال عليه الصلاة والسلام « إن الله جميل يحب الجمال » فسألوه عن ذلك فقال أحد صمد لم يلد ولم يولد لأنه إذا لم يكن واحداً عديم النظير جاز أن ينوب ذلك المثل منابه (وعاشرها) سورة المقشقشة ، يقال تقشقش المريض مما به ، فمن عرف هذا حصل له البرء من الشرك والنفاق لأن النفاق مرض كما قال (فى قلوبهم مرض) (الحادى عشر) المعوذة ، روى أنه عليه السلام دخل على عثمان بن مظعون فعوذه بها وباللتين بعدها ، ثم قال « تعوذ بهن فما تعوذت بخير منها » (والثانى عشر) سورة الصمد(١) لأنها مختصة بذكره تعالى (والثالث عشر) سورة الأساس ، قال عليه الصلاة والسلام « أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد » ومما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السموات والأرض بدليل قوله (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال) فوجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة هذه الأشياء وقيل السبب فيه معنى قوله تعالى (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (الرابع عشر) سورة المانعة روى ابن عباس أنه تعالى قال لنبيه حين عرج به أعطيتك سورة الإخلاص وهى من ذخائر كنوز عرشى ، وهى المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران (الخامس عشر) سورة المحضر لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت (السادس عشر) المنفرة لأن الشيطان ينفر عند قراءتها (السابع عشر) البراءة لأنه روى أنه عليه السلام رأى رجلا يقرأ هذه السورة ، فقال أما هذا فقد برىء من الشرك ، وقال عليه السلام من قرأ سورة قل هو الله أحد مائة مرة فى صلاة أو فى غيرها كتبت له براءة من النار (الثامن عشر) سورة المذكرة لأنها تذكر العبد خالص التوحيد فقراءة السورة كالوسمة تذكرك ماتتغافل عنه مما أنت محتاج إليه (التاسع عشر) سورة النور قال الله تعالى (الله نور السموات والأرض) فهو المنور للسموات والأرض ، والسورة تنور قلبك وقال عليه السلام «إن لكل شىء نوراً ونور القرآن قل هو الله أحد» ونظيره أن نور الإنسان فى أصغر أعضائه وهو الحدقة ، فصارت السورة للقرآن كالحدقة للانسان (العشرون) سورة الأمان قال عليه السلام « إذا قال العبد لا إله إلا الله دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى » .

﴿ الفصل الرابع ﴾ فى فضائل هذه السورة وهى من وجوه (الأول) اشتهر فى الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن ، ولعل الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات ، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله ، وهذه السورة مشتملة

(١) يشيع على ألسنة العامة تسميتها (الصمدية) وهى تسمية عربية صحيحة نسبة إلى (الصمد) سمى الله تعالى نفسه فيها .

على معرفة الذات ، فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن ، وأما سورة (قل يا أيها الكافرون) فهى معادلة لربع القرآن ، لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك وكل واحد منهما فهو إما فى أفعال القلوب وإما فى أفعال الجوارح فالأقسام أربعة ، وسورة (قل يا أيها الكافرون) لبيان ما ينبغى تركه من أفعال القلوب ، فكانت فى الحقيقة مشتملة على ربع القرآن ، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعنى (قل ياأيها الكافرون) ، و (قل هو الله أحد) فى بعض الأسامى فهما المقشقشتان والمبرئتان ، من حيث إن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله تعالى ، إلا أن (قل يا أيها الكافرون) يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله و (قل هو الله أحد) يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله أو من حيث إن (قل يا أيها الكافرون) تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله ، و (قل هو الله أحد) تفيد براءة المعبود عن كل ما لا يليق به (الوجه الثانى) وهو أن ليلة القدر لكونها صدفاً للقرآن كانت خيراً من ألف شهر فالقرآن كله صدف والدر هو قوله (قل هو الله أحد) فلا جرم حصلت لها هذه الفضيلة (الوجه الثالث) وهو أن الدليل العقلى دل على أن أعظم درجات العبد أن يكون قلبه مستنيراً بنور جلال الله وكبريائه ، وذلك لا يحصل إلا من هذه السورة ، فكانت هذه السورة أعظم السور . وإن قيل فصفات الله أيضاً مذكورة فى سائر السور ، قلنا لكن هذه السورة لها خاصية وهى أنها لصغرها فى الصورة تبقى محفوظة فى القلوب معلومة للعقول فيكون ذكر جلال الله حاضراً أبدا بهذا السبب . فلاجرم امتازت عن سائر السور بهذه الفضائل ولنرجع الآن إلى التفسير

قوله تعالى (قل هو الله أحد) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن معرفة الله تعالى جنة حاضرة إذ الجنة أن تنال ما يوافق عقلك وشهوتك ، ولذلك لم تكن الجنة جنة لآدم لما نازع عقله هواه ، ولا كان القبر سجناً على المؤمن لأنه حصل له هناك ما يلائم عقله وهواه ، ثم إن معرفة الله تعالى مما يريدها الهوى والعقل ، فصارت جنة مطلقة ، وبيان ماقلناه أن العقل يريد أميناً تودع عنده الحسنات ، والشهوة تريد غنياً يطلب منه المستلذات ، بل العقل كالإنسان الذى له همة عالية فلا ينقاد إلا لمولاه ، والهوى كالمنتجع الذى إذا سمع حضور غنى ، فإنه ينشط للانتجاع إليه ، بل العقل يطلب معرفة المولى ليشكر له النعم الماضية والهوى يطلبها ليطمع منه فى النعم المتربصة ، فلما عرفاه كما أراده عالماً وغنياً تعلقا بذيله . فقال العقل : لا أشكر أحداً سواك ، وقالت الشهوة : لا أسأل أحداً إلا إياك . ثم جاءت الشبهة فقالت : ياعقل كيف أفردته بالشكر ولعل له مثلا ؟ وياشهوة كيف اقتصرت عليه ولعل ههنا باباً آخر ؟ فبقى العقل متحيراً وتنغصت عليه تلك الراحة . فأراد أن يسافر فى عالم الاستدلال ليفوز بجوهرة اليقين فكأن الحق سبحانه قال : كيف أنغص على عبدى لذة الاشتغال بخدمتى وشكرى ، فبعث الله رسوله وقال : لا تقله من عند نفسك ، بل قل هذا الذى عرفته صادقاً

يقول لى (قل هو الله أحد) فعرفك الوحدانيه بالسمع وكفاك مؤنة النظر والاستدلال بالعقل ، وتحقيقه أن المطالب على ثلاثة أقسام قسم منها لا يمكن الوصول إليه بالسمع وهو كل ما تتوقف صحة السمع على صحته كالعلم بذات الله تعالى وعلمه وقدرته وصحة المعجزات ، وقسم منها لا يمكن الوصول إليه إلا بالسمع وهو وقوع كل ماعلم بالعقل جواز وقوعه ، وقسم ثالث يمكن الوصول إليه بالعقل والسمع معاً ، وهو كالعلم بأنه واحد وبأنه مرئى إلى غيرهما ، وقد استقصينا فى تقرير دلائل الوحدانية فى تفسير قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد فى سورة (قل يا أيها الكافرون) من قل وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ قل فى سورة (تبت) وأما فى هذه السورة فقد اخلفوا ، فالقراءة المشهورة (قل هو الله أحد) وقرأ أبى وابن مسعود . بغير قل هكذا (هو الله أحد) وقرأ النبى صلى الله عليه ، بدون قل هو هكذا (الله أحد الله الصمد) فمن أثبت قل قال : السبب فيه بيان أن النظم ليس فى مقدوره ، بل يحكى كل ما يقال له ، ومن حذفه قال : لئلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبى عليه الصلاة والسلام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن فى إعراب هذه الآية وجوهاً (أحدها) أن هو كناية عن اسم الله ، فيكون قوله : الله مرتفعاً بأنه خبر مبتدأ ، ويجوز فى قوله (أحد) ما يجوز فى قولك : زيد أخوك قائم (الثانى) أن هو كناية عن الشأن ، وعلى هذا التقرير يكون الله مرتفعاً بالابتداء وأحد خبره ، والجملة تكون خبراً عن هو ، والتقدير الشأن والحديث : هو أن الله أحد ، ونظيره قوله (فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) إلا أن هى جاءت على التأنيث ، لأن فى التفسير : اسما مؤنثاً ، وعلى هذا جاء (فإنها لا تعمى الأبصار) أما إذا لم يكن فى التفسير مؤنت لم يؤنث ضمير القصة ، كقوله (إنه من يأت ربه مجرماً) (والثالث) قال الزجاج : تقدير هذه الآية أن هذا الذى سألتم عنه هو الله أحد .

﴿المسألة الرابعة﴾ فى أحد وجهان (أحدهما) أنه بمعنى واحد ، قال الخليل : يجوز أن يقال أحد اثنان وأصل أحد وحد إلا أنه قلبت الواو همزة للتخفيف وأكثر مايفعلون هذا بالواو المضمومة ، والمكسورة كقولهم وجوه وأجوه وسادة وأسادة (والقول الثانى) أن الواحد والأحد ليسا اسمين مترادفين قال الأزهرى : لا يوصف شىء بالأحدية غير الله تعالى لا يقال : رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال : رجل واحد أى فرد به بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شىء . ثم ذكروا فى الفرق بين الواحد والأحد وجوهاً (أحدها) أن الواحد يدخل فى الأحد والأحد لا يدخل فيه (وثانيها) أنك إذا قلت فلان لا يقاومه واحد ، جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد ، فإنك لو قلت فلان لا يقاومه أحد لا يجوز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان

(و ثالثها) أن الواحد يستعمل فى الإثبات والأحد فى النفى ، تقول فى الإثبات رأيت رجلا واحداً وتقول فى النفى ما رأيت أحداً فيفيد العموم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اختلف القراء فى قوله (أحد الله الصمد) فقراءة العامة بالتنوين وتحريكه بالكسر هكذا أحدن الله ، وهو القياس الذى لا إشكال فيه . وذلك لأن التنوين من أحد ساكن ولام المعرفة من الله ساكنة ، ولما التقى ساكنان حرك الأول منهما بالكسر ، وعن أبى عمرو ، أحد الله بغير تنوين ، وذلك أن النون شابهت حروف اللين فى أنها تزاد كما يزدن فلما شابهتها أجريت مجراها فى أن حذفت ساكنة لالتقاء الساكنين كما حذفت الألف والواو والياء لذلك نحو غزا القوم ويغزو القوم ، ويرمى القوم ، ولهذا حذفت النون الساكنة فى الفعل نحو (لم يك) (ولا تك فى مرية) فكذا ههنا حذفت فى أحد الله لالتقاء الساكنين كما حذفت هذه الحروف .

وقد ذكرنا هذا مستقصى عند قوله (عزير ابن الله) وروى أيضاً عن أبى عمرو (أحدْ الله) وقال أدركت القراء يقرؤونها كذلك وصلا على السكون ، قال أبو على قد تجرى الفواصل فى الإدراج مجراها فى الوقف وعلى هذا قال من قال (فأضلونا السبيلا ، ربنا) (وما أدراك ماهيه ، نار) فكذلك (أحد الله) لما كان أكثر القراء فيما حكاه أبو عمرو على الوقف أجراه فى الوصل مجراه فى الوقف لاستمرار الوقف عليه وكثرته فى ألسنتهم ، وقرأ الأعمش (قل هو الله الواحد) فإن قيل لماذا ؟ قيل أحد على النكرة ، قال الماوردى فيه وجهان (أحدهما) حذف لام التعريف على نية اضمارها والتقدير قل هو الله الأحد (والثانى) أن المراد هو التنكير على سبيل التعظيم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ اعلم أن قوله (هو الله أحد) ألفاظ ثلاثة وكل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات الطالبين (فالمقام الأول) مقام المقربين وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هى هى ، فلاجرم ما رأوا موجوداً سوى الله لأن الحق هو الذى لذاته يجب وجوده ، وأما ماعداه فممكن لذاته والممكن لذاته إذا نظر إليه من حيث هو هو كان معدوما ، فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحق سبحانه ، وقوله (هو) إشارة مطلقة والإشارة وإن كانت مطلقة إلا أن المشار إليه لما كان معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين ، فلا جرم كان قولنا هو إشارة من هؤلاء المقربين إلى الحق سبحانه فلم يفتقروا فى تلك الإشارة إلى مميز ، لأن الافتقار إلى المميز إنما يحصل حين حصل هناك موجودان ، وقد بينا أن هؤلاء ماشاهدوا بعيون عقولهم إلا الواحد فقط ، فلهذا السبب كانت لفظة (هو) كافية فى حصول العرفان التام لهؤلاء . (المقام الثانى) وهو مقام أصحاب اليمين وهو دون المقام الأول ، وذلك لأن هؤلاء شاهدوا الحق موجوداً وشاهدوا الخلق أيضاً موجوداً ، فحصلت كثرة فى الموجودات فلا جرم لم يكن هو كافياً فى الإشارة إلى الحق ، بل لابد هناك من مميز به يتميز الحق عن الخلق : فهؤلاء احتاجوا إلى أن يقرنوا لفظة الله بلفظة هو ، فقيل لأجلهم هو

الله ، لأن الله هو الموجود الذى يفتقر إليه ماعداه ، ويستغنى هو عن كل ماعداه (والمقام الثالث) وهو مقام أصحاب الشمال وهو أخس المقامات وأدونها ، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد وأن يكون الإله أكثر من واحد فقرن لفظ الأحد بما تقدم رداً على هؤلاء وإبطالا لمقالاتهم فقيل (قل هو الله أحد) .

﴿ وههنا بحث آخر ﴾ أشرف وأعلى مما ذكرناه وهو أن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية وإما أن تكون سلبية ، أما الإضافية فكقولنا عالم ، قادر مريد خلاق ، وأما السلبية فكقولنا ليس بجسم ولا بجوهر ولا بعرض والمخلوقات تدل أولا على النوع الاول من الصفات وثانياً على النوع الثانى منها . وقولنا الله يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وقولنا أحد يدل على مجامع الصفات السلبية . فكان قولنا (الله أحد) تاماً فى إفادة العرفان الذى يليق بالعقول البشرية ، وإنما قلنا إن لفظ الله يدل على مجامع الصفات الإضافية . وذلك لأن الله هو الذى يستحق العبادة ، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبداً بالإيجاد والإبداع والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات . وهذه مجامع الصفات الإضافية ، وأما مجامع الصفات السلبية فهى الأحدية ، وذلك لأن المراد من الأحدية كون تلك الحقيقة فى نفسها مفردة منزهة عن أنحاء التراكيب . وذلك لأن كل ماهية مركبة فهى مفتقرة إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه غيره فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته ، فكل مركب فهو ممكن لذاته ، فالإله الذى هو مبدأ لجميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً ، فهو فى نفسه فرد أحد وإذا ثبتت الأحدية ، وجب أن لا يكون متحيزاً لأن كل متحيز فإن يمينه مغاير ليساره ، وكل ماكان كذلك فهو منقسم ، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً ، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن فى شىء من الأحياز والجهات ، ويجب أن لا يكون حالا فى شىء ، لأنه مع محله لا يكون أحداً ، ولا يكون محلا لشىء ، لأنه مع حاله لا يكون أحداً ، وإذا لم يكن حالا ولا محلا لم يكن متغيراً البتة لأن التغير لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة ، وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً إذ لو فرض موجودان واجبا الوجود لاشتركا فى الوجوب ولتمايزا فى التعين وما به المشاركة غير ما به المايزة فكل واحد منهما مركب ، فثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً (فإن قيل) كيف يعقل كون الشىء أحداً ، فإن كل حقيقة توصف بالأحدية فهناك تلك الحقيقة من تلك الأحدية ومجموعهما فذاك ثالث ثلاثة لا أحد (الجواب) أن الأحدية لازمة لتلك الحقيقة فالمحكوم عليه بالأحدية هو تلك الحقيقة لا المجموع الحاصل منها ومن تلك الأحدية ، فقد لاح بما ذكرنا أن قوله (الله أحد) كلام متضمن لجميع صفات الله تعالى من الإضافيات والسلوب وتمام الكلام فى هذا الباب مذكور فى تفسير قوله (وإلهكم إله واحد) .

اللَّهُ الصَّمَدُ «٢»

قوله تعالى ﴿ الله الصمد ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى تفسير (الصمد) وجهين (الأول) أنه فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده ، وهو السيد المصمود إليه فى الحوائج ، قال الشاعر :

ألا بكر النـاعى بخير بنى أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال أيضاً : علوته بسامى ثم قلت له   خذها حذيف فأنت السيد الصمد

والدليل على صحة هذا التفسير ماروى ابن عباس «أنه لما نزلت هذه الآية قالوا ماالصمد ؟ قال عليه السلام هو السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج» وقال الليث صمدت صمد هذا الأمر أى قصدت قصده (والقول الثانى) أن الصمد هو الذى لا جوف له ، ومنه يقال لسداد القارورة الصماد ، وشىء مصمد أى صلب ليس فيه رخاوة ، وقال قتادة ، وعلى هذا التفسير : الدال فيه مبدلة من التاء وهو المصمت ، وقال بعض المتأخرين من أهل اللغة الصمد هو الأملس من الحجر الذى لا يقبل الغبار ولا يدخله شىء ولا يخرج منه شىء ، واعلم أنه قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية فى أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأنا بينا أن كونه أحداً ينافى كونه جسما فمقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة وتعالى الله عن ذلك ، فإذن يجب أن يحمل ذلك على مجازه ، وذلك لأن الجسم الذى يكون كذلك يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجباً لذاته ممتنع التغير فى وجوده وبقائه وجميع صفاته ، فهذا ما يتعلق بالبحث اللغوى فى هذه الآية .

أما المفسرون فقد نقل عنهم وجوه ، بعضها يليق بالوجه الأول وهو كونه تعالى سيداً مرجوعاً إليه فى دفع الحاجات ، وهو إشارة إلى الصفات الإضافية ، وبعضها بالوجه الثانى وهو كونه تعالى واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته ممتنع التغير فيهما وهو إشارة إلى الصفات السلبية وتارة يفسرون الصمد بما يكون جامعاً للوجهين .

أما النوع (الأول) فذكروا فيه وجوها : (الأول) الصمد هو العالم بجميع المعلومات لأن كونه سيداً مرجوعا إليه فى قضاء الحاجات لا يتم إلا بذلك (الثانى) الصمد هو الحليم لأن كونه سيداً يقتضى الحلم والكرم (الثالث) وهو قول ابن مسعود والضحاك الصمد هو السيد الذى قد انتهى سؤدده (الرابع) قال الأصم الصمد هو الخالق للأشياء ، وذلك لأن كونه سيداً يقتضى ذلك (الخامس) قال السدى الصمد هو المقصود فى الرغائب ، المستغاث به عند المصائب (السادس) قال الحسين بن الفضل البجلى : الصمد هو الذى يفعل مايشاء ويحكم مايريد ، لامعقب لحكمه ، ولا راد لقضائه (السابع) أنه السيد المعظم (الثامن) أنه الفرد الماجد لا يقضى فى أمر دونه .

وأما النوع (الثانى) وهو الاشارة إلى الصفات السلبية فذكروا فيه وجوهاً : (الأول) الصمد هو الغنى على ماقال (وهو الغنى الحميد) (الثانى) الصمد الذى ليس فوقه أحد لقوله (وهو القاهر فوق عباده) ولا يخاف من فوقه ، ولا يرجو من دونه ترفع الحوائج إليه (الثالث) قال قتادة لايأكل ولا يشرب (وهو يطعم ولا يطعم) (الرابع) قال قتادة الباقى بعد فناء خلقه (كل من عليها فان) (الخامس) قال الحسن البصرى : الذى لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه الزوال كان ولا مكان ، ولا أين ولا أوان ، ولاعرش ولا كرسى ، ولاجنى ولا إنسى وهو الآن كما كان (السادس) قال أبى بن كعب : الذى لايموت ولا يورث وله ميراث السموات والأرض (السابع) قال يمان وأبو مالك : الذى لا ينام ولا يسهو (الثامن) قال ابن كيسان : هو الذى لايوصف بصفة أحد (التاسع) قال مقاتل بن حيان : هو الذى لا عيب فيه (العاشر) قال الربيع بن أنس : هو الذى لا تعتريه الآفات (الحادى عشر) قال سعيد بن جبير : إنه الكامل فى جميع صفاته ، وفى جميع أفعاله (الثانى عشر) قال جعفر الصادق : إنه الذى يغلب ولا يغلب (الثالث عشر) قال أبو هريرة : إنه المستغنى عن كل أحد (الرابع عشر) قال أبو بكر الوراق : إنه الذى أيس الخلائق من الاطلاع على كيفيته (الخامس عشر) هو الذى لا تدركه الأبصار (السادس عشر) قال أبو العالية ومحمد القرظى : هو الذى لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شىء يلد إلا سيورث ، ولا شىء يولد إلا وسيموت (السابع عشر) قال ابن عباس : إنه الكبير الذى ليس فوقه أحد (الثامن عشر) أنه المنزه عن قبول النقصانات والزيادات ، وعن أن يكون مورداً للتغيرات والتبدلات ، وعن إحاطة الأزمنة والأمكنة والآنات والجهات .

وأما (الوجه الثالث) وهو أن يحمل لفظ الصمد على الكل وهو محتمل . لأنه بحسب دلالته على الوجوب الذاتى يدل على جميع السلوب ، وبحسب دلالته على كونه مبدأ للكل يدل على جميع النعوت الإلهية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (الله الصمد) يقتضى أن لايكون فى الوجود صمد سوى الله ، وإذا كان الصمد مفسراً بالمصمود إليه فى الحوائج ، أو بما لايقبل التغير فى ذاته لزم أن لايكون فى الوجود موجود هكذا سوى الله تعالى ، فهذه الآية تدل على أنه لا إله سوى الواحد ، فقوله (الله أحد) إشارة إلى كونه واحداً ، بمعنى أنه ليس فى ذاته تركيب ولا تأليف بوجه من الوجوه ، وقوله (الله الصمد) إشارة إلى كونه واحداً ، بمعنى نفى الشركاء والأنداد والأضداد . وبقى فى الآية سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم جاء أحد منكراً . وجاء الصمد معرفاً ؟ (الجواب) الغالب على أكثر أوهام الخلق أن كل موجود محسوس ، وثبت أن كل محسوس فهو منقسم ، فإذا مالا يكون منقسما لايكون خاطراً ببال أكثر الخلق . وأما الصمد فهو الذى يكون مصموداً إليه فى الحوائج ، وهذا كان معلوماً للعرب بل لأكثر الخلق على ماقال (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) وإذا كانت

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ «٣»

الأحدية مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق ، وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق ، لا جرم جاء لفظ أحد على سبيل التنكير ولفظ الصمد على سبيل التعريف .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الفائدة فى تكرير لفظة الله فى قوله (الله أحد الله الصمد) ؟ (الجواب) لو لم تكرر هذه اللفظة لوجب فى لفظ أحد وصمد أن يردا ، إما نكرتين أو معرفتين ، وقد بينا أن ذلك غير جائز ، فلا جرم كررت هذه اللفظة حتى يذكر لفظ أحد منكراً ولفظ الصمد معرفاً .

قوله تعالى ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ فيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قدم قوله (لم يلد) على قوله (ولم يولد) مع أن فى الشاهد يكون أولا مولودا ، ثم يكون والدا ؟ (الجواب) إنما وقعت البداءة بأنه لم يلد ، لأنهم ادعوا أن له ولداً ، وذلك لأن مشركى العرب قالوا (الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله) ولم يدع أحد أن له والدا فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال (لم يلد) ثم أشار إلى الحجة فقال : (ولم يولد) كأنه قيل الدليل على امتناع الولدية اتفاقنا على أنه ما كان ولداً لغيره .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لماذا اقتصر على ذكر الماضى فقال (لم يلد) ولم يقل لن يلد ؟ (الجواب) إنما اقتصر على ذلك لأنه ورد جواباً عن قولهم ولد الله والدليل عليه قوله تعالى (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله) فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك فى الماضى . لا جرم وردت الآية على وفق قولهم .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال ههنا (لم يلد) وقال فى سورة بنى إسرائيل (ولم يتخذ ولدا) ؟ (الجواب) أن الولد يكون على وجهين : (أحدهما) أن يتولد منه مثله وهذا هو الولد الحقيقى (والثانى) أن لا يكون متولداً منه ولكنه يتخذه ولداً ويسميه هذا الإسم ، وإن لم يكن ولداً له فى الحقيقة ، والنصارى فريقان : منهم من قال عيسى ولد الله حقيقة ، ومنهم من قال إن الله اتخذه ولداً تشريفاً له ، كما اتخذ إبراهيم خليلا تشريفاً له ، فقوله (لم يلد) فيه إشارة إلى نفى الولد فى الحقيقة ، وقوله (لم يتخذ ولداً) إشارة إلى نفى القسم الثانى ، ولهذا قال (لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك) لأن الإنسان قد يتخذ ولداً ليكون ناصراً ومعيناً له على الأمر المطلوب ، ولذلك قال فى سورة أخرى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه هو الغنى) وهو إشارة إلى ما ذكرنا أن اتخاذ الولد إنما يكون عند الحاجة .

﴿ السؤال الرابع ﴾ نفى كونه تعالى والداً ومولوداً ، هل يمكن أن يعلم بالسمع أم لا ، وإن كان لا يمكن ذلك فما الفائدة فى ذكره ههنا ؟ (الجواب) نفى كونه تعالى والداً مستفاد من العلم بأنه تعالى ليس بجسم ولا متبعض ولا منقسم ، ونفى كونه تعالى مولوداً مستفاد من العلم بأنه تعالى

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ «٤»

قديم . والعلم بكل واحد من هذين الأصلين متقدم على العلم بالنبوة والقرآن ، فلا يمكن أن يكونا مستفادين من الدلائل السمعية . بقى أن يقال فلما لم يمكن استفادتهما من السمع ، فما الفائدة فى ذكرهما فى هذه السورة ؟ (قلنا) قد بينا أن المراد من كونه أحداً كونه سبحانه فى ذاته وماهيته منزهاً عن جميع أنحاء التراكيب ، وكونه تعالى صمداً معناه كونه واجباً لذاته ممتنع التغير فى ذاته وجميع صفاته ، وإذا كان كذلك فالأحدية والصمدية يوجبان نفى الولدية والمولودية ، فلما ذكر السبب الموجب لانتفاء الوالدية والمولودية ، لاجرم ذكر هذين الحكمين . فالمقصود من ذكرهما تنبيه الله تعالى على الدلالة العقلية القاطعة على انتفائهما .

﴿ السؤال الخامس ﴾ هل فى قوله تعالى (لم يلد ولم يولد) فائدة أزيد من نفى الوالدية ونفى المولودية ؟ (قلنا) فيه فوائد كثيرة ، وذلك لأن قوله (الله أحد) إشارة إلى كونه تعالى فى ذاته وماهيته منزهاً عن التركيب ، وقوله (الله الصمد) إشارة إلى نفى الأضداد والأنداد والشركاء والأمثال وهذان المقامان الشريفان مما حصل الاتفاق فيهما بين أرباب الملل والأديان ، وبين الفلاسفة ، إلا أن من بعد هذا الموضع حصل الاختلاف بين أرباب الملل وبين الفلاسفة ، فإن الفلاسفة قالوا : إنه يتولد عن واجب الوجود عقل ، وعن العقل عقل آخر ونفس وفلك ، وهكذا على هذا الترتيب حتى ينتهى إلى العقل الذى هو مدبر ما تحت كرة القمر ، فعلى هذا القول يكون واجب الوجود قد ولد العقل الأول الذى هو تحته ، ويكون العقل الذى هو مدبر لعالمنا هذا كالمولود من العقول التى فوقه ، فالحق سبحانه وتعالى نفى الوالدية أولا ، كأنه قيل إنه لم يلد العقول والنفوس ، ثم قال : والشىء الذى هو مدبر أجسادكم وأرواحكم وعالمكم هذا ليس مولوداً من شىء آخر ، فلا والد ولا مولود ولا مؤثر إلا الواحد الذى هو الحق سبحانه .

قوله سبحانه ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ الكلام العربى الفصيح أن يؤخر الظرف الذى هو لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيبويه على ذلك فى كتابه ، فما باله ورد مقدماً فى أفصح الكلام ؟ (والجواب) هذا الكلام إنما سيق لنفى المكافأة عن ذات الله ، واللفظ الدال على هذا المعنى هو هذا الظرف ، وتقديم الأهم أولى ، فلهذا السبب كان هذا الظرف مستحقاً للتقديم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف القراءة فى هذه الآية ؟ (الجواب) قرىء (كفواً) بضم الكاف والفاء وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء . والأصل هو الضم ثم يخفف مثل طنب وطنب وعنق وعنق . وقال أبو عبيدة يقال كفو وكفء وكفاء كله بمعنى واحد وهو المثل ، وللمفسرين فيه أقاويل (أحدها) قال كعب وعطاء لم يكن له مثل ولا عديل ، ومنه المكافأة فى الجزاء لأنه

يعطيه ما يساوى ما أعطاه (وثانيها) قال مجاهد : لم يكن له صاحبة كأنه سبحانه وتعالى قال : لم يكن أحد كفؤاً له فيصاهره ، رداً على من حكى الله عنه قوله (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) فتفسير هذه الآية كالتأكيد لقوله تعالى (لم يلد) (وثالثها) وهو التحقيق أنه تعالى لما بين أنه هو المصمود إليه فى قضاء الحوائج ونفى الوسائط من البين بقوله (لم يلد ولم يولد) على ما بيناه ، فحينئذ ختم السورة بأن شيئاً من الموجودات يمتنع أن يكون مساوياً له فى شىء من صفات الجلال والعظمة ، أما الوجود فلا مساواة فيه لأن وجوده من مقتضيات حقيقته فإن حقيقته غير قابلة للعدم من حيث هى هى ، وأما سائر الحقائق ، فإنها قابلة للعدم ، وأما العلم فلا مساواة فيه لأن علمه ليس بضرورى ولا باستدلالى ولا مستفاد من الحس ولا من الرؤية ولا يكون فى معرض الغلط والزلل وعلوم المحدثات كذلك ، وأما القدرة فلا مساواة فيها وكذا الرحمة والجود والعدل والفضل والإحسان ، واعلم أن هذه السورة أربع آيات ، وفى ترتيبها أنواع من الفوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن أول السورة يدل على أنه سبحانه واحد ، والصمد على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسناً و(لم يلد ولم يولد) على أنه غنى على الإطلاق ومنزه عن التغيرات فلا يبخل بشىء أصلا ، ولا يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضر ، بل بمحض الإحسان وقوله (ولم يكن له كفواً أحد) إشارة إلى نفى ما لا يجوز عليه من الصفات .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ نفى الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله (أحد) ونفى النقص والمغلوبية بلفظ الصمد ، ونفى المعلولية والعلية بلم يلد ولم يولد ، ونفى الأضداد والأنداد بقوله (ولم يكن له كفواً أحد) .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ قوله (أحد) يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة ، والنصارى فى التثليث ، والصابئين فى الأفلاك والنجوم ، والآية الثانية تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله لأنه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصموداً إليه فى طلب جميع الحاجات ، والثالثة تبطل مذهب اليهود فى عزير ، والنصارى فى المسيح ، والمشركين فى أن الملائكة بنات الله ، والآية الرابعة تبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء له وشركاء .

﴿ الفائدة الرابعة ﴾ أن هذه السورة فى حق الله مثل سورة الكوثر فى حق الرسول لكن الطعن فى حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا : إنه أبتر لا ولد له ، وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً ، وذلك لأن عدم الولد فى حق الانسان عيب ووجود الولد عيب فى حق الله تعالى ، فلهذا السبب قال ههنا (قل) حتى تكون ذاباً عنى ، وفى سورة (إنا أعطيناك) أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذاباً عنك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

مقدمــة

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل الخوض فى التفسير لا بد من تقديم فصلين :

﴿ الفصل الأول ﴾ سمعت بعض العارفين فسر هاتين السورتين على وجه عجيب ، فقال إنه سبحانه لما شرح أمر الإلهية فى سورة الإخلاص ذكر هذه السورة عقيبها فى شرح مراتب مخلوقات الله فقال أولا (قل أعوذ برب الفلق) وذلك لأن ظلمات العدم غير متناهية ، والحق سبحانه هو الذى فلق تلك الظلمات بنور التكوين والإيجاد والإبداع ، فلهذا قال (قل أعوذ برب الفلق) ثم قال (من شر ما خلق) والوجه فيه أن عالم الممكنات على قسمين عالم الأمر وعالم الخلق على ماقال (ألا له الخلق والأمر) وعالم الأمر كله خيرات محضة بريئة عن الشرور والآفات ، أما عالم الخلق وهو عالم الأجسام والجسمانيات ، فالشر لا يحصل إلا فيه . وإنما سمى عالم الأجسام والجسمانيات بعالم الخلق ، لأن الخلق هو التقدير : والمقدار من لواحق الجسم ، فلما كان الأمر كذلك ، لاجرم قال : أعوذ بالرب الذى فلق ظلمات بحر العدم بنور الإيجاد والإبداع من الشرور الواقعة فى عالم الخلق وهو عالم الأجسام والجسمانيات ، ثم من الظاهر أن الأجسام ، إما أثرية أو عنصرية والأجسام الأثرية خيرات ، لأنها بريئة عن الاختلال والفطور ، على ما قال (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) وأما العنصريات فهى إما جماد أو نبات أو حيوان ، أما الجمادات فهى خالية عن جميع القوى النفسانية . فالظلمة فيها خالصة والأنوار عنها بالكلية زائلة ، وهى المراد من قوله (ومن شر غاسق إذا وقب) وأما النبات فالقوة الغاذية النباتية هى التى تزيد فى الطول والعرض والعمق معاً ، فهذه النباتية كأنها تنفث فى العقد الثلاثة ، وأما الحيوان فالقوى الحيوانية هى الحواس الظاهرة والحواس الباطنة والشهوة والغضب وكلها تمنع الروح الإنسانية عن الانصباب إلى عالم الغيب ، والاشتغال بقدس جلال الله وهو المراد من قوله (ومن شر حاسد إذا حسد) ثم إنه لم يبق من السفليات بعد هذه المرتبة سوى النفس الإنسانية ، وهى المستعيذة ، فلا تكون مستعاذاً منها ، فلا جرم قطع هذه السورة وذكر بعدها فى سورة الناس مراتب درجات النفس الإنسانية فى الترقى ، وذلك لأنها بأصل فطرتها مستعدة ، لأن تنتقش بمعرفة الله تعالى ومحبته إلا أنها تكون أول الأمر خالية عن هذه المعارف بالكلية ، ثم إنه فى المرتبة الثانية يحصل فيها علوم أولية بديهية يمكن التوصل بها إلى استعلام المجهولات

الفكرية ، ثم فى آخر الأمر تلك المجهولات الفكرية من القوة إلى الفعل ، فقوله تعالى (قل أعوذ برب الناس) إشارة إلى المرتبة الأولى من مراتب النفس الإنسانية وهى حال كونها خالية من جميع العلوم البديهية والكسبية ، وذلك لأن النفس فى تلك المرتبة تحتاج إلى مرب يربيها ويزينها بتلك المعارف البديهية ، ثم فى المرتبة الثانية وهى عند حصول هذه العلوم البديهية يحصل لها ملكة من الانتقال منها إلى استعلام العلوم الفكرية وهو المراد من قوله (ملك الناس) ثم فى المرتبة الثالثة وهى عند خروج تلك العلوم الفكرية من القوة إلى الفعل يحصل الكمال التام للنفس وهو المراد من قوله (إله الناس) فكأن الحق سبحانه يسمى نفسه بحسب كل مرتبة من مراتب النفس الإنسانية بما يليق بتلك المرتبة ، ثم قال (من شر الوسواس الخناس) والمراد منه القوة الوهمية ، والسبب فى إطلاق اسم الخناس على الوهم أن العقل والوهم ، قد يتساعدان على تسليم بعض المقدمات ، ثم إذا آل الأمر إلى النتيجة فالعقل يساعد على النتيجة والوهم يخنس ، ويرجع ويمتنع عن تسليم النتيجة ، فلهذا السبب يسمى الوهم (بالخناس) ثم بين سبحانه أن ضرر هذا الخناس عظيم على العقل ، وأنه قلما ينفك أحد عنه فكأنه سبحانه بين فى هذه السورة مراتب الأرواح البشرية ونبه على عدوها ونبه على مابه يقع الامتياز بين العقل وبين الوهم ، وهناك آخر درجات مراتب النفس الإنسانية ، فلا جرم ، وقع ختم الكتاب الكريم والفرقان العظيم عليه .

﴿ الفصل الثانى ﴾ ذكروا فى سبب نزول هذه السورة وجوها (أحدها) روى أن جبريل عليه السلام أتاه وقال إن عفريتاً من الجن يكيدك ، فقال إذا أويت إلى فراشك قل أعوذ برب السورتين (وثانيها) أن الله تعالى أنزلها عليه ليكونا رقية من العين ، وعن سعيد بن المسيب أن قريشاً قالوا : تعالوا نتجوع فنعين محمداً ففعلوا ، ثم أتوه وقالوا ما أشد عضدك ، وأقوى ظهرك وأنضر وجهك ، فأنزل الله تعالى المعوذتين (وثالثها) وهو قول جمهور المفسرين ، أن لبيد بن أعصم اليهودى سحر النبى ﷺ فى إحدى عشرة عقدة وفى وتر دسه فى بئر يقال لها ذروان فمرض رسول الله ﷺ ، واشتد عليه ذلك ثلاث ليال فنزلت المعوذتان لذلك ، وأخبره جبريل بموضع السحر فأرسل عليا عليه السلام ، وطلحة وجاءا به ، وقال جبريل للنبى حل عقدة ، واقرأ آية ففعل وكان كلما قرأ آية انحلت عقدة فكان يجد بعض الخفة والراحة .

واعلم أن المعتزلة أنكروا ذلك بأسرهم ، قال القاضى هذه الرواية باطلة ، وكيف يمكن القول بصحتها . والله تعالى يقول (والله يعصمك من الناس) وقال (ولا يفلح الساحر حيث أتى) ولأن تجويزه يفضى إلى القدح فى النبوة ، ولأنه لو صح ذلك لكان من الواجب أن يصلوا إلى الضرر لجميع الأنبياء والصالحين ، ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم ، وكل ذلك باطل ، ولأن الكفار كانوا يعيرونه بأنه مسحور ، فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين فى تلك

الدعوة ، ولحصل فيه عليه السلام ذلك العيب ، ومعلوم أن ذلك غير جائز ، قال الأصحاب : هذه القصة قد صحت عند جمهور أهل النقل ، والوجوه المذكورة قد سبق الكلام عليها فى سورة البقرة . أما قوله : الكفار كانوا يعيبون الرسول عليه السلام بأنه مسحور ، فلو وقع ذلك لكان الكفار صادقين فى ذلك القول (فجوابه) أن الكفار كانوا يريدون بكونه مسحوراً أنه مجنون أزيل عقله بواسطة السحر ، فلذلك ترك دينهم ، فأما أن يكون مسحوراً بألم يجده فى بدنه فذلك مما لا ينكره أحد ، وبالجملة فالله تعالى ما كان يسلط عليه لا شيطاناً ولا إنسياً ولا جنياً يؤذيه فى دينه وشرعه ونبوته ، فأما فى الإضرار ببدنه فلا يبعد ، وتمام الكلام فى هذه المسألة قد تقدم فى سورة البقرة ، ولنرجع إلى التفسير .

﴿ سورة الفلق ﴾
﴿ خمس آيات مدنية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ «١»

﴿ سورة الفلق خمس آيات مدنية ﴾
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

قوله تعالى ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (قل) فوائد (أحدها) أنه سبحانه لما أمر بقراءة سورة الإخلاص تنزيهاً له عما لا يليق به فى ذاته وصفاته ، وكان ذلك من أعظم الطاعات ، فكأن العبد قال : إلهنا هذه الطاعة عظيمة جداً لا أثق بنفسى فى الوفاء بها ، فأجابه بأن قال (قل أعوذ برب الفلق) أى استعذ بالله ، والتجىء إليه حتى يوفقك لهذه الطاعة على أكمل الوجوه (وثانيها) أن الكفار لما سألوا الرسول عن نسب الله وصفته ، فكأن الرسول عليه السلام قال : كيف أنجو من هؤلاء الجهال الذين تجاسروا وقالوا فيك مالا يليق بك ، فقال الله (قل أعوذ برب الفلق) أى استعذ بى حتى أصونك عن شرهم (وثالثها) كأنه تعالى يقول : من التجأ إلى بيتى شرفته وجعلته آمناً فقلت ومن دخله كان آمناً فالتجىء أنت أيضاً إلى حتى أجعلك آمناً (فقل أعوذ برب الفلق) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أنه هل يجوز الاستعانة بالرقى والعوذ أم لا ؟ منهم قال إنه يجوز واحتجوا بوجوه (أحدها) ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكى فرقاه جبريل عليه السلام ، فقال بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك ، والله يشفيك (وثانيها) قال ابن عباس كان رسول الله ﷺ يعلمنا من الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء «بسم الله الكريم ، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ، ومن شر حر النار» (وثالثها) قال عليه السلام من دخل على مريض لم يحضره أجله ، فقال أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات شفى (ورابعها) عن على عليه السلام قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض قال : «أذهب الباس رب الناس ، اشف أنت الشافى ، لاشافى إلا أنت» (وخامسها) عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين يقول «أعيذكما بكلمات الله التامة من شيطان وهامة ، ومن

كل عين لامة » ويقول هكذا كان أبي إبراهيم يعوذ ابنيه إسماعيل وإسحق (وسادسها) قال عثمان بن أبي العاص الثقفي قدمت على رسول الله وبي وجع قد كاد يبطلني فقال رسول الله ﷺ «اجعل يدك اليمنى عليه . وقل بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد » سبع مرات ففعلت ذلك فشفاني الله (وسابعها) روى أنه عليه السلام كان إذا سافر فنزل منزلا يقول «ياأرض ، ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما يخرج منك ، وشر ما يدب عليك ، وأعوذ بالله من أسد وأسود وحية وعقرب ، ومن شر ساكني البلد ووالد وما ولد » (وثامنها) قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ (قل هو الله أحد) والمعوذتين في كفه اليمنى ومسح بها المكان الذي يشتكي ومن الناس من منع من الرقى لما روى عن جابر . قال نهى رسول الله ﷺ عن الرقى ، وقال عليه السلام « إن لله عباداً لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون » وقال عليه السلام « لم يتوكل على الله من اكتوى واسترقى » وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون النهي عن الرقى المجهولة التي لا تعرف حقائقها ، فأما ما كان له أصل موثوق ، فلا نهي عنه ، واختلفوا في التعليق ، فروى أنه عليه السلام قال « من علق شيئاً وكل إليه » وعن ابن مسعود : أنه رأى على أم ولده تميمة مربوطة بعضدها ، فجذبها جذباً عنيفاً فقطعها ، ومنهم من جوزه ، سئل الباقر عليه السلام عن التعويذ يعلق على الصبيان فرخص فيه ، واختلفوا في النفث أيضاً ، فروى عن عائشة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ ينفث على نفسه إذا اشتكى بالمعوذات ويمسح بيده . فلما اشتكى رسول الله ﷺ وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينفث بها على نفسه ، وعنه عليه السلام « أنه كان إذا أخذ مضجعه نفث في يديه وقرأ فيهما بالمعوذات ، ثم مسح بهما جسده » ومنهم من أنكر النفث . قال عكرمة : لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد . وعن إبراهيم قال : كانوا يكرهون النفث في الرقى ، وقال بعضهم : دخلت على الضحاك وهو وجيع . فقلت ألا أعوذك يا أبا محمد ؟ قال بلى ولكن لا تنفث ، فعوذته بالمعوذتين . قال الحليمي : الذي روى عن عكرمة أنه ينبغي للراقي أن لا ينفث ولا يمسح ولا يعقد ، فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفث في العقد مما يستعاذ منه ، فوجب أن يكون منهياً عنه إلا أن هذا ضعيف ، لأن النفث في العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح والأبدان ، فأما إذا كان هذا النفث لإصلاح الأرواح والأبدان وجب أن لا يكون حراماً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى قال في مفتاح القراءة (فاستعذ بالله) وقال ههنا (أعوذ برب الفلق) وفي موضع آخر (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) وجاء في الأحاديث (أعوذ بكلمات الله التامات) ولا شك أن أفضل أسماء الله هو الله . وأما الرب فإنه قد يطلق على غيره ، قال تعالى (أأرباب متفرقون) فما السبب في أنه تعالى عند الأمر بالتعوذ لم يقل أعوذ بالله بل قال (برب الفلق) ؟ وأجابوا عنه من وجوه : (أحدها) أنه في قوله (وإذا قرأت القرآن فاستعذ

بالله) إنما أمره بالاستعاذة هناك لأجل قراءة القرآن ، وإنما أمره بالاستعاذة ههنا فى هذه السورة لأجل حفظ النفس والبدن عن السحر . والمهم الأول أعظم ، فلا جرم ذكر هناك الاسم الأعظم (وثانيها) أن الشيطان يبالغ حال منعك من العبادة أشد مبالغة فى إيصال الضر إلى بدنك وروحك ، فلا جرم ذكر الاسم الأعظم هناك دون ههنا (وثالثها) أن اسم الرب يشير إلى التربية فكأنه جعل تربية الله له فيما تقدم وسيلة إلى تربيته له فى الزمان الآتى ، أو كأن العبد يقول : التربية والاحسان حرفتك فلا تهملى ، ولا تخيب رجائى (ورابعها) أن بالتربية صار شارعاً فى الإحسان ، والشروع ملزم (وخامسها) أن هذه السورة آخر سور القرآن فذكر لفظ الرب تنبيهاً على أنه سبحانه لا تنقطع عنك تربيته وإحسانه ، فإن قيل إنه ختم القرآن على اسم الإله حيث قال (ملك الناس إله الناس) قلنا فيه لطيفة وهى كونه تعالى قال قل أعوذ بمن هو ربى ولكنه إله قاهر لوسوسة الخناس فهو كالأب المشفق الذى يقول ارجع عند مهماتك إلى أبيك المشفق عليك الذى هو كالسيف القاطع والنار المحرقة لأعدائك فيكون هذا من أعظم أنواع الوعد بالإحسان والتربية (وسادسها) كان الحق قال لمحمد عليه السلام قلبك لى فلا تدخل فيه حب غيرى . ولسانك لى فلا تذكر به أحداً غيرى ، وبدنك لى فلا تشغله بخدمة غيرى . وإن أردت شيئاً فلا تطلبه إلا منى ، وإن أردت العلم فقل (رب زدنى علماً) وإن أردت الدنيا فاسالوا الله من فضله ، وإن خفت ضرراً فقل (أعوذ برب الفلق) فإنى أنا الذى وصفت نفسى بأنى خالق الإصباح . وبأنى فالق الحب والنوى ، وما فعلت هذه الأشياء إلا لأجلك . فإذا كنت أفعل كل هذه الأمور لأجلك ، أفلا أصونك عن الآفات والمخافات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكروا فى (الفلق) وجوهاً (أحدها) أنه الصبح وهو قول الأكثرين قال الزجاج لأن الليل يفلق عنه الصبح ويفرق فعل بمعنى مفعول يقال هو أبين من فلق الصبح ومن فرق الصبح وتخصيصه فى التعوذ لوجوه (الأول) أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل مايخافه ويخشاه (الثانى) أن طلوع الصبح كالمثال لمجىء الفرج ، فكما أن الإنسان فى الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح (الثالث) أن الصبح كالبشرى فإن الإنسان فى الظلام يكون كلحم على وضم ، فإذا ظهر الصبح فكأنه صاح بالأمان وبشر بالفرج ، فلهذا السبب يجد كل مريض ومهموم خفة فى وقت السحر ، فالحق سبحانه يقول (قل أعوذ برب) يعطى إنعام فلق الصبح قبل السؤال فكيف بعد السؤال (الرابع) قال بعضهم إن يوسف عليه السلام لما ألقى فى الجب وجعت ركبته وجعاً شديداً فبات ليلته ساهراً فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل عليه السلام بإذن الله يسليه ويأمره بأن يدعو ربه فقال ياجبريل ادع أنت وأؤمن أنا فدعا جبريل وأمن يوسف فكشف الله ماكان به من الضر . فلما طاب وقت يوسف قال ياجبريل وأنا أدعو أيضاً

وتؤمن أنت ، فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع أهل البلاء فى ذلك الوقت ، فلا جرم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة فى آخر الليل ، وروى أن دعاءه فى الجب : ياعدتى فى شدتى ويامؤنسى فى وحشتى وياراحم غربتى ويا كاشف كربتى ويامجيب دعوتى ، ويا إلهى وإله آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ارحم صغر سنى وضعف ركنى وقلة حيلتى ياحى ياقيوم ياذا الجلال والإكرام (الخامس) لعل تخصيص الصبح بالذكر فى هذا الموضع لأنه وقت دعاء المضطرين وإجابة الملهوفين فكأنه يقول قل أعوذ برب الوقت الذى يفرج فيه فيه عن كل مهموم (السادس) يحتمل أنه خص الصبح بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة لأن الخلق كالأموات والدور كالقبور ، ثم منهم من يخرج من داره مفلساً عرياناً لا يلتفت إليه ، ومنهم من كان مديوناً فيجر إلى الحبس ، ومنهم من كان ملكا مطاعا فتقدم إليه المراكب ويقوم الناس بين يديه ، كذا فى يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب عار عن لباس التقوى يجر إلى الملك الجبار ، ومن عبد كان مطيعاً لربه فى الدنيا فصار ملكا مطاعا فى العقبى يقدم إليه البراق (السابع) يحتمل أنه تعالى خص الصبح بالذكر لأنه وقت الصلاة الجامعة لأحوال القيامة فالقيام فى الصلاة يذكر القيام يوم القيامة كما قال (يوم يقوم الناس لرب العالمين) والقراءة فى الصلاة تذكر قراءة الكتب والركوع فى الصلاة يذكر من القيامة قوله (ناكسوا رؤوسهم) والسجود فى الصلاة يذكر قوله (ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) والقعود يذكر قوله (وترى كل أمة جاثية) فكان العبد يقول : إلهى كما خلصتنى من ظلمة الليل خلصنى من هذه الأهوال ، وإنما خص وقت صلاة الصبح لأن لها مزيد شرف على ما قال (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) أى تحضرها ملائكة الليل والنهار (الثامن) أنه وقت الاستغفار والتضرع على ما قال (والمستغفرين بالأسحار) (القول الثانى) فى الفلق أنه عبارة عن كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات (إن الله فالق الحب والنوى) والجبال عن العيون (وإن منها لما يتفجر منه الأنهار) والسحاب عن الأمطار والأرحام عن الأولاد والبيض عن الفرخ والقلوب عن المعارف ، وإذا تأملت الخلق تبين لك أن أكثره عن انقلاب ، بل العدم كأنه ظلمة والنور كأنه الوجود ، وثبت أنه كان الله فى الأزل ولم يكن معه شىء البتة فكأنه سبحانه هو الذى فلق بحار ظلمات العدم بأنوار الإيجاد والتكوين والإبداع . فهذا هو المراد من الفلق ، وهذا التأويل أقرب من وجوه (أحدها) هو أن الموجود إما الخالق وإما الخلق ، فإذا فسرنا الفلق بهذا التفسير صار كأنه قال : قل أعوذ برب جميع الممكنات ، ومكون كل المحدثات والمبدعات . فيكون التعظيم فيه أعظم ، ويكون الصبح أحد الأمور الداخلة فى هذا المعنى (وثانيها) أن كل موجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته ، والممكن لذاته يكون موجوداً بغيره ، معدوماً فى حد ذاته ، فإذن كل ممكن فلا بد له من مؤثر يؤثر فيه حال حدوثه ويبقيه حال بقائه ، فإن الممكن حال بقائه يفتقر إلى المؤثر والتربية ، إشارة لا إلى حال الحدوث بل إلى حال البقاء ، فكأنه يقول : إنك لست محتاجاً إلى حال

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ «٢»

الحدوث فقط بل فى حال الحدوث وحال البقاء معاً فى الذات وفى جميع الصفات ، فقوله (برب الفلق) يدل على احتياج كل ما عداه إليه حالتى الحدوث والبقاء فى الماهية والوجود بحسب الذوات والصفات وسر التوحيد لايصفو عن شوائب الشرك إلا عند مشاهدة هذه المعانى ، (وثالثها) أن التصوير والتكوين فى الظلمة أصعب منه فى النور ، فكأنه يقول أنا الذى أفعل ما أفعله قبل طلوع الأنوار وظهور الأضواء. ومثل ذلك مما لا يتأتى إلا بالعلم التام والحكمة البالغة وإليه الإشارة بقوله (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لاإله إلا هو العزيز الحكيم)

(القول الثالث) أنه واد فى جهنم أوجب فيها من قولهم لما اطمأن من الأرض الفلق والجمع فلقان ، وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرآى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش فقال لا أبالى ، أليس من ورائهم الفلق ، فقيل وما الفلق ؟ قال بيت فى جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره ، وإنما خصه بالذكر ههنا لأنه هو القادر على مثل هذا التعذيب العظيم الخارج عن حد أوهام الخلق ، ثم قد ثبت أن رحمته أعظم وأكمل وأتم من عذابه ، فكأنه يقول ياصاحب العذاب الشديد أعوذ برحمتك التى هى أعظم وأكمل وأتم وأسبق وأقدم من عذابك .

قوله تعالى ﴿ من شر ماخلق ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير هذه الآية وجوه (أحدها) قال عطاء عن ابن عباس يريد إبليس خاصة لأن الله تعالى لم يخلق خلقاً هو شر منه ولأن السورة إنما نزلت فى الاستعاذة من السحر ، وذلك إنما يتم بإبليس وبأعوانه وجنوده (وثانيها) يريد جهنم كأنه يقول قل أعوذ برب جهنم ومن شدائد ما خلق فيها (وثالثها) (من شر ما خلق) يريد من شر أصناف الحيوانات المؤذيات كالسباع والهوام وغيرهما ، ويجوز أن يدخل فيه من يؤذى من الجن والإنس أيضاً ووصف أفعالها بأنها شر ، وإنما جاز إدخال الجن والإنسان تحت لفظة ما ، لأن الغلبة لما حصلت فى جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة ما فيه ، لأن العبرة بالأغلب أيضاً ويدخل فيه شرور الأطعمة الممرضة وشرور الماء والنار، فإن قيل الآلام الحاصلة عقيب الماء والنار ولدغ الحية والعقرب حاصلة بخلق الله تعالى ابتداء ، على ماهو قول أكثر المتكلمين ، أومتولدة من قوى خلقها الله تعالى فى هذه الأجرام ، على ماهو قول جمهور الحكماء وبعض المتكلمين ، وعلى التقديرين فيصير حاصل الآية أنه تعالى أمر الرسول عليه السلام بأن يستعيذ بالله من الله ، فما معناه ؟ قلنا وأى بأس بذلك ، ولقد صرح عليه السلام بذلك ، فقال « وأعوذ بك منك » (ورابعها) أراد به ما خلق من الأمراض والأسقام والقحط وأنواع المحن والآفات ، وزعم الجبائى والقاضى أن هذا التفسير باطل ، لأن فعل الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شر ، قالوا

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ «٣»

ويدل عليه وجوه (الأول) أنه يلزم على هذا التقدير أن الذى أمر بالتعوذ منه هو الذى أمرنا أن نتعوذ به ، وذلك متناقض (والثانى) أن أفعال الله كلها حكمة وصواب ، وذلك لا يجوز أن يقال إنه شر (والثالث) أن فعل الله لو كان شراً لوصف فاعله بأنه شرير ويتعالى الله عن ذلك (والجواب) عن الأول أنا بينا أنه لا امتناع فى قوله أعوذ بك منك ؟ وعن الثانى أن الإنسان لما تألم به فإنه يعده شراً ، فورد اللفظ على وفق قوله ، كما فى قوله . (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وعن الثالث أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية ، ثم الذى يدل على جواز تسمية الأمراض والأسقام بأنها شرور قوله تعالى (إذا مسه الشر جزوعا) وقوله (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) وكان عليه السلام يقول « وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار » .

﴿ المسألة الثانية ﴾ طعن بعض الملحدة فى قوله (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق) من وجوه (أحدها) أن المستعاذ منه أهو واقع بقضاء الله وقدره ، أولا بقضاء الله ولا بقدره ؟ فإن كان الأول فكيف أمر بأن يستعيذ بالله منه ، وذلك لأن ماقضى الله به وقدره فهو واقع ، فكأنه تعالى يقول الشىء الذى قضيت بوقوعه ، وهو لابد واقع فاستعذ بى منه حتى لا أوقعه ، وإن لم يكن بقضائه وقدره فذلك يقدح فى ملك الله وملكوته (وثانيها) أن المستعاذ منه إن كان معلوم الوقوع فلا دافع له ، فلا فائدة فى الاستعاذة وإن كان معلوم اللاوقوع ، فلا حاجة إلى الاستعاذة (وثالثها) أن المستعاذ منه إن كان مصلحة فكيف رغب المكلف فى طلب دفعه ومنعه ، وإن كان مفسدة فكيف خلقه وقدره ، واعلم أن الجواب عن أمثال هذه الشبهات ، أن يقال إنه (لا يسأل عما يفعل) وقد تكرر هذا الكلام فى هذا الكتاب .

قوله تعالى ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ ذكروا فى الغاسق وجوهاً (أحدها) أن الغاسق هو الليل إذا عظم ظلامه من قوله (إلى غسق الليل) ومنه غسقت العين إذا امتلأت دمعاً وغسقت الجراحة إذا امتلأت دماً ، وهذا قول الفراء وأبى عبيدة ، وأنشد ابن قيس :

إن هذا الليل قد غسقا   واشتكيت الهم والأرقا

وقال الزجاج الغاسق فى اللغة هو البارد ، وسمى الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار ، ومنه قوله إنه الزمهرير (وثالثها) قال قوم الغاسق والغساق هو السائل من قولهم : غسقت العين تغسق غسقاً إذا سالت بالماء ، وسمى الليل غاسقاً لانصباب ظلامه على الأرض ، أما الوقوب فهو الدخول فى شىء آخر بحيث يغيب عن العين ، يقال وقب يقب وقوباً إذا دخل ، والوقبة النقرة لأنه يدخل فيها الماء . والإيقاب إدخال الشىء فى الوقبة ، هذا ما يتعلق باللغة وللمفسرين فى الآية أقوال

وَمِنْ شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِى ٱلْعُقَدِ «٤»

(أحدها) أن الغاسق إذا وقب هو الليل إذا دخل ، وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل لأن فى الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من مكانها ، ويهجم السارق والمكابر ويقع الحريق ويقل فيه الغوث ، ولذلك لو شهر [معتد] سلاحا على إنسان ليلا فقتله المشهور عليه لا يلزمه قصاص ، ولو كان نهاراً يلزمه لأنه يوجد فيه الغوث ، وقال قوم إن فى الليل تنتشر الأرواح المؤذية المسماة بالجن والشياطين ، وذلك لأن قوة شعاع الشمس كأنها تقهرهم ، أما فى الليل فيحصل لهم نوع استيلاء (وثانيها) أن الغاسق إذا وقب هو القمر ، قال ابن قتيبة الغاسق القمر سمى به لأنه يكسف فيغسق ، أى يذهب ضوؤه ويسود ، [و] وقوبه دخوله فى ذلك الاسوداد . روى أبو سلمة عن عائشة أنه أخذ رسول الله ﷺ بيدها وأشار إلى القمر ، وقال « استعيذى بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب » قال ابن قتيبة : ومعنى قوله تعوذى بالله من شره إذا وقب أى إذا دخل فى الكسوف ، وعندى فيه وجه آخر : وهو أنه صح أن القمر فى جرمه غير مستنير بل هو مظلم ، فهذا هو المراد من كونه غاسقاً ، وأما وقوبه فهو انمحاء نوره فى آخر الشهر ، والمنجمون يقولون إنه فى آخر الشهر يكون منحوساً قليل القوة لأنه لا يزال ينتقص نوره فبسبب ذلك تزداد نحوسته ، ولذلك فإن السحرة إنما يشتغلون بالسحر المورث للتمريض فى هذا الوقت ، وهذا مناسب لسبب نزول السورة فإنها إنما نزلت لأجل أنهم سحروا النبى ﷺ لأجل التمريض (وثالثها) قال ابن زيد الغاسق إذا وقب يعنى الثريا إذا سقطت قال ، وكانت الأسقام تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، وعلى هذا تسمى الثريا غاسقاً ، لانصبابه عند وقوعه فى المغرب ، ووقوبه دخوله تحت الأرض وغيبوبته عن الأعين (ورابعها) قال صاحب الكشاف يجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات ووقوبه ضربه ونقبه ، والوقب والنقب واحد . واعلم أن هذا التأويل أضعف الوجوه المذكورة (وخامسها) الغاسق (إذا وقب) هو الشمس إذا غابت وإنما سميت غاسقاً لأنها فى الفلك تسبح فسمى حركتها وجريانها بالغسق ، ووقوبها غيبتها ودخولها تحت الأرض .

قوله تعالى ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ فيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الآية قولان (الأول) أن النفث النفخ مع ريق ، هكذا قاله صاحب الكشاف ، ومنهم من قال إنه النفخ فقط ، ومنه قوله عليه السلام إن جبريل نفث فى روعى والعقد جمع عقدة ، والسبب فيه أن الساحر إذا أخذ فى قراءة الرقية أخذ خيطاً ، ولا يزال يعقد عليه عقداً بعد عقد وينفث فى تلك العقد ، وإنما أنث النفاثات لوجوه (أحدها) أن هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء لأنهن يعقدن وينفثن ، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر وإحكام الهمة والوهم فيه ، وذلك إنما يتأتى من النساء لقلة علمهن وشدة شهوتهن ، فلا جرم كان

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ «٥»

هذا العمل منهن أقوى ، قال أبوعبيدة (النفاثات) هن بنات لبيد بن أعصم اليهودى سحرن النبى ﷺ (وثانيها) أن المراد من (النفاثات) النفوس (وثالثها) المراد منها الجماعات ، وذلك لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد أكثر كان التأثير أشد (القول الثانى) وهو اختيار أبى مسلم (من شر النفاثات) أى النساء فى العقد ، أى فى عزائم الرجال وآرائهم وهو مستعار من عقد الحبال ، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حله سهلا ، فمعنى الآية أن النساء لأجل كثرة حبهن فى قلوب الرجال يتصرفن فى الرجال يحولنهم من رأى إلى رأى ، ومن عزيمة إلى عزيمة ، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن كقوله (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) فلذلك عظم الله كيدهن فقال (إن كيدكن عظيم) .

واعلم أن هذا القول قول حسن ، لولا أنه على خلاف قول أكثر المفسرين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنكرت المعتزلة تأثير السحر ، وقد تقدمت هذه المسألة ، ثم قالوا سبب الاستعاذة من شرهن لثلاثة أوجه (أحدها) أن يستعاذ من اثم عملهن فى السحر (والثانى) أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن (والثالث) أن يستعاذ من إطعامهن الأطعمة الرديئة المورثة للجنون والموت .

قوله تعالى ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ من المعلوم أن الحاسد هو الذى تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه ، ولا يكاد يكون كذلك إلا ولو تمكن من ذلك بالحيل لفعل ، فلذلك أمر الله بالتعوذ منه ، وقد دخل فى هذه السورة كل شر يتوقى ويتحرز منه ديناً ودنيا ، فلذلك لما نزلت فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولها لكونها مع ما يليها جامعة فى التعوذ لكل أمر ، ويجوز أن يراد بشر الحاسد اثمه وسماجة حاله فى وقت حسده وإظهار أثره . بقى هنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (من شر ما خلق) عام فى كل ما يستعاذ منه ، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد ؟ (الجواب) تنبيهاً على أن هذه الشرور أعظم أنواع الشر .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه ؟ (الجواب) عرف النفاثات لأن كل نفاثة شريرة ، ونكر غاسقاً لأنه ليس كل غاسق شريراً ، وأيضاً ليس كل حاسد شريراً ، بل رب حسد يكون محموداً وهو الحسد فى الخيرات .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

(سـورة الناس)

(وهى ست آيات مدنيـة)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ «١» مَلِكِ ٱلنَّاسِ «٢» إِلٰهِ ٱلنَّـاسِ «٣»

﴿ سورة الناس ست آيات مدنية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء (قل أعوذ) بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام ونظيره (فخذ أربعة من الطير) وأيضاً أجمع القراء على ترك الإمالة فى الناس ، وروى عن الكسائى الإمالة فى الناس إذا كان فى موضع الخفض ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى رب جميع المحدثات ، ولكنه ههنا ذكر أنه رب الناس على التخصيص وذلك لوجوه (أحدها) أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس فى صدور الناس فكأنه قيل : أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذى يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم كما يستغيث بعض الموالى إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالى أمرهم (وثانيها) أن أشرف المخلوقات فى هذا العالم هم الناس (وثالثها) أن المأمور بالاستعاذة هو الإنسان ، فاذا قرأ الإنسان هذه السورة صار كأنه يقول : يارب ياملكى يا إلهى .

﴿ المسـألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (ملك الناس ، إله الناس) هما عطف بيان كقوله سيرة أبى حفص عمر الفاروق ، فوصف أولا بأنه رب الناس ثم الرب قد يكون ملكا وقد لايكون ، كما يقال رب الدار ورب المتاع قال تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) فلاجرم بينه بقوله (ملك الناس) ثم الملك قد يكون إلها وقد لا يكون فلا جرم بينه بقوله (إله الناس) لأن الإله خاص به وهو سبحانه لا يشركه فيه غيره وأيضاً بدأ بذكر الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه ، وهو من أوائل نعمه إلى أن رباه وأعطاه العقل فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك وهو ملكه ، فثنى بذكر الملك ، ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه ، وعرف أن معبوده مستحق لتلك العبادة عرف أنه إله ، فلهذا ختم به ، وأيضاً أول مايعرف العبد من ربه كونه معطياً لما عنده من النعم الظاهرة والباطنة ، وهذا هو الرب ، ثم لا يزال ينتقل من معرفة هذه الصفات

مِنْ شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ «٤» ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ «٥»

إلى معرفة جلالته واستغنائه عن الخلق ، فحينئذ يحصل العلم بكونه ملكا ، لأن الملك هو الذى يفتقر إليه غيره ويكون هو غنياً عن غيره ، ثم إذا عرفه العبد كذلك عرف أنه فى الجلالة والكبرياء فوق وصف الواصفين وأنه هو الذى ولهت العقول فى عزته وعظمته ، فحينئذ يعرفه إلهاً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ السبب فى تكرير لفظ الناس أنه إنما تكررت هذه الصفات ، لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد الإظهار ، ولأن هذا التكرير يقتضى مزيد شرف الناس ، لأنه سبحانه كأنه عرف ذاته بكونه رباً للناس ، ملكا للناس ، إلهاً للناس . ولولا أن الناس أشرف مخلوقاته وإلا لما ختم كتابه بتعريف ذاته بكونه رباً وملكا وإلهاً لهم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لا يجوز ههنا مالك الناس ويجوز (مالك يوم الدين) فى سورة الفاتحة ، والفرق أن قوله (رب الناس) أفاد كونه مالكا لهم فلابد وأن يكون المذكور عقيبه هذا الملك ليفيد أنه مالك ومع كونه مالكا فهو ملك ، فإن قيل أليس قال فى سورة الفاتحة (رب العالمين) ثم قال (مالك يوم الدين) فيلزم وقوع التكرار هناك ؟ قلنا اللفظ دل على أنه رب العالمين ، وهى الأشياء الموجودة فى الحال ، وعلى أنه مالك ليوم الدين أى قادر عليه فهناك الرب مضاف إلى شىء والمالك إلى شىء آخر فلم يلزم التكرير . وأما ههنا لو ذكر المالك لكان الرب والمالك مضافين إلى شىء واحد ، فيلزم منه التكرير فظهر الفرق ، وأيضاً فجواز القراءات يتبع النزول لا القياس ، وقد قرىء مالك لكن فى الشواذ .

قوله تعالى ﴿ من شر الوسواس الخناس ﴾ الوسواس اسم بمعنى الوسوسة ، كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال والمراد به الشيطان سمى بالمصدر ، كأنه وسوسة فى نفسه لأنها صنعته وشغله الذى هو عاكف عليه ، نظيره قوله (إنه عمل غير صالح) والمراد ذو الوسواس وتحقيق الكلام فى الوسوسة قد تقدم فى قوله (فوسوس لهما الشيطان) وأما الخناس فهو الذى عادته أن يخنس منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والنفاث ، عن سعيد بن جبير إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى . فإذا غفل وسوس إليه .

قوله تعالى ﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾ .

اعلم أن قوله (الذى يوسوس) يجوز فى محله الحركات الثلاث فالجر على الصفة والرفع والنصب على الشتم ، ويحسن أن يقف القارىء على الخناس ويبتدىء الذى يوسوس ، على أحد هذين الوجهين .

مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ «٦»

أما قوله تعـالى ﴿ من الجنة والناس ﴾ ففيه وجوه :

﴿ أحدها ﴾ كأنه يقول الوسواس الخناس قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس كما قال (شياطين الإنس والجن) وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى فشيطان الإنس يكون كذلك ، وذلك لأنه يرى نفسه كالناصح المشفق ، فإن زجره السامع يخنس ، ويترك الوسوسة ، وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه (وثانيها) قال قوم قوله (من الجنة والناس) قسمان مندرجان تحت قوله فى (صدور الناس) كأن القدر المشترك بين الجن والإنس ، يسمى إنساناً والإنسان أيضاً يسمى إنساناً فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس والنوع بالاشتراك ،والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه الجن والإنس ما روى أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم من أنتم فقالوا أناس من الجن ، وأيضاً قد سماهم الله رجالا فى قوله (أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) فجاز أيضاً أن يسميهم ههنا ناساً ، فمعنى الآية على هذا التقدير أن هذا الوسواس الخناس شديد الخبث لايقتصر على إضلال الإنس بل يضل جنسه وهم الجن ، فجدير أن يحذر العاقل شره ، وهذا القول ضعيف ، لأن جعل الإنسان اسما للجنس الذى يندرج فيه الجن والإنس بعيد من اللغة لأن الجن سموا جناً لاجتنانهم والإنسان إنساناً لظهوره من الإيناس وهو الإبصار ، وقال صاحب الكشاف من أراد تقرير هذا الوجه ، فالأولى أن يقول المراد من قوله (يوسوس فى صدور الناس) أى فى صدور الناسى كقوله (يوم يدع الداع) وإذا كان المراد من الناس هو الناسى ، فحينئذ يمكن تقسيمه إلى الجن والإنس لأنهما هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله تعالى (وثالثها) أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس ومن الجنة والناس كأنه استعاذ بربه من ذلك الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس .

واعلم أن فى هذه السورة لطيفة أخرى : وهى أن المستعاذ به فى السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهى أنه رب الفلق . والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات ، وهى الغاسق والنفاثات والحاسد ، وأما فى هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة : وهى الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهى الوسوسة . والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب ، فالمطلوب فى السورة الأولى سلامة النفس والبدن ، والمطلوب فى السورة الثانية سلامة الدين ، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت ، أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

خاتمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رفيع الدرجات ، المقصود بالقربات ، المتمم للصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب المعجزات ، والمؤيد بالآيات البينات ، وعلى آله وصحبه ذوى المقامات والكرامات ، والناهجين على منواله إلى يوم الممات .

وبعد فقد تم الفراغ من طبع هذا التفسير الكبير الذى هو أجل التفاسير وأعظمها وأوسعها وأغزرها مادة ، وأكثرها وأعمها فى الإفادة ، ولا عجب فمؤلفه الإمام فخر الدين الرازى البحر الذى لا ينزف علمه ، والخضم الذى لايسبر غوره ، والطود الشامخ الذى لايوصف أممه ولا تعلى قممه ، وذلك [بالمطبعة البهية المصرية] التى أسسها بالقاهرة المرحوم السيد ـ محمد مصطفى فى سنة ١٣٠٢ هجرية ، وهى ليست أقدم دار عربية للنشر فحسب بل هى أقدم مطبعة مصرية أهلية على الاطلاق مازالت قائمة إلى الآن ، وقد أخرجت للمسلمين منذ تأسيسها أعظم الكتب قدراً وأعمها فائدة وأجلها شأناً وأدقها تصحيحاً وتحقيقاً وإخراجاً — وبوفاة مؤسس هذه المطبعة العظيمة فى سنة ١٣٢٨ هجرية انتقلت ملكيتها وإدارتها إلى نجله السيد ـ عبد الرحمن محمد صاحب الخط الجميل ، الفائق البديع ، البالغ فى الإتقان أعلى درجات الإحسان ، والذى كتب القرآن الكريم بقلمه عدة مرات وإليه تنسب المصاحف القرآنية — فسار على منوال المغفور له والده فى إدارة تلك المطبعة وفى خدمة كتاب الله العزيز وكتب التفاسير والأحاديث الشريفة فنشرها على المسلمين فى أدق وضع وعلى أحسن صورة ، وكان من آخر ما أخرجه فيها كتاب فتح البارى فى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى فى ثلاثة عشرة مجلداً كبيراً ، وكتاب شرح صحيح البخارى للامام الكرمانى فى خمسة وعشرين جزءاً ، وهى من أمهات كتب شرح الحديث الشريف ، فنسأل الله أن يضاعف له الأجور وأن يتقبل عمله فى هذا الكتاب وفى غيره

خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعل تجارته فى الدارين لن تبور — وأعلى الله شأن الإسلام ورفع قدر الأمة الإسلامية وأعمر أمصارها وأوسع أقطارها وأعز أقدارها وأكثر أنصارها وأدام نصرها ومجدها وأعلى منارها وبارك فى أرزاقها وأهلها وخيراتها ووفق قادتها إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين وأعزازهم ونصرهم على سائر الأمم بجاه محمد الأمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع أنبيائه ورسله أنه سميع مجيب ؟

محمد عبد الرحمن محمد مصطفى

صاحب القرآن الكريم المطبوع على صفحة واحدة

ومساعد مدير إدارة المطابع والتوريدات بالحكومة المصرية سابقا
ومدير المطبعة البهية المصرية المعروفة حالياً بمطبعة ومكتبة عبد الرحمن محمد
لنشر القرآن الكريم والكتب الاسلامية بميدان الجامع الأزهر بالقاهرة

فهرست الجزء الثانى والثلاثون
من التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازى

تمت الفهرست

والحمد لله رب العالمين اولا وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الاكرم ، وعلى آله وصحبه وسلم